مصابيح العصر والتراث

أنور الجندي

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

ثلاث أعمال لدراسة الفكر الإسلامى و تصحيح مساره :

أولا . دراسة للمفاهيم والقيم وكشف زيف المفاهيم الوافدة .
ثانياً . دراسة للتاريخ الإسلامى ومواقفه الحاسمة .
ثالثاً . دراسة الأعلام من المفكرين والأبطال والقائمين بالحق ، وقد تابعنا فى دراساتنا المتصلة هذه الأعمال الثلاثة .

غير أن استمرار الحرب التغريبية المعلنة على الإسلام وأهله ما زالت تستدعى متابعة كل ما يكتب وكشف زيفه حيث نجد أن اتهامات كثيرة توجه إلى أعلامنا الأبرار (الغزالى وابن تيمية وغيرهم) .

كما أن هناك محاولة للتعتيم على أدوار كريمة وأعمال ضخمة لعلماء مسلمين كالدور الذى قام به الإمام الشافعى فى إنشاء علم أصول الفقه الذى وصل إلى الغرب تحت إسم آخر مع إنكار صاحب الفضل الأول ، أو إنشاء علم القانون الدولى (الشيبانى) أو ما أثير حول قضية هدم الفكر اليونانى وتدميره .

هذه المهمة التى قام بها الإمامين الغزالى وابن تيمية ما زال الكثير من التغريبيين يحمل حملات شديدة على الرجلين لأنهما ردا عن الإسلام خطر (علم الأصنام) ودمرا فتنة كادت تطيح بمفهوم الإصالة الإسلامية .

وفى العصر الحديث ظهر رجال أبرار قاموا بأدوار كبيرة فإذا جاء ذكر النهضة أو الإصلاح تجوهلت هذه الأسماء وذكرت أسماء أخرى لم يكن لها دور غير أن

للتغريب رددها وأعلاها ، وحشد لها النفوذ الأجنبي من عوامل الشهرة والدوى ما خدع بها الكثيرون .

ومن هؤلاء طه حسين وسلامه موسى وعلى عبد الرازق وزكى نجيب محمود ولويس عوض . بينما تنوسى الفرسان الحقيقيين لهذه النهضة، من أمثال عبد العزيز جاويش ومصطفى صادق والرافعى وإقبال ومالك بن بنى وحسن البنا وأمين الرافعى وعبد الحميد بن باديس وغيرهم .

وهناك من وقفوا فى وجه الغزو الاستعمارى أمثال السلطان عبد الحميد ومن دخلوا فى الإسلام فأضاءوا للمسلمين شعلة جديدة أمثال محمد أسد وناصر الدين دينيه ومن عملوا فى حقل التراث أمثال فؤاد سزسكين . وفى المرحلة الأخيرة لهذا القرن ظهرت أسماء طيبة يجب أن ينوه بها ويعرض فكرها .

رشدى فطار وطارق البشرى وأحمد ديدات وجمال محفوظ ، وليس هذا على سبيل الحصر بل هو على سبيل التذكار .

فقد عرضنا لمجموعات أخرى من قبل فى دراساتنا عن أعلام الإسلام .

(أعلام وأصحاب أقلام)
(تراجم أعلام العالم الإسلامى)
(أعلام القرن الرابع عشر)

ويعد عملنا هذا بمثابة حلقة جديدة تضاف إلى دراسات أعلام الإسلام الممتدة التى لا تنتهى بإذن الله .

وغاية ما يقال عنها أنها عنيت بتثبيت فكرة أصيلة ومعارضة فكرة باطلة ووضعت كلمات فى خدمة منهج تصحيح المفاهيم وتحرير القيم ومواجهة التغريب وشبهاته المثارة .

هذا وبالله التوفيق ؟

الباب الأول

مصابيح التراث

١ ـ الشافعى

٢ ـ أبو الحسن الشيبانى

٣ - أبو حامد الغزالى

٤ - ابن تيمية

٥ ـ ابن خلدون

الفصل الأول

الإمام الشافعى

منشىء علم أصول الفقه

كان أعظم أعمال الإمام الشافعى إنشاء علم أصول الفقه ولا يعرف قدر هذا العمل إلا بتقدير خطورة وضخامة هذا العلم فى تكوين العقلية الإسلامية فهو الذى أنشأ هذا الكتاب الذى أسس هذا العلم النافع البالغ الأهمية وصاغ منهجه : هذا المنهج الذى يرتبط من ناحية بمناهج علوم اللغة العربية الأساسية التى صاغها الخليل بن أحمد فكانت أول تأسيس للعلم أو للمناهج العلمية فى ثقافتنا ، ثم هو المنهج الذى اقتبسته بعد ذلك كل العلوم العربية قاطبة .

قال الإمام الفخر الرازى : واعلم أن نسبة الشافعى إلى علم الأصول كنسبة أرسطوطاليس إلى علم المنطق وكنسبة الخليل إلى علم العروض الأول . الأول استخرج علم المنطق لكى يصبح قانوناً مخلصاً فى كيفية ترتيب الحدود والبراهين ، واستخرج الخليل علم العروض فكان ذلك قانوناً كلياً فى معرفة صالح الشعر وفاسده .

فكذلك الشافعى رضى الله عنه ، فما كان للناس قبله قانون كلى مرجوع إليه فى معرفة دلائل الشريعة وفى كيفية معارضتها وترجيحاتها فاستنبط الشافعى رحمة الله عليه أصول الفقه ووضع للخلق قانوناً كلياً يرجع إليه فى معرفة مراتب أدلة الشرع فثبت أن نسبة الشافعى إلى علم الشرع (أى أصول الفقه) كنسبة أرسطو إلى علم العقل .

كذلك لم يكن الإمام الشافعي مؤسساً لعلم الشرع وحده، وإنما كان مؤسساً للمنهج العام الذي اتبعه العقل العربي الإسلامي في كل تاريخه بما له وما عليه.

وقد أجمع الدارسون القدامى والمحدثين أن علم الفقه وعلم الأصول كانا علمين من إنتاج عربي إسلامي محض لم يخالطهما سواء في الموضوعات أو في المناهج أو في الأحكام أي علوم أعجمية من أي نوع. تماماً مثل أسس علوم اللغة التي وضعها الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه.

وعلم الفقه الإسلامي هو أول محاولة لإنشاء علم القوانين متميز، وكان الفقه الإسلامي ولا يزال أقرب منتجات العقل العربي إلى التعبير عن خصوصيته فهو الميدان الذي تلاقت مختلف الاختصاصات فيه قبل عصر التدوين وبعده.

والقواعد والمنهج الذي وضعه الإمام الشافعي ابتكاراً من خلال أعمال عقله في نص القرآن وفيما ثبت لديه من أقوال أئمة الصحابة نقلا عن الرسول ﷺ ثم في أصول اللغة العربية التي جاء بها بيان الله لعباده (القرآن).

أما القول بأن هذا المنهج لا يقل عن قواعد المنهج الذي وضعه ديكارت فهو قول خطأ لأن ديكارت أخذ أصول مذهبه من الإمام الغزالي. وقد عرف الشافعي مقدار حجم الخطر الذي يهدد اللغة والشريعة معاً ويهدد معهما العقيدة بالتالي. وقد أدرك أن الخليل قد اكتشف في اللغة نفسها قانونها واستخلص من ذلك القانون (قانون النظام اللغوي) فيما يتعلق بالأوزان والمعاني وكان سيبويه يواصل مهمة أستاذه بأن يستخلص من اللغة نفسها قانون البناء ومنطقه (أي النحو) الذي به يتم إحكام القول، وعندما طابق الشافعي بين نتائج عمل علماء اللغة وبين ما كان يفعله علماء التفسير في المدينة اكتشف طريقه.

كان علماء التفسير يبحثون في معاني القرآن الكريم من خلال معرفتهم الواقعة باللغة نفسها. ومن ثم اكتملت خيوط التفكير لدى الشافعي في مجاله الأكبر (الفقه) وبان له منطلقه الأساسي وهو العلاقة بين النص القرآني أو نص الحديث النبوي وبين المعاني الحقيقية التي تحملها ألفاظ هذا النص وتراكيبه

وبين العلم باللغة ، وبما أن القرآن وصفه الله تبارك وتعالى بأنه بيان للناس ، فقد استنتج الشافعى أن عليه أن يبدأ بتوضيح معنى البيان . بذلك تبدأ (الرسالة) التى وضع فيها الشافعى أصول الفقه ومنهجه العلمى به .

كيف البيان ؟ ويجيب الشافعى : البيان إسم جامع لمعانى مجتمعة الأصول متشعبة الفروع .

فالبيان هو النص القرآنى نفسه الذى نزل بلغة العرب متبعاً أساليب العرب فى التعبير عن المعانى بألفاظ محددة وتراكيب تتحدد بها المعانى التى لا يستطيع أن يدركها من يجهل لسان العرب .

* * *

يقول الدكتور محمد ابراهيم الفيومى : الرسالة للإمام الشافعى أول كتاب عربى أنشأ علماً جديداً هو علم أصول الفقه وله مكانته فى اللسان العربى كشأن المنطق فى اللسان اليونانى وجاء أسلوبه على طراز أدبى رفيع ملىء بالأمثلة والشواهد الفقهية التى ترفع من شأن القاعدة العلمية التى أريد إثباتها وهى تربط بين منهجين :

(المنهج العقلى والمنهج النقلى)
بما حدده من مفاهيم علمية رفيعة ربطت بينهما .

فقد اجتمع له علم أهل الرأى وعلم أهل الحديث . والكتاب يتحدث عن علاقة الوحى بالعقل أى متى يكون الحكم للعقل ، ومتى يكون الحكم للنص ومتى يترابط النص بالعقل ، وفى سبيل ذلك تكلم عن الخاص والعام والناسخ والمنسوخ والعلل فى الحديث والاختلاف فى الروايات وعقد بابا العلم والإجماع والقياس وخواص الاجتهاد والاستحسان .

وهو أول مؤلف أرى بدايات علم أصول الفقه وهو علم جديد فى فنه حقق به الشافعى لقاء بين منهجين على كلمة سواء ، وكان الناس قبل زمان الشافعى فريقين : أصحاب الحديث وأصحاب الرأى ، أما أصحاب الحديث فكانوا حافظين لأخبار رسول الله إلا أنهم كانوا عاجزين عن النظر والجدل ، وكلما أورد عليهم أحد من أصحاب الرأى سؤالا أو إشكالا يسقط فى أيديهم عاجزين .

أما أصحاب الرأى فكانوا أصحاب النظر والجدل ، إلا أنهم عاجزون عن معرفة الآثار والسنن .

ثم أخذ الإمام الرازى يبين مدى ثقافة الإمام الشافعى وكيف استطاع أن يربط بين المنهجين فيقول :

أما الإمام الشافعى فكان عارفاً بسنن رسول الله محيطاً بقوانينها وكان عارفاً بآداب النظر والجدل قوياً فيه ، وكان فصيح الكلام قادراً على قهر الخصوم بالحجة الظاهرة آخذاً فى نصرة أحاديث رسول الله ﷺ وكان من أورد عليه سؤالا أو إشكالا أجاب عليه بأجوبة شافية انقطع بسببها استيلاء أهل الرأى على أصحاب الحديث وسقط دفعهم وتخلص بسببها أصحاب الحديث من شبهات أصحاب الرأى .

وقد ربطت (الرسالة) بين أهل الحديث وأهل الرأى بما أرسته من قوانين علم أصول الفقه من خلال قواعد ذلك العلم التى حكمت العقل ووضحت النص ، اهـ .



الفصل الثانى

أبو الحسن الشيبانى

مؤسس القانون الدولى العام

الرائد الأول للفكر القانونى الدولى فى العالم ، والفقيه الوحيد الذى كتب عن العلاقات الدولية فى الإسلام ، سبق جرونيوس الهولندى الذى يعد عند الأوربيين مؤسس القانون الدولى بأكثر من ثمانمائة عام .

تلميذ أبو حنيفة ومالك وأبو يوسف وأول من كتب فى القانون الدولى بنوعيه العام والخاص كتابة دقيقة مفصلة ، وأول من دون الفقه الإسلامى على منهج دقيق لم يسبق به .فضلا عن أثره فى التقريب بين المدارس الفقهية ومكانته المرموقة بين الأئمة المجتهدين .

(١٣٥ — ١٨١ هـ — ٦٥٢ — ٧٠٤ م)

كتابه السير (جمع سيره) يعنى بها سيرة المسلمين فى المعاملة مع غيرهم من المستأمنين وأهل الذمة والمشركين أيضاً والمرتدين .

توفى الشيبانى **١٨٩** — ٧٠٤ م بينما توفى جرونيوس **١٦٥٢** م حيث كتب كتاباً تحت عنوان فى قوانين الحرب والسلم يوجد تشابه كبير بينه وبين كتاب السير الكبير الشيبانى اعتمد فيه على المصادر الأصيلة الشريعة الإسلامية بينما اعتمد جرونيوس على القانون الطبيعى ولم يات فقهاء القانون الدولى بجديد بالنسبة لما كتبه الشيبانى ، وقد عرف فقهاء أوربا الإمام الشيبانى (محمد بن حسن بن فرقد) فى القرن الماضى بعد أن ترجم كتابه (السير) إلى بعض اللغات الاوربية .

استوعب فى كتابه أحكام العلاقات بين المسلمين وغيرهم فى حالتى السلم

والحرب ومسائل الأسرة وحصانة السفراء والمهادنات والمعاهدات ومجرمى الحرب وأحكام الغنائم .

* * *

يقول الدكتور محمد الدسوقى : إن نشأة القانون الدولى وتاريخه بدأت فى أحضان الإسلام ، فقد كان المسلمون هم الرواد فى البحث فى العلاقات الدولية وأن علماء أوربا على الرغم من تقدم البحث العلمى لم يزيدوا على ما كتبه علماء المسلمين شيئاً ذا بال ، وإن الدراسات الإسلامية فى هذا الموضوع امتازت عن غيرها بتلك الروح الإنسانية التى تخدم الإنسان لذاته دون نظر إلى عقيدته أو جنسه أو لونه والتى تجعل السلم أساس العلاقات بين الناس ، وترى فى الحرب ضرورة لإحقاق الحق ومنع الظلم والفساد وإزالة العوائق عن طريق الدعوة ولا يعترف بها وسيلة لقهر الضعفاء وامتهانهم ونهب ثرواتهم ، والتى تقوم على التعاون على البر والتقوى ، لا على الإثم والبغى والعدوان .

ويرجع مؤرخو القانون الدولى من الأوربيين إلى أن جرونيوس الهولندى هو مؤسس القانون الدولى المتوفى ١٦٤٥ م ولكنهم يغفلون عمداً أو جهلا الحديث عن فقيه مسلم توفى قبل جرنيوس بنحو ثمانية قرون كان أول من دون الفقه الإسلامى وكتب فى العلاقات الدولية كتابة مفصلة دقيقة شملت كل ما يتصل بقضايا هذا القانون .

هو الإمام الشيبانى (تلميذ أبى حنيفة وصاحب أبى يوسف) وكتابه (السير الكبير) الذى عده هارون الرشيد فخراً لعصره بعد فخر الفكر الاسلامى فى كل عصوره فى عرف تاريخ هذا الفكر قديماً وحديثاً ، عملا خاصاً بالعلاقات الدولية مثل هذا الكتاب ، ولقد درس الإمام الشيبانى فى كتابه فى تفصيل شامل أحكام العلاقات بين المسلمين وغيرهم فى السلم والحرب على نحو لم يسبق إليه ومن أهمها :

(١) قضية الرباط : والاستعداد الدائم لتأمين طريق الدعوة إلى الاسلام ولرد كل اعتداء يقع على ديار المسلمين ووصايا الأمراء إذا بعثوا جيشاً أو سرية ووجوب تعيين أمير الجيش .

(٢) الحرب وأصولها وغايتها وآثارها فى المغانم والأسرى وما يتصل بالأمان والأنفال والفداء .

(٣) أحكام الموادعة وأهل الذمة والمستأمنين والمعاهدات ونقضها وجرائم الحرب وحقوق الرسل وسريان الأحكام بالنسبة للمسلمين وغيرهم فى دار السلام ودار الحرب .

* * *

والسير جمع سيرة (وليس يقصد بها المغازى) بل بيان سيرة المسلمين فى المعاملة مع المشركين من أهل الحروب ومع أهل العهد منهم من المستأمنين وأهل الذمة ومع المرتدين الذين هم أخبث الكفار بالإنكار بعد الإقرار ، ومع أهل البغى الذين حالهم دون حال المشركين .

و (السير الكبير) عمل فريد فى بابه من حيث الكم والكيف ، وقد استوعب فيه الإمام الشيبانى أحكام العلاقات بين المسلمين وغيرهم فى حالتى السلم والحرب ودرس فى دقة مسائل كثيرة لم يتنبه إليها الباحثون فى القانون الدولى إلا بعد أكثر من ثمانية قرون .

وقد تكلم فى السير قبله أبى حنيفة والأوزاعى وأبى يوسف ولكنه استطاع أن يقدم منهجاً جامعاً ، وكانت تلك المحاولات الأولى أشبه بمقدمات له فاستحق بذلك أن يكون رائد الفكر الدولى فى العالم كله ، وقد استقى الشيبانى مادة كتابه من علماء عصره فقهاء ومحدثين فضلا عن القرآن الكريم الذى هو الأساس الذى أقام عليه عمله المبتكر .

وقد تنبه فقهاء فرنسا إلى ريادة الشيبانى وسبقه لجروتيوس بأكثر من ثمانمائة عام ، وعرفوا سبقه فى اعتماده على المصادر الأصلية للشريعة الاسلامية حيث تحدث فى أمور وقضايا لم يتحدث عنها غيره من الفقهاء . فأنشأو فى عام ١٩٣٣ جمعية الشيبانى للقانون الدولى فى فرنسا ثم فى ألمانيا وكانوا قد عرفوا الشيبانى لأول مرة ١٨٢٥ عندما ترجم كتابه إلى اللغة التركية لأول مرة .

ثم أقيم بعد ذلك مهرجان الشيباني ١٣٨٩ بمناسبة مرور إثنى عشر قرنا على وفاته وقد اعتمد على كتاب السير علماء كثيرون فى مقدمهم الدكتور نجيب الارمنازى فى أطروحته عن الشرع الدولى .

* * *

للامام الشيباني عمل آخر له أهميته وخطره : ذلك هو كتابه (الكسب) (الاكتساب فى الرزق المستطاب) وهو من أوائل الدراسات الاقتصادية الكبرى ، كتبه بعد كتاب شيخه أبى يوسف (الخراج) وقد تحدث عن الكسب وموارده وحث المسلمين على ذلك دون الميل إلى الرأى المتطرف الذى نشأ من خلال بعض مفاهيم التصوف المغلوطة حيث أشار إلى أن الكسب من أهم وسائل بناء المجتمع وأهمية قيامها على العمل والتحصيل وقد تطرق لوسائل الكسب من التجارة والصناعة والزراعة .

وقد أقام الشيباني منهجا كاملا حيث قدم مفهوماً لنظرية الكسب قارن فيه بين الكسب المادى والكسب المعنوى وبين كيف أن الكسب فى الشريعة الإسلامية له أدلة كثيرة منها ما أوردته الآية الكريمة (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) كما أورد أحاديث عديدة منها (طلب الكسب فريضة على كل مسلم) وقد أوصى الرسول المؤمنين بالتماس الكسب وقال أنه طريق المرسلين وقال أنه مما لابد لكل أحد منه يقيم به صلبه فيفرض على كل أحد الكسب به عينا لأنه لايتوصل إلى إقامة الفرائض إلا به .

هذا فى المرتبة الأولى أما المرتبة الثانية : من كان عليه دين يجب عليه الاكتساب بقدر مايقضى به دينه .

والمرتبة الثالثة : من كان له عيال من زوجة وأولاد فانه يفرض عليه الكسب .

أما المرتبة الرابعة : فإنه يكسب لنفسه وعياله وهو فى سعة

أما المرتبة الخامسة : فمن كان له أبوان كبيران معسران يفرض عليه زيادة الكسب للانفاق عليهما .

* * *

وبكتاب السير الكبير للشيبانى تستكمل حلقات الفكر الإسلامى :

الخراج - لأبى يوسف بن يحيى بن آدم القرشى .

الأموال - لأبى عبيد القاسم بن سلام .

الجهاد وأحكام الجزية والمحاربين (للطبرى) .

أحكام أهل الذمة - لابن القيم .

تبصرة الحكام - لابن فرحون .

وهكذا كان الفكر الإسلامى ملبيا للحاجات المختلفة المتغيرة للناس محققاً لصالحهم ، وقد لوحظ مسايرة أحكام الفقه لتطور الواقع الاجتماعى فى مجال نظام الدولة بوجه خاص وفى أحكام المعاملات بوجه عام .

* * *

وإذا كان أبو الحسن الشيبانى قد أخرج كتاب السير الكبير عن القانون الدولى العام فإن الماوردى قد أخرج الأحكام السلطانية وهو دراسة للقانونين العام والداخلى (كالادارى والدستورى) والعام الخارجى والدولى .

أما القانون الدولى الأجنبى فان حركته لم تبدأ إلا بعد ذلك بعدة قرون عند فيتوريا وسوارز ، وأول كتاب ظهر مستقلا فى ذلك ويمكن مقارنته بكتاب الشيبانى هو كتاب جروسيوس الهولندى وعنوانه (الحرب والسلام) فى القرن السابع عشر الميلادى أى بعد ظهور كتاب الشيبانى بتسعة قرون ،

وقد أثبتت الدراسة التى قامت بها جمعية الشيبانى للحقوق الدولية تفوق الفقه الإسلامى فى ميدان القانون الدولى العام حيث قرر المبادىء الآتية :

١ ـ مبدأ حرية التجارة والملاحة فيها .

٢ ـ الحرب المشروعة وغير المشروعة .

٣ ـ نظرية إعلان الحرب .

٤ ـ معاملة المدنيين غير المتحاربين أثناء الحرب .

٥ ـ معاملة أسرى الحرب .

٦ ـ العهود والمواثيق بين الدول .

وقد أثبت (ميشيل دى توب) أستاذ القانون الدولى العام (لاهاى) ١٩٣١ إن أول من فكر فى وضع قواعد القانون الدولى هما :

فيتوريا وسوارز (القرن السادس عشر) وأنهما كانا يمثلان فى ذلك القواعد الدولية فى الشرع الإسلامى وكلاهما من أسبانيا ، ثم نقل منهما جروسيوس المسمى أبو القانون الدولى (القرن ١٧) وعنه نقل جميع فقهاء القانون فى العصر الحديث .

وقد عدد دى توب ما سبق الإسلام به كل القوانين الدولية وعلى الأخص نظم الحرب ، وأورد وصية الخليفة أبى بكر لأسامه كما أورد أوامر الخليفة الحكم بن عبد الرحمن ٩٦٣م فى قرطبة بالأندلس .

وقال فى الختام هذه هى مختلف القواعد الشرعية الإسلامية التى عمل بها لتخفيف وطأة الحرب فى القرن السابع الميلادى أى منذ بعثة النبى محمد إلى القرن ١٣ فهى إذن سابقة بأمد طويل على الأقطار والمبادىء القانونية المماثلة التى بدأت تشق طريقها فى عصر النهضة خلال الهمجية التى استولت على الحياة الأوروبية

خلال القرن ١٣ مما يدل على أثر القواعد الإسلامية فى القانون الدولى .

ويقول دكتور محمد رشيد قبانى : إن هناك فترة زمنية تفصل بين ظهور الفقه الإسلامى وبين نشوء القانون الدولى العام واستقرار قواعده تقدر بنحو عشرة قرون تقريباً .

ومع ذلك فإن القانون الدولى العام لايبدو الآن رغم التقدم السياسى والاقتصادى والعلمى والاجتماعى فى الصورة المتكاملة التى بدأ بها الفقه الإسلامى وقت ظهوره ولم يصل القانون الدولى العام كقانون عام بين الدول إلى بعض ما تقرره فى الفقه الإسلامى من قواعد دولية إلا حديثاً وفى النصف الثانى من القرن العشرين :

- الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ١٩٤٨ .
- قواعد حرية البحار ١٩٥٨ .
- قواعد قانون المعاهدات ١٩٦٨ .

* * *

ويعتبر الإمام أبو الحسن الشيبانى على رأس قائمة علماء الاقتصاد وأحد مؤسسى مدرسة الرأى الذى سمى فيما بعد بالمذهب الحنفى نسبة إلى شيخ مدرسة الرأى أبو حنيفة وتتلمذ الشيبانى على أبو حنيفة ، وهو أستاذ الشافعى ، قال الشافعى : ما رأيت رجلا أعلم بالحلال والحرام والناسخ والمنسوخ من محمد بن الحسن وما رأيت أحداً قط إذا تكلم رأيت القرآن نزل بلغته .

قال الشافعى : أعرف الأستاذية على لمالك ثم لمحمد بن الحسن .

وقد استفاد الشيبانى من أستاذه مالك ثلاث سنوات حين رحل إلى المدينة وأخذ منه الموطأ .

وله كتاب السير الكبير والسير الصغير والمبسوط وقد سمى علماء الحنفية هذه الكتب الثلاث (الأصل) .

أسس مدرسة فقهية لها أهميتها فى فقه الرأى والدراسة مع مزجها بالرواية وذلك لخبرته العميقة بالحديث .

سمع الحديث من أبى حنيفه وأبى يوسف وغيرهما ممن شاع ذكره بالكوفة والبصرة والمدينة ومكة والشام وبلاد العراق بل جمع إلى علم أبى حنيفة والاوزاعى والثورى ومالك رضى الله عنهم جميعا حتى أصبح إماماً لا يبلغ شأوه فى الفقه قوياً فى التفسير والحديث حجة فى اللغة باتفاق أهل العلم لم يصب بتعصب وهو القائل : ورثت ثلاثين ألفا فصرفت نصفها فى اللغة والشعر والنصف الآخر فى الفقه والحديث .

بلغ أعلى مراتب الاجتهاد وكان يحافظ على إنتسابه لأبى حنيفه النعمان عرفانا لجميل يده عليه فى الفقه وقد إنتهت إليه رئاسة الفقه بالعراق بعد أبى يوسف .

ذكياً متقد الذهن سريع الخاطر قوى الذاكرة .

قال له أبو حنيفة : استظهر القرآن أولا لأن الإجماع بالقرآن ميسوراً فى لاتعدل عنه إلى حجة سواه وله المنزلة الأولى فى الحجة عنده فغاب سبعة أيام ثم جاء مع والده وقال حفظته ثم لازمته أربع سنين ، ثم أتم الفقه عـــلى طريقة أبى حنيفة عند أبى يوسف ثم رحل إلى مالك فلازمه ثلاث سنين وحمله ماسمعه من لفظ مالك من الحديث نحو سبعمائة حديث مسند .

وكتبه هى أسس الكتب المدونة فى فقه المذاهب .

أكبر ماوصل إلينا من كتبه هو كتاب المبسوط الذى يقال أن الشافعى كان حفظه وألف (الأم) محاكاة الأصل فى ستة مجلدات وكل مجلد ٥٠٠ ورقة يحتوى على فروع تبلغ عشرات الألوف من المسائل فى الحلال والحرام .

والمبسوط غير السير ، والكسب .

وهو الذى أسمى الحقوق الدولية (السير) وأورد طريقه معاملة المسلمين لغيرهم فى حالتى السلم والحرب .

وقال إن الإعداد الذى أمر به الشارع لا يعنى التسلح وإنشاء المعامل بقدر ما يعنى التقدم العلمى والتقنى فى الأمور الحربية كلها وأن الواجب المفروض شرعاً على الأمة المسلمة أن تكون منتجة للسلاح وبائعة له لا أن تكون مشترية فقط .

وقال لقد سبقت الشريعة الإسلامية إلى الأعراف الحديثة كالحصانة الدبلوماسية والإعفاءات الجمركية واستقبال السفراء وإحسان وفادتهم ، ووضع أساس نظرية السلم المسلح (ترهبون به عدو الله وعدوكم) .

وقال الدكتور محمد الدسوقى : إن تراث الإمام الشيبانى يجمع الفقه العراقى وأدلته فى تبويب وترتيب يدل على عقلية علمية يجنح إلى تفصيل المسائل وذكر الفروع بطريقة الافتراض والتصور العقلى فى ترابط وتسلسل منطقى مع الاجتهاد فى تقرير الحكم الشرعى فى كل مسألة ، وهذا عمل لم يسبق به وكان بمثابة الضوء الذى أنار الطريق لتدوين فقه المذاهب الإسلامية كلها بوجه عام .

وهو أول من كتب بتفصيل وشمول عن العلاقات الدولية وقد استوعب أحكام العلاقات بين المسلمين وغيرهم فى حالتى السلم والحرب ومسائل الأسرى وأدق المسائل التى لم يتنبه إليها الباحثون فى القانون الدولى إلا بعد ثمانية قرون أو أكثر ، وقد استقى مادة كتابه من الآثار والأخبار من علماء عصره فقهاء ومحدثين وكانت هذه المادة هى الأساس الذى أقام عليه عمله الرائع الذى يشهد له بغزارة العلم وعمق التفكير وشمول النظرة ودقة التفصيل والتبويب والتفريع .

الفصل الثالث

(١)

الإمام الغزالى وإسقاط فلسفة الأصنام

قدم الإمام الغزالى فى مواجهة (الغزوة اليونانية) للفكر الإسلامى مجموعة من الحقائق حفظ بها كيان الأصالة الإسلامية ومفهوم التوحيد الخالص، ونجا الفكر الإسلامى من التبعية والاحتواء الذى كاد أن يستوعبه بعد ترجمة الفلسفة اليونانية. هذه هى اليد الكريمة التى قدمها الغزالى للإسلام والتى ضربت محاولة علم الأصنام اليونانى من النفاذ إلى أعماق الإسلام وهى (الثأر) الذى ما زال يملأ صدور المستشرقين والمبشرين وأعداء الإسلام إلى اليوم، وفى مقدمة الذين مازالوا يحملون عليه عاطف العراقى وزكى نجيب محمود فى محاولات متصلة لا تتوقف. والواقع أنه ليس صحيحاً أن الإمام الغزالى حارب الفلسفة ولكنه حارب أخطاء الفلاسفة فى إنكار حقيقة الألوهية .

ذلك أنهم :

أولا : آمنوا بالله وصفاته ولكنهم جحدوا اليوم الآخر .

ثانياً : لم يقبلوا فى الأمور الإلهية بحشر الأجساد وقالوا إن المثاب والمعاقب هى الأرواح المجردة والمثوبات والعاقبات روحانية وجسمانية .

ثالثا : قالوا بقدم العالم وأزليته وفى هذا تسوية بين الخالق والمخلوق .

رابعاً : أعطوا العقل قداسة غير صحيحة فالعقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ولا كاشفاً للغطاء فى جميع المعضلات .

وقال إن الفلاسفة طوائف (ولم ينكر إلا ما يتعلق بالفلسفة الإلهية)، أما الدهريون فقد جحدوا الله فأنكروا وجوده فليس للعالم عنـــدها من صانع ويزعمون أن العالم وجد نفسه.

أما الطبيعيون: الذين طال بحثهم فى الطبيعة وقد رأوا الله فى آياته فهم يعترفون بوجوده، وزعموا أن النفس تموت ولا تعود، وأنكروا محمداً والآخرة وأنكروا الجنة والنار والقيام والحساب.

* * *

(٢) وخطأ الغزالى الفلاسـفة الذين أرادوا أن يزنوا كل شيء بميزان العقل فكان الدين فى أيديهم آلة خادمة للفلسفة، فكان خطرهم على الدين والأخلاق. خطرهم على الدين حين اعتقدوا فى أنفسهم التميز على أترابهم ونظرائهم فرفضوا وظائف الإسلام والعبادات واحتقروا شعائر الدين واستعانوا بالشرع وحدوده وكان مصدر كفرهم إنكارهم للشرائع والنحل وجحدهم فى الأديان والملل.

وكشف عن خطر الفلاسفة على الأخلاق وقال إن ذلك يرجع إلى أنهم أهملوا أحكام الشريعة فشربوا الخمر وأعرضوا عن الصـلاة وقالوا مع ذلك إنهم أدركوا حقيقة النبوة، وقولهم: إن الإنسان إذا ارتفع عن طبقة العوام سقط عنه التكليف.

(٣) ووقف الإمام الغزالى من علم الكلام موقفاً واضحاً وقال إن جل مقصودهم — أى أهل الكلام — هو استخراج متناقضات الخصوم ومؤاخذاتهم بلوازم مسلماتهم وهذا قليل النفع فى حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلا.

وقال إن كلا منهم لم يبلغ الغاية القصوى فلم يحصل منه ما يمحق بالكلية ظلمات الحيرة فى اختلاف الخلق.

وقال إن علم الكلام كالدواء لا يعطى إلا للمريض، أما القرآن فهو كالماء يعطى للسليم والمريض.

(١) ويرى أن الفلسفة اليونانية أبعدتهم عن مصداقية الإسلام نفسه وعن النفاذ إلى القرآن والسنة كما يفهمها الصحابة ، وهذا هو الخلاف بين المنهج القرآنى ومنهج الفلسفة اليونانية ، فهى تعتمد معرفة الإنسان بالنظر إلى الإنسان نفسه ، أما القرآن فإنه يدعو إلى معرفة الإنسان والكون والربط بين الإنسان والأكوان وخالقها بينما تسجنه الفلسفة اليونانية فى حدود المنطق وتحبسه فى ضيق الأفق الفلسفى ، فإن الإسلام ينقله إلى عالم رحب حافل بالإيمان والعقل معاً .

وقد تصدى الامام الغزالى للفلسفة اليونانية والفلسفة الاشراقية والتصوف الحلولى ، ووحدة الوجود (التى أخذت تمتد إلى الوجدان الاسلامى لتسلبه الفعالية والعدل) فتغرقه فى لجة التأملات الحالمة بدلا من السلوك المنتج فيصنع بذلك مصداقية ارتباط إيمان القول والعمل .

* * *

وقد ثبت تأثر الفيلسوف ديكارت بالامام الغزالى وتأكد اطلاعه على ترجمة كتاب (المنقذ من الضلال) بالذات نظراً لأن الغزالى قد عرض فيه منهجه الفلسفى وكان قد ترجم المنقذ كله أو بعضه فى عصر ديكارت .

ويقول دكتور حمدى زقزوق : إن ديكارت لم يتبوأ مكانته فى تاريخ الفكر الفلسفى بوصفه أباً للفلسفة الحديثة إلا بمنهجه الفلسفى الجديد الذى لم يزد فيه – بصفة عامة – على ما أتى به الغزالى قبله بأكثر من خمسة قرون .

وقد أثبت البحث تطابق أفكار كل من الغزالى وديكارت ، وقد روى المؤرخ التونسى عثمان الكعاك قصة العلاقة بين ما كتبه الامام الغزالى فى كتابه (المنقذ من الضلال) عن أن الشك أول مراتب اليقين وبين ما كتبه ديكارت بنفس المعنى بعده بستة قرون .

فقد وجد فى مكتبة ديكارت ترجمة لكتاب المنقذ ووجد أن ديكارت وقف عند عبارة (الشك أول مراتب اليقين) ووضع تحتها خطاً أحمر ثم كتب على

الهامش مانصه (يضاف ذلك إلى منهجنا) وسرعان ماتنبه المسئولون الفرنسيون للأمر فسحبوا النسخة من المكتبة ومنعوا عرضها .

وقد تردد هذا فى كثير من الابحاث منها كتاب أسين بلاسيوس وغيره .

* * *

ويحاول خصوم الامام الغزالى وضعه فى قائمة المتصوفة وإنكار صفة الفلسفة والواقع أن الغزالى ليس متصوفا ولا فيلسوفا ولكنه رائد من رواد تصحيح الإسلام وإعادة منهجه إلى الاصالة وإلى المنابع وإلى مفهوم أهل السنة والجماعة بعد أن حاولت الفلسفة اليونانية وأثرها فى الفكر الإسلامى من إدخال مفاهيم مضللة إليه والقد كانت كتاباته كلها فى مختلف المجالات منطلقاً للتصحيح وان تجدى هذه المحاولات التى تحاول أن تنال منه فهو قد صحح منطق الفكر الإسلامى وأقام من الفقه والتصوف مزيجاً طيباً دفع الإسلام دفعات كبرى إلى أن يقتحم آفاقا جديدة فى مختلف البلاد سلماً وكفاه فى هذا المجال أن هاجم نظرية الإمام المعصوم وقال أنه لايقبل إلا بمعصوم واحد هو محمد ﷺ وكذلك هاجم الحلول والاتحاد ومفاهيم التصوف الفلسفى وأفسح الطريق واسعاً أمام الامام ابن تيمية الذى أقام المنهج الجامع والذى ضرب منطق أرسطو بالضربة القاضية حيث كشف عن أن القرآن منطقاً مختلفاً ليس المسلمون فى حاجة إلى سواه .

أما تلك المحاولة التى تصور أن كل مايتصل بالفكر اليونانى هو من علامات التحرر فى الفكر الاسلامى فتلك مقولة كاذبة مضللة وان يجدى هؤلاء نقمتهم على الإمام الغزالى فى موقفه المشرف الكريم الذى رد به عن الاسلام طوفان علم الأصنام ودفع الكبيرين إلى الخوض فى لجة هذا البحث وإتمامه .

* * *

كذلك كان الامام الغزالى معارضات لمفاهيم اليونان وخاصة مفاهيم جالينوس .

فقد جاء فى كتب التاريخ أن جالينوس قال أن الشمس لا تقبل الانعدام ودليله زعمه أن الأرصاد لم تثبت أى تبدل فى حرارة الشمس أو حجمها واعترض الغزالى على هذا القول وخالفه وقال أن أرصاد القدماء هى تقريبية وأن الشمس لعظم حجمها قد تخف حرارتها من غير أن يلاحظ الناس ذلك فى مدة قصيرة .

كذلك قال بعض فلاسفة اليونان بأن السماء (عالم الاجرام السماوية) حيوان وأن له نفساً نسبتها إلى بدن السماء كنسبة نفوسنا إلى أبداننا تتحرك بالارادة نحو أغراضها بتحريك النفس فكذا الحيوان وقد أطلع الامام الغزالى على هذه الآراء فأنكرها ولم يأخذ بها فى كتابه (تهافت الفلاسفة) فهدم بإنكاره هذا عمداً من عمد الخرافات التى رفعها العقل اليونانى .

« فاعلم ياأخى متى كنت ذاهباً إلى تعرف الحق بالرجال من غير أن تتكل على بصيرتك فقد ضل سعيك فإن العالم من الرجال إنما هو كالشمس أو كالسراج يعطى الضوء ثم أنظر ببصرك فإن كنت أعمى فما يغنى عنك السراج والشمس فمن عول على التقليد فقد هلك هلاكا مطلقا . »

الغزالى

الإمام الغزالي : حياة عريضة

كانت حياة الامام الغزالي الفكرية حافلة على قصرها فقد أدى فيها أعمالا كبرى ما تزال تمد من ركائز الفكر الإسلامي على مدى العصور .

أولا : صحح آراء الفلاسفة وكشف زيف خططهم .

ثانياً : كشف زيف الباطنية .

(أصدر كتاب فضائح الباطنية وقاوم نفوذهم الفكري والسياسي) .

ثالثاً : خالف علماء الكلام وأعلى شأن القرآن .

رابعاً : مزج التصوف والفقه فجعل منهما منهجاً متكاملا وأنهى بذلك خصومة دامت وقتاً طويلا .

وقد كان الامام الغزالي من أئمة تصحيح المفاهيم الذين سيطروا على مجالات الفكر الاسلامي ولقد كان لمواقفه هذه ونتائجها البعيدة المدى أثرها في الحملة المبيتة عليه مدعى الفلسفة في العصر الحديث الذين يحاولون انتقاصه ووصفه بأنه رجل صوفي متجاهلين جهوده وتبريزه في مجالات مختلفة أخرى .

وكان أكبر أعماله هو حسمه لقضية الفلسفة اليونانية على النحو الذى قضى على آثارها الخطيرة التى أزعجت الغرب والمستشرقين فسلطوا عليه صبيانهم وغلمانهم لينالوا منه .

وليس مما يشرف الامام الغزالي أن يوضع في قائمة الفلاسفة مع ابن سينا

والفارابى (هؤلاء المشاءون المسلمون) الذين كانوا تابعين ومفسرين للفلسفة اليونانية بل هو من طبقة أعظم من ذلك كثيراً .

. . .

يلخص الإمام الغزالى أصناف الطالبين للمعرفة عنده فى أربع فرق هم :

(١) المتكلمون الذين يدعون أنهم أهل الرأى والنظر .

(٢) الباطنية الذين يزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الامام المعصوم .

(٣) الفلاسفة الذين يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .

(٤) الصوفية الذين يدعون أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة .

ويرى الغزالى أن الفلاسفة على كثرة أصنافهم تلزمهم صفة الكفر .

وبعض الفلاسفة آمنوا بالله وصفاته ولكنهم جحدوا اليوم الآخر وإنهم لم يقبلوا فى الأمور الالهية بحشر الأجساد وقالوا إن المثاب والمعاقب هو الأرواح المجردة والعقوبات روحانية لا جسمانية وقالوا إن الله تعالى (عما يقولون علواً كبيراً) يعلم الكليات دون الجزئيات وقالوا بقدم العالم وأزليته وفى هذا تسوية بين الخالق والمخلوق .

وحول هذه القضية يتركز كل خلافه مع الفلاسفة ويتضح الأثر الخطير الذى هدم الفلسفة الالهية من الأساس فلم تقم لها قائمة بعد ذلك وحتى الآن .

كذلك فإنه رد نظرية الامام المعصوم ولم يقبل إلا بمعصوم واحد هو محمد رسول الله ﷺ

وقرر الإمام الغزالى أن الإيمان عن طريق الحدس لايكفى والإيمان عن طريق العقل لا يكفى ودعا إلى إيمان يقينى بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر ، وقد وصل الغزالى إلى أن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ولا كاشف للغطاء عن جميع المعضلات .

وقد رد حجج الفلاسفة وقال بعجز العقل البشرى وأخضعه للشرع خلافاً لآرائهم . وقد استخدم المنطق لنصرة الدين وحمل على الفلسفة لأنها تضل ذوى الاستعداد القاصر .

وعارض الغزالى مفهوم أرسطو الذى يقول بقدم المادة وأن العالم أزلى قديم (وهو ما قال به المعتزلة ونفر من فلاسفة المسلمين) وقال إن العالم حادث مخلوق خلقه الله تبارك وتعالى من العدم باختياره وإرادته على الهيئة التى أرادها ، والله تبارك وتعالى خلق الزمان والحركات جميعاً وليس العالم أزلياً قديماً ولكن الله تبارك وتعالى يستطيع أن يبقى العالم إلى الأبد إذا شاء . ويستطيع أن يفنيه إذا شاء . وقال إن المعرفة الصحيحة هى طريق الشرع وليس طريق العقل وكذب مقولة الفلاسفة فى إنكار حشر الأجساد وإنكار الجنة والنار الجسمانيين .

ولم يتوقف نقد الإمام الغزالى لغلاة الصوفية القائلين بنظرية الحلول والاتحاد بالله .

وهكذا وقف فى وجه الآخذين من الفلسفة اليونانية ومنطق أرسطو والباطنية الذين قالوا إن لنصوص الدين تفسيراً باطنياً لا يدركه إلا الصفوة .

. . .

يقول دى بور : كثيراً ما يقال إن الغزالى قضى على الفلسفة فى المشرق قضاء مبرماً لم يقم لها بعده قائمة ولكن هذا زعم خاطىء لا يدل على علم بالتاريخ فقد بلغ أساتذة الفلسفة وطلابها بعد الغزالى مئات بل ألوفاً ، وظل علماء التوحيد متمسكون بأدلتهم الكلامية يؤيدون بها العقائد كما لم يترك علماء الفقه تدقيقاتهم وتفريعاتهم ولكن لم تستطع الفلسفة أن تحرز المكان الأول .

أما بالنسبة لعلم الكلام فقد حارب المشاحنات التي لا طائل تحتها ، وحارب وحدة الاستطلاع والعجب العقلي وكان همه أن يحمل الإيمان يطغى على الناس فيغمر قلوبهم بفيض مطمئن هادف .

وقد طبع العلم بطابع الإيمان وحرره من النزعة الجدلية ، وقد دعا إلى تلطيف علم الكلام إيماناً بأنه في صيغته الفنية الدقيقة وفي رجوعه إلى العقل لا يمكن له أن يوجد هذا الإيمان وهذا الاطمئنان في العقيدة الاسلامية .

وهكذا كان له تأثيره في الفلسفة الإلهية والعلوم الدينية وعلم الكلام والتصوف. ويبقى بعد ذلك أن نذكر بأن ترتيب كتابات الإمام الغزالي على مراحل تاريخ حياته من شأنه أن يزيل كثيراً من الملاحظات التي تتصل بمواقفه في مرحلة الدراسة الفلسفية التي سبقت مرحلة اليقين التي كان من أعظم ثمارها كشف مقاصد الفلاسفة وهي المرحلة الخطيرة التي ما زالت تضع الإمام الغزالي إلى اليوم في موقف القضاء على الفلسفة اليونانية وانكشاف فسادها على النحو الذي لم تقم له بعدها قائمة .

وصدق الامام الغزالي حين قال :
طلبت العلم لغير الله فأبى العلم إلا أن يكون لله .

إضمامه

عرف الغزالي في عهده فئات أربع من الباحثين عن الحق :

١ — علماء التوحيد الذين اشتغلوا بعلم العقائد والدفاع عنها ضد الآراء المخالفة لها ، وكان اعتمادهم على المنطق والفلسفة إلى جانب القرآن والسنة ، ووجد أن المتكلمين أسرفوا في الجدل وأسرفوا في البحث فانتقد طريقتهم وقال إنها ليست كافية ، ووجد أن التفريعات والجدل الكثير الذي وقع فيه هؤلاء العلماء كان أكثر من اللازم بحيث لا يمكن للإنسان أن يؤمن إيماناً صحيحاً خالياً من الشوائب إذا ما اعتمد على كتب المتكلمين لأن بها تفريعات جدلية كثيرة .

٢ — الفلاسفة (أمثال الكندي والفارابي وابن سينا) ووجد أن علومهم

ليست مهمة وأن بعضهم يذهب إلى آراء فيها إلحاد ، قال إن هؤلاء الفلاسفة يقولون إن العلم قديم - أى أنه مساوى فى الوجود لله تبارك وتعالى - والعالم فى الحقيقة ليس قديماً ، العالم حادث له محدث أحدثه .

ووجد الإمام الغزالى أن الفلاسفة أخطأوا فى ثلاث مسائل :

(١) مسألة قدم العالم . (٢) إنكار حشر الاجساد يوم القيامة .
(٣) علم الله هل يشمل الكليات فقط أم يشمل الجزئيات والكليات ؟

ورد الغزالى على الذين قالوا بقدم العالم ، ونحن فى العقيدة الإسلامية نؤمن بأن العالم مخلوق وحادث فى زمن والله تبارك وتعالى يعلم الكليات والجزئيات . كما خطأ الإمام الغزالى الفلاسفة فى إنكار الحشر بالأرواح فقط وليس بالأجساد حيث أن البعث سيكون بالأرواح والأجساد .

(٣) الفرقة الثالثة الباحثة عن الحق هى الاسماعيلية من الشيعة ، وكانوا يقولون إنه لا تعليم إلا عن طريق الإمام المعصوم وقال : لا تعليم إلا عن طريق محمد صلى الله عليه وسلم .

وألف الغزالى كتابين فى الرد عليهم « المستظهرى والقسطاس المستقيم » .

(٤) الفرقة الرابعة الصوفية ، وقال وجدت حاصل علمهم قطع عقبات النفس عما يعوقها عن الكمال الأخلاقى (أى مجاهدة النفس) وقد اعتبر الغزالى الصوفية وحدهم أرباب الحق وحاصل علمهم التخلق .

وقد جعل الغزالى بداية الطريق إلى الله مجاهدة النفس ونهاية الطريق المعرفة .

(دكتور التفتازانى)

الفصل الرابع

(١)

ابن تيميه

موقفه من التصوف الفلسفي ووحدة الوجود

تحدث الإمام تقي الدين السبكي عن مكانة ابن تيمية في الفكر الإسلامي ودوره في تصحيح المفاهيم، وأشار إلى توسعته في العلوم الشرعية والعقلية وفرط ذكائه واجتهاده وإنه بلغ في ذلك كل المبلغ الذي يتجاوزه الوصف، ويقول فقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل مع ما جمعه الله له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام به لا لغرض سواه وجريه على سنن السلف وأخذه في ذلك بالمأخذ الأوفى وغرابة مثله في هذا الزمان بل في أزمان .

فقد أتقن العربية أصولا وفروعاً وتعليلا وأخلاقاً، وإذا أفتى لم يلتزم بمذهب بل بما يقوم دليله عنده .

وقد عرف أقوال المتكلمين ورد عليهم ونبه على أخطائهم وقدر ونصر السنة بأوضح براهين .

وأوذى في ذات الله، وجبل قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له، ولا يعرف إنه ناظر أحداً فانقطع معه، وقد اجتمعت له شروط الاجتهاد على وجهها. وقاسى في سبيل تمسكه برأيه وصدق إيمانه من الاضطهاد مالا تحمله العصبة حتى عاش مطارداً معذباً، ورغم تقدم السن أودع السجن وحرم لذة الحرية ولذة التطواف لهداية الناس، وحيل بينه وبين القلم والقرطاس خيفة أن يعيد آرائه، فحرم أعظم اللذات وأشرفها .

ويقرر بعض الباحثين أن ابن تيميه هو أول واضع لأول منهج علمى متكامل لأصول الإدارة العلمية صاغ بها نظرية متكاملة لإدارة الدولة الإسلامية فى إطار العقيدة والشريعة الإسلامية ، وذلك فى كتابه : السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية) .

وأن القاعدة الأساسية فى منطق الإدارة الإسلامية أنه على ولى الأمر أن يولى على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل ، وأن الولاية عند ابن تيمية وكالة ، فالولاة هم وكلاء العباد على نفوسهم بمنزلة أحد الشريكين على الآخر ففهم معنى الولاية والوكالة ، وأنه ليس لولاة الأموال أن يقسموها حسب أهوائهم كما يقسم المالك ملكه ، وإنما هم أمناء ونواب ووكلاء وليسوا ملاكاً ، وهو يرى أن الولاية نوع من الإجارة على عمل ، ويقول : لا غنى لولى الأمر عن المشاورة (عبد الفتاح الجلالى) .

* * *

وقد رسم بعض الباحثين منهج ابن تيميه فى عدة عناصر :

١ ـ الإحاطة الشاملة والمعرفة الكاملة لموضوع البحث والدراسة .

٢ ـ التسلح بعلوم عصره والتزود بجميع أنواع المعرفة والاحاطة بمقولات المحدثين والمتأخرين فى العقائد والفلسفة وعلم الكلام ومذاهب المتصوفة ، على أن اعتماد ابن تيميه على منهجه فى الاستدلال العقلى لم يتجاوز قط الكتاب والسنة ، وهو فى هذا يختلف عن المعتزلة الذين أشادوا بالعقل وجعلوا له الأثر البالغ والفيصل فى أمر الإيمان والعقيدة ، ثم عمدوا إلى تأويل كثير من نصوص القرآن والحديث إذا تعارضت فى ظاهرها مع نظر العقل والمنطق . . .

* * *

وقد جاء ابن تيميه فى عصر ملىء بالأحداث السياسية والدينية والفكرية ، الأمر الذى هز كيان الأمة الإسلامية وأبعدها عن المنابع الصافية للإسلام وأشغلها بعقائد وأفكار لم تكن تمت إلى الإسلام بشىء . وكانت الفلسفة والمنطق قد دخلت إلى حياة الأمة الإسلامية وأخذت تأخذ مكان العقائد الإسلامية وانعكست القضية

حيث أصبح المسلمون فى معزل عن الكتاب والسنة فأخذ المسلمون يستنبطون عقائدهم من الفلسفة والمنطق ، كما أخذوا يتغلغلون فى الدقائق والتفريعات الفقهية وأصبح كل صاحب مذهب فقهى يفرح بما لديه من الآراء والأقيسة واستولى الفكر المذهبى على أذهان الناس حتى بات الحديث عن الكتاب والسنة حدثاً غريباً ، وهكذا تغيرت معالم الدين وكاد أن ينطفىء لا قدر الله مشعل القرآن والسنة لولا أن تداركت رحمته بالإمام ابن تيميه .

وكان فى ذلك العصر عدد كبير من المجتهدين ، ولكن مرتبة العزيمة التى كانت تتطلب نفساً عالية لم يتأصل فيها غير شيخ الإسلام وتعنى درجة العزيمة فى الدعوة إلى الله رتبة عالية لتجديد معالم الدين وإعادة الأمة إلى حظيرة الكتاب والسنة .

وكان رأيه أن المتكلمين والفلاسفة قد فقدوا طمأنينة القلب وأن مشاهيرهم قد اعترفوا بذلك وشهدوا على أنفسهم بالاضطراب والحيرة اللذين سببهما الكلام والفلسفة . وقد أوضح شيخ الإسلام أن العلاج الوحيد هو التمسك بما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله فانقشع الظلام وزالت الحيرة ، وقد دعا أساساً إلى قراءة السيرة النبوية فإنها الوصفة الكافية الشافية من جميع أمراض القلوب .

وقد تحقق بذلك :

أولا : إعادة الإسلام إلى نضارته .

ثانياً : دحض الباطل وكشف زيف الفرقة الباطلة التى عملت على تشويه الإسلام

ثالثاً : هاجم الفرقة المنحرفة عن الكتاب والسنة .

(وفى مقدمتهم الأشعرية . وكان الأشاعرة فى عهده قد لجأوا إلى التأويل فى الصفات كغيرهم من الفلاسفة والمعتزلة)

وكانت الفرق الثلاث قد سلموا بقضية عامة هى : أنه إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم العقل فحكموا عقولهم فى مسائل العقيدة وتلاعبوا بالنصوص فإذا كانت ثابتة بحيث لا يمكن ردها جعلوها من المتشابه وإلا بادروا إلى إنكارها .

ولكن الأشاعرة فى نظره خير من المعتزلة ومن عداهم لأنهم يوافقون السلف

فى كثير من المسائل ، كما أنهم ردوا على بدع المعتزلة والجهمية والرافضة وبينوا كثيراً من تناقضاتهم وعظموا الحديث والسنة ومذهب الجماعة .

وقال : إن هؤلاء المبدعة الذين يفضلون طريق الخلف من المتفلسفة ومن حذا حذوهم عن طريق السلف إنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هى مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك بمنزلة الأميين الذى قال فيهم : (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى) .

وبالجملة فقد جعل الإمام ابن تيمية من مهامه الأساسية فى الدعوة إلى الله : معارضة أهل البدع فى بدعهم وأهل الأهواء فى أهوائهم ، وكان عليه دحض أقوالهم وتزييف أمثالهم وأشكالهم وإظهار عوارهم وانتحالهم وتبديد شملهم وقطع أوصالهم . وكذلك حاربته للتصوف الزائف متمثلا فى تنسك الهنود ، وعقيدة الحلول والاتحاد . ومذهب وحدة الوجود وتقسيم الدين إلى ظاهر وباطن وفتنة الرموز والأسرار والعلم الدفين وقضية سقوط التكاليف الشرعية عن الواصلين والكاملين واستثناؤهم من الأحكام الشرعية .

وكانت هذه الأفكار قد دخلت فيما سمى التصوص ، وكان هؤلاء الصوفية قد قالوا بجواز حلول الله (تبارك وتعالى) فى الآدميين ، وأظهر من قال بهذا هو الحلاج .

ثم جاء ابن عربى فحكم بوحدة الوجود وأن الوجود واحد تعددت صوره وأشكاله ، وأن المخلوق يتحد مع الخالق ، من حيث المحبة والشوق فيتصل بالله (جل شأنه) ويعلو إليه فيكون فى درجة فناء ذاته الفانية فى ذات الله الباقية . وقد جاءت هذه الفكرة فى شعر عمر بن الفارض الذى أمعن شيخ الإسلام فى نقده .

وذكر ابن تيمية أن ابن عربى ادعى أن أصحاب النار ينعمون فى النار كما ينعم أصحاب الجنة فى الجنة وأنه يسمى عذاباً من عذوبة طعمه ، وهذا مما يعلم فساده بالاضطرار من دين الإسلام .

وتكلم طائفة من الصوفية فى تحقيق التوحيد فزعموا أن توحيد الربوبية هو

الغاية ، والفناء هو النهاية ، وأنه إذا شهد بذلك سقط عنه استحسان الحسن واستقباح القبيح فمآل الأمر إلى تعطيل الأمر والنهى والوعد والوعيد .
وقد حكم عليهم ابن تيميه بأن هذا هو الكفر الصريح

كما رد على القائلين بوحدة الوجود والحلول والاتحاد فقال : إن صفات الله توجب مباينته لمخلوقاته ، وأنه ليس فى مخلوقاته شىء من ذاته ولا فى ذاته شىء من مخلوقاته . قال تعالى (قل هو الله أحد) .

(٢) قال : وزعم ابن عربى : إن الولاية أساس المرتبة الروحية كلها وأن النبوة والرسالة ينقطعان لأنهما مقيدتان بالزمان والزمان ، أما الولاية فلا تنقطع ولا تحد بزمان ولا مكان .

كما أن العلم الشرعى يوحى به إلى الرسول على لسان الملك .

أما العلم الباطن عند الولى فهو إرث يرثه من منبع الفيض الروحى جميعه .
ورد عليه ابن تيميه فقال : لكون هذه القصيدة خطراً يهدد كيان الاسلام ولكونها مخالفة للعقل والشرع ، وهى بينة الضلال والكفر لأنها تحرر من الدين والشريعة والعقيدة التى جاء بها الرسل جميعاً ، وخروج على الله (تبارك وتعالى) وفساد فى الأرض . وقد ألف فى ذلك كتابه : العرفان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان .
وفيه كشف عن الولاية الشيطانية الصوفية التى تعتمد على الشهوات والدجل والكذب وأكل أموال الناس بالباطل والسماع والغناء والرقص والبدع المنكرة فى الدين والتظاهر بالصلاح والتقوى .

وكشف عما أسماه (الكرامة الشيطانية) التى تجرى أحياناً على أيدى هؤلاء فتظاهرهم بالدخول فى النيران وزعموا أنها لا تضرهم وحملهم الحيات والثعابين أو ضربهم أنفسهم بالسيوف والسهام وغير ذلك من المخاريق التى يزعمون أنها من كراماتهم ، وأشار إلى (دهن الضفادع) الذين يدهنون به أنفسهم حتى لا تؤثر فيهم النار ودعاهم إلى غسل أجسامهم بالخل وأن يدخل معهم النار الذين يزعمون دخولهم
(هذه الفقرة عن مصدر غاب عنا اسمه) .

ابن تيمية

دحض المنطق والفلسفة اليونانية

نقد الإمام الغزالى الفلسفة الالهية اليونانية على نحو كشف عن زيفها فى قضاياها الثلاث الكبرى :

١ - قدم العالم وأزليته .　　　٢ - جحد اليوم الآخر .

٣ - إن الله جل شأنه لايعلم الجزئيات .

ثم جاء الإمام ابن تيميه فوسع الدائرة ووصل إلى الغاية فكان بعمله هذا يمثل خطوة حاسمة ، فقد اقتحم على الفلاسفة معاقلهم وكان مطمحه الأسمى تعظيم النبوة ، وكان ابن تيميه قد طلب الفلسفة ليهدمها فكان يقرؤها ويفهمها وهو فى حيز محيطها - كما يقول الشيخ أبو زهرة - ولقد كان يرى أن علم الشرع من النبوة وحدها سواء فى ذلك أصول العقيدة وفروع الفقه والأحكام العلمية ، لأن النبوة جاءت بكل ذلك فما جاءت به النبوة مصدر العلم به وطريق معرفته ولا طريق سواه ، وهو ينكر على الذين يصنعون مقدمات فلسفية تسبق الدراسة الشرعية ويجعلون ماجاء فى القرآن يسير على منهاجها .

وإذا كان ابن تيميه قد هاجم الفلسفة بعامة فإنه حمل على منطق أرسطو حملة شديدة فى كتابه (نقض المنطق) وسخر من الذين يقولون أنه لابراهين إلا مايكون المنطق دليلها وطريقها لما فى ذلك من غمز بالصحابة والتابعين الذين يعتبر المناطقة إن علومهم ظنية لأنهم كانوا جاهلين بالمنطق .

وقد أثبت ابن تيميه الملا أن المنطق من علوم الصابئة وهو دخيل على العلوم

الإسلامية ، وما أمر الحد والبرهان التي يدعونها إلا فقاقيع قد أغنى الله عنها كل صحيح الذهن فقد تمت الشريعة وعومها حيث لا منطق ولا فلسفة ولا فلاسفة (وعلى حد تعبير ابن الصلاح) .

وهكذا أراد ابن تيمية أن يدحض هذه الفرية التي كانت واسعة الانتشار وهي أن معرفة الحق من الباطل والشك من اليقين لاتتحقق إلا بمنطق أرسطو وقد تحقق له ذلك تماماً - بكتابة (نقض المنطق) - بعارضته القوية في دحض هذه المقولة وقد أخذ على من تأثر بهذه المقولات أمثال ابن رشد وابن الجوزي والغزالي (مع ما وصل إليه من كشف زيف منهج الفلاسفة) .

. . .

وقد قسم ابن تيميه طرائق العلماء في فهم العقائد إلى أربعة أقسام :

١ - الفلاسفة : وهؤلاء يقولون أن القرآن جاء بالطريقة الخطابية والمقدمات الإقناعية التي تقنع الجمهور ويدعون أنهم هم أهل البرهان واليقين .

٢ - المتكلمون : وهم الذين يقدمون قضايا عقلية على النظر في الآيات القرآنية وهم يجعلون المحكوم حاكما (وهم المعتزلة) .

٣ - طائفة من العلماء لاينظرون إلى القرآن من جهة مااشتمل عليه من آدلة هادية مرشدة مثبتة للحق بل يعتبرون ما في القرآن من آيات دالة على التوحيد والصفات من ناحية أنها أخبار لا أدلة مثبتة .

وهؤلاء قد جعلوا الإيمان بالرسول قد استقر فلا يحتاج إلى أن يبين الأدلة الدالة عليه وعيب هؤلاء أنهم أعرضوا عن الأصول بينها الله تبارك وتعالى بكتابه ولم يلتفتوا إلى وجه الأدلة فيها وهي التي تثبت بذاتها الحزم واليقين وهم المتكلمون .

والطائفتان يلحقهما الملام لكونهما أعرضا عن الأصول التى بينها الله تبارك وتعالى بكتابه فإنها أصول الدين وأدلته، فالعيب الذى يعيبه ابن تيميه على هذه الطائفة والطائفة التى سبقتها لأنهم لم يلتفتوا إلى أدلة القرآن وإن كانوا قد سلكوا الطرق إلى أدلة أخرى عقلية وحاولوا التعرف عن غير طريقه .

ومن هذا النقد الذى وجهه ابن تيميه لهذه الفرق تبين أنه يرى أن القرآن بما فيه من أدلة وحجج فيه غناء لطالب العقيدة الإسلامية لا لأنه كتاب ثبت أنه من عند الله فحسب بل للأدلة التى يسوقها لإثبات الوحدانية والصفات واليوم الآخر والمعاد فهو ليس فيه الأخبار فقط بل فيه الدليل على صحة الخبر فهو فى نفسه يحمل دليل صدقه .

وقد هال ابن تيميه مقولة : أنه لابراهين إلا مايكون المنطق طريقه وكأن العالم الإسلامى مدين للمنطق اليونانى فى فهمه وهاله أكثر أن مؤداه أن الصحابة لم يكن لديهم الوسائل القطعية لفهم هذا الدين الحكيم ولا لفهم عقائده لأنهم لم يكونوا على علم بمنطق أرسطوا الذى لم يدخل الفكر الإسلامى إلا فى القرن الثانى الهجرى ، كأن الصحابة والتابعين ما كانوا عالمين بأصول هذا الدين إلا عن طريق ظنى ولم يتوفر لديهم الطريق القطعى .

والدعوى المدعاة أن الرسول والصحابة والتابعون والفقهاء لم يكونوا على علم بمنطق اليونان ولا بتأويل علماء الكلام لما جاء فى القرآن فثار ابن تيميه على ذلك المنطق الذى اعتبره من علوم الصائبة وأثار حوله عجاجة وأخذ يبين أنه دخيل على الفكر الإسلامى وأن إدراك الحقائق الإسلامية لم يكن فى حاجة إليه وأنه ميزان ليس بصادق وإنما هو أوهام أو قيود من أوهام ، وليس بالأحكام الشرعية افتقار إلى المنطق أصلا ، وما يزعمه المناطقة من أمر الحد والبرهان فهى فقاقيع قد أغنى الله عنها كل صحيح الذهن ولاسيما من خدم نظريات العلوم الشرعية وقد تمت الشريعة وعلومها وخاضها فى بحر الحقائق والدقائق علماؤها حيث لا منطق ولا فلسفة ولا فلاسفة . (محمود مهدى الاستامبولى) .

والأمر الثانى الذى أولاه ابن تيميه اهتماماً بالغاً هو مفاهيم الحلول والاتحاد وقد نقض ابن تيميه هذه المفاهيم التى تربط الخالق بالمخلوق ، لأنه أولا رآها منافية لمعنى توحيد الله سبحانه وتعالى الذى شرحه وبينه ، وثانياً لأنه رأى بعض قائليها يدعون لأنفسهم حالا يعلون بها على التكاليف ، وابن تيميه يرى أن من نزع ذلك المنزع معطل لاحكام الشرع خالع الربقة ، وثالثاً لأنه رأى الناس يزعمون فى أصحابها قدرة خارقة للعادة فيتقربون إلى الله بهم وهم من يسمون عندهم أولياء .

وكان قد أظهر ذلك الحلاج وجاء ابن عربى فحكم بوحدة الوجود ثم جاءت فكرة الاتحاد بين الخالق والمخلوق ، وقد جاء هذا المذهب فى شعر عمر بن الفارض وحكم ابن عطاء الله السكندرى .

وقد شهر ابن تيمية على هذه المفاهيم حرباً شعواء أقض بها مضاجعهم ، وناقش أحوالهم مناقشة الفاحص لدقائقها العارف لأسرارها ، ولكنه سماها كلها مذهب الاتحاد أو الاتحاديين ، وكأنه نظر إلى المعنى المشترك فى هذه الأمور الثلاثة وهى وحدة الوجود والحلول والفناء فى الله بالمحبة ، وذلك لأن هذه المناهج الثلاث يلتقى فى معنى الاتحاد : اتحاد المخلوق بالخالق ، ويرى ابن تيمية إنه يكفى لرد هذه المذاهب تصورها ، فإن تصورها كاف فى بيان فسادها ولا يحتاج مع حسن التصور إلى دليل آخر .

وقال ابن تيميه : إن مفتاح كلام ابن عربى وفلسفته هى قوله :

إن وجود الخلق هو وجود الخالق وعينه ، فمن فهم هذا فهم كلام ابن عربى نظمه ونثره ، ويقرر أن هذا المذهب لا يتفق مع الحقائق المقررة فى الإسلام وأنه والإسلام طرفى نقيض لا يجتمعان ولا يتلاقيان ، ويقرر أن هذا المذهب الفلسفى هو من بين مذاهب الفلاسفة الذين حكموا بقدم العالم وهو إن لم يكن مثلهم قد قاربهم أو سار على منهاجهم .

وقد زين ابن عربى مذهبه للمسلمين فحسبوه لب الإسلام ومعناه . ويرى ابن تيمية أن هذا المذهب يسقط التكاليف ويبيح المآثم ، وقد أورد كثير من

العلماء السابقين عليه فى إنكاره أمثال القسطلانى وابن دقيق العيد والعز بن عبد السلام .
وقول أبى الحسن الشاذلى إن أصحاب مذهب وحدة الوجود كفار يعتقدون أن الصنعة هى الصانع .

كما هاجم حلولية الجهمية وما يتصل بها من حلولية الحلاج .

ويقرر ابن تيميه فى هذا المذهب إنه كقول النصارى فى المسيح عليه السلام .
وهكذا واجه ابن تيميه المذاهب الثلاثة الخارجة عن مفهوم الإسلام الصحيح: الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ، وقال إن كل من يقول بها إما جاهل بحقيقة أمرهم وإما ظالم يريد علواً فى الارض وفساداً ، ومعنى ذلك أن هذه المذاهب تريد هدم أصول الإيمان الثلاثة : الإيمان بالله وبرسله وباليوم الآخر .

* * *

ورد ابن تيمية على مقولة الفلاسفة بقولهم إن معجزات الأنبياء قوى نفسانية وقال إن كلام الفلاسفة فى النبوة مستمد من كلام الصابئة والباطنية كما هاجم تأويل الباطنية ، وقال ابن عربى وابن سبعين والتلمسانى والسهروردى المقتول ، كل منهم يرى أن باب النبوة مفتوح ولا يمكن إغلاقه .

كما هاجم فكرة ابن عربى عن خاتم الأولياء ، والذى يرى ان الولى أفضل من خاتم الأنبياء محمد ﷺ لانه يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به إلى النبى أى أنه يأخذ من الله مباشرة، أما محمد فإنه يأخذ من جبريل الذى يأخذ من (الله) تبارك وتعالى .
ويختلف مفهوم ابن تيمية فى النبوة عن مفاهيم الفلاسفة ومنهم ابن سينا : على النحو الذى أوضحه فى كتابه (موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول) :

١ - إن النبى صادق فيما يخبر به عن الله (تبارك وتعالى) لا يكذب .
٢ - الأنبياء لا يأمرون إلا بالعدل وطلب الآخرة وعبادة الله وحده وفى أعمالهم البر والتقوى .
٣ - آيات الأنبياء لا يمكن لأحد أن يعارضها بمثلها .
٤ - النبوات لا تستطيع أن ينالها أحد باكتساب .

٥ - إن النبي قد تقدمه أنبياء ، فهو لا يأمر إلا بجنس ما أمرت به الرسل من قبله فيوافق ما يأمرون به .

• • •

وبالجملة فقد قرر ابن تيميه أساساً للفهم وهو (إن أصول الفلسفة مخالفة للنبوة) ويرى ابن تيميه أن علم الشرع من النبوة وحدها ، سواء ذلك في أصول العقيدة وفروع الفقه والأحكام العملية ، لأن النبوة جاءت بكل ذلك ، فما جاءت به النبوة مصدر العلم به وطريق معرفته ولا طريق سواه .

ويرى إن الذين يضعون مقدمات عقلية تسبق الدراسة الشرعية ويجعلون ما جاء به القرآن يسير على منهاجها إنما يجعلون علم العقل فوق النبوة ، لأن ذلك يجعل الحاكم محكوماً فيجعل النبوة التي هي حاكمة هادية للعقول محكومة بها خاضعة . وأن القرآن بما فيه من أدلة وحجج فيه غناء لطالب العقيدة الإسلامية ، والقرآن ليس للأخلاق فقط ، ولكنه يسوق الأدلة لإثبات الوحدانية واليوم الآخر والمعاد .

ويقرر الإمام ابن تيميه أن العقل وحده ليس كافياً للوصول إلى حقائق الدين بل لا بد من الاستعانة بالنقل ، ويرى أن المعتمد عليه في ذلك هو الكتاب والسنة ومعنى ذلك أن يكون العقل في ذلك تابعاً لا متبوعاً ، ومن إعتمد على العقل وحده كحاطب ليل .

وأثبت بالأدلة الأكيدة أن الأحكام الشرعية ليست في اقتفاء طريق المنطق أصلا ، وأن مايزعمه المنطق بالمنطق من أمر الحد والبرهان هي فقاقيع قد أغنى الله (تبارك وتعالى عنها) كل صحيح الذهن وقد تمت الشريعة وعلومها .

ورفض ابن تيميه مقولات الصابئة والباطنية وأصحاب نظرية العقل الفعال والفيض ومتصوفة الفلاسفة .

• • •

وقد أرسى ابن تيمية قواعد إعادة بناء المجتمع الإسلامى على أسس الإسلام بدون إضافة غريبة عنه، فهو يعود به إلى معينه الصافى فى كتاب الله وسنة رسوله بمفهوم أنه ليس فى حاجة إلى عناصر دخيلة كالمنطق أو الفلسفة الإلهية أو التصوف الفلسفى .

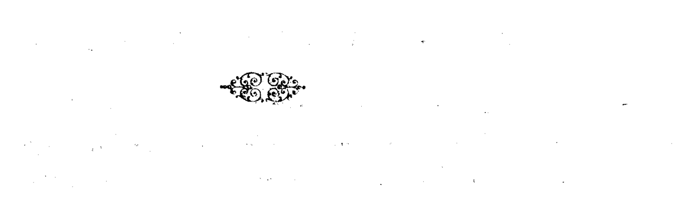
وقد وضع لذلك عدة قواعد أساسية :

أولا : تقديم الشرع على العقل .

ثانياً : رفض التأويل الكلامى .

ثالثاً : الاستدلال بالآيات القرآنية .

وهو بذلك يقضى على مطامح الاستشراق والتغريب الذى يحاول تزييف أصالة الإسلام اليوم بإدخال مفاهيم الفلسفة وعلم الكلام والاعتزال ووحدة الوجود والحلول والاتحاد وغيرها من الاتجاهات المنحرفة وتطهير الإسلام منها كلها تماماً .



الفصل الرابع

ابن خلدون

منشىء علمى التاريخ والاجتماع

اعتمد ابن خلدون فى منهجه التاريخى على قوانين القرآن الكريم فى سنن الحضارات والأمم وقيامها وسقوطها ، وكان أبرز من أعطى هذا الموضوع حقه من الأدلة والبراهين وإن كان كثير من الباحثين قد سبقوه فى إعداد الخطط وترتيب الأدلة ولكنه كان هو الذى استطاع أن يبرز هذه الظاهرة .

فابن خلدون ثمرة حقيقية وأصيلة الفكر الإسلامى وللقوانين والسنن التاريخية والطبيعية التى قدمها القرآن الكريم للبشرية ، وإن كان هو - أى ابن خلدون - لم يكتشفها إبتداء ولكنه صاغها صياغة علمية وجمعها بعد أن تفرقت فى كتابات كثير ممن سبقوه من علماء المسلمين شأنه فى ذلك شأن الإمام الشافعى فى بناء علم أصول الفقه .

ولكنه من القطع أنه لم يصل إلى ذلك من مصادر خارج القرآن والسنة .

وعندما اكتشفت أوربا فكر ابن خلدون وقفت منه موقفاً متحيزاً كعادتها من كل وصل إليها من الفكر الإسلامى وسلطت عليه من أبناء لغته ودينه من هاجمه وانتقصه ورماه بالجهل والقصور فى أطروحة عالمية فى إحدى جامعات أوربا .

وأتهم من ناحية أخرى بأنه تلميذ اليونان والرومان ، ولم يكن الرجل يعرف

لغتهم ولم يطلع على آثارهم ولكنها كلمة ظلم تساق دائماً من الاستشراق والتبشير ورجاله لانتقاص كل عبقرية إسلامية.

أما الغرب فقد حمل كل فريق منه وجهة ابن خلدون على مذهبه ودعواه فهو بالقطع سبق ميكافيلي وفيكو وبودان وتارد وهيجل وماركس، ففلاسفة المناخ وتأثيره على الإنسان وعاداته وتقاليده اعتبروا ابن خلدون منهم وكذلك فلاسفة الماركسية وفلاسفة العلوم الاجتماعية ونسوا جميعاً شيئاً يتميز به الفكر الإسلامي وابن خلدون وهو التكامل الجامع للنظرة الإسلامية التي تختلف عن (حتميه) دعاة المناخ أو فكرة التقليد (مونتسكو)، لقد تحدث ابن خلدون عن نظرية فائض القيمة من زوايا جزئية، ولكن أصحاب نظرية فائض القيمة اعتبروه ماركسياً، ولقد حمله الماركسيون رهقاً، حين قالت إحدى باحثاتهم (ستفيلانا باسيفا) أن ابن خلدون لايفهم إلا في إطار الماركسية اللينينية والصراع الطبقي والفكر المادي.

كذلك فقد أسقط طه حسين فكر المدرسة الفرنسية في علم الاجتماع على أفكار ابن خلدون في المقدمة، وقدم فيها خليطا حمل رسالته عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية أقرب إلى دوركايم منها إلى ابن خلدون صاحب المقدمة (كما يشير إلى ذلك الدكتور محمد كمال إمام في بحث له حيث يقول:

(إن ذاتية ابن خلدون وتميزه الفكري الخاص. قد اختفى تماما خلف هذه الدراسات التي تريد أن تفصله عن سياقه الحضاري الإسلامي، لتجعل منه ظاهرة فريدة في التاريخ لم تنشأ في بيئته ولم تؤمن بمعتقده).

وهكذا نجد أن لاكوست قدمه سياسيا، وإن كامل عياد قدمه اقتصادياً وإن طه حسين قدمه اجتماعياً وإن محسن مهدي وعلي الوردي قدماه فيلسوفا.

ولكنه هو في الحقيقة كل ذلك مكتملا، لأن الإسلام هو جماع ذلك كله في منظومة واحدة.

لقد أبدع ابن خلدون علم الاجتماع وأسماه (علم العمران البشرى) أو الاجتماع الإنسانى قائماً على دراسة الظواهر الاجتماعية والكشف عن القوانين التى يخضع لها ، وهذه الطريقة لم يصل إليها تفكير أحد من قبل ابن خلدون ، وقد هدته دراسته للقرآن الكريم إلى أن الظواهر الاجتماعية لا تشذ عن بقية ظواهر الكون وأنها محكومة فى مختلف مناحيها بقوانين طبيعيه تشبه القوانين التى تحكم ما عداها من ظواهر الكون .

وأنه جعل التطور فى حياة الدولة ينتقل فى أجيال ثلاثة يؤدى إلى خمسة مراحل أساسية .

(١) مرحلة الظفر والنجاح .

(٢) مرحلة الاستبداد وتوطيد سلطة الحاكم .

(٣) مرحلة ما يسمى بالقناعة الذاتية عندما يسود الأمن .

(٤) مرحلة الانحطاط عندما يغلب الترف .

وهذا ما يسميه ابن خلدون (دورة الدول) .

قال روزنتال أن ابن خلدون هو أب علم السياسة الحديثة .

وقد أكد ابن خلدون أن المسلمين لم يأخذوا بالأقيسة اليونانية المنقولة من أرسطو لملابستها للعلوم الفلسفية المستمدة من العقائد غير الإسلامية وخاصة المنطق اليونانى المبنى على الفروض لا على المدركات الحسية الاستقرائية تشبه وجود واجب الوجود ووحدانيته وقدرته سبحانه وتعالى ومسئولية الإنسان كسببيه كما هى فى القرآن الذى يعمل به أهل الإسلام .

ومعنى هذا كله أن ابن خلدون استمد فكره من القرآن الكريم أولا وأخيراً .

* * *

وقد توصل ابن خلدون إلى الأسس والمبادىء الحقيقية التى يجب أن يقوم عليها علم التاريخ وكان أول هذه المبادىء هو أن الاجتماع الإنسانى ضرورى للعمران ، ومعنى هذا العمران فى فكر ابن خلدون هو العمران الذى أراده الله تبارك وتعالى من إعتبار العالم ببنى الإنسان واستخلافه إياهم فى الأرض وعلى هذا فالعمران عند ابن خلدون هو اصطلاح قرآنى صريح وقيمه إسلامية واضحة (على حد تعبير الدكتور مصطفى الشكعة فى دراسته عن ابن خلدون حيث يدور كتابه حول البراهين التى تثبت أن فكر ابن خلدون جميعه فكر إسلامى وأن مجتمع العمران الذى أنشأ نظريته من خلاله هو مجتمع إسلامى من كل جوانبه سواء فى ذلك نظام الحكم والإدارة والقضاء والمعاملات والعلم والتعليم والاقتصاد والسلوك العام .

* * *

وبالرغم من أن أعلام التاريخ والاقتصاد المعادين : توينبى وجارودى ، وسرركن وشميث شهدوا لإبن خلدون فإن الدكتور طه حسين سار وراء مفاهيم دوركايم اليهودى المتعصب ضد الفكر الإسلامى وأقام أطروحته على إنتقاص هذه العبقرية العربية الإسلامية الفذة .

ومن العجب أن ينصف ابن خلدون خصوم أمته ويهاجمه ابن لغته وعقيدته .

قال أرنولد توينبى : أنه خير من فهم فلسفة التاريخ وصاغها بحيث يعد ما قام به أعظم عمل من نوعه أنتجته قريحة أى إنسان فى أى زمان أو مكان ومن السهل جداً إدراجه ضمن العباقرة العشرة العظام الذين تفخر بهم الثقافة الإسلامية فهو صنو الغزالى فى الكلام وجلال الدين الرومى فى الصوفية ونظير البيرونى فى العلوم والشئون الهندسية وابن سينا فى الطب ويعادل ابن رشد فى الفلسفة والفردوسى فى الشعر الحماسى .

* * *

رسم ابن خلدون التطور في حياة الدولة خلال أجيال ثلاثة تؤدي إلى خمس مراحل رئيسية :

أولا : مرحلة الظفر أي النجاح والنصر عندما يتم سيطرة الملك السلطة على السياسية ويحافظ على وحدة جماعته بواسطة العصبية .

ثانياً : مرحلة الاستبداد عندما يصل الملك إلى توطيد سلطته والإنفراد بالمجد لنفسه دون جماعته .

ثالثاً : مرحلة ما يسمى القناعة الذاتية عندما يسود الإسلام ولا يحدث تجديد من قبل الملك الذي يكتفي باحترام عادات أسلافه .

رابعاً : مرحلة الانحطاط عندما يعيش الملك في ترف زائد فيولد ذلك عدم الرضا في الدولة ويضطر لفرض الضرائب لدفع مرتبات جيشه مما يؤدي لنهاية دولته ، أما في الداخل إما بواسطة قوة أكبر من الخارج ومن جهة أخرى نجد أن ابن خلدون يحدد أنواع السلطة السياسية ويقسمها إلى نوعين رئيسيين :

١ ـ السياسة الدينية التي يربطها مع نظام الملك إجماع الصحابة وتغيير الخلافة هي النوع المالي لممارسة السلطة السياسية ويتولى فيها الخليفة الشئون الدينية والدنيوية ويحكم بمقتضى الشريعة الإسلامية .

٢ ـ السياسة العقلانية وتتمثل في نوعين من أنواع الملك :

(أ) الملك السياسي الذي يتم الحكم فيه بمقتضى المصلحة العامة ومصلحة الملك وهنا ربط ابن خلدون بين العصبية والدعوة في هذا النوع من الحكم بمعنى أنه لا يهمل الجانب الديني

(ب) الملك الطبيعي الذي يتم فيه الحكم بمقتضى المصلحة الخاصة للملك الذي يعتمد على القوة للحفاظ على سلطته وبالتالي فإنه يهمل جانب الدين .

هذه هى أهم العناصر فى نظرية ابن خلدون السياسية حول دورة الدولة وأنواع السلطة السياسية .

قال روزنتال : أنه أب علم السياسة الحديثة (حسن سعيد سليمان) .

* * *

تأثر بابن خلدون بعد هجرته إلى مصر : تقى الدين المقريزى وشمس الدين السخاوى وقد تأثرا بنظريات ابن خلدون وأسلوبه فى مقدمته .

وكتب المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة .

والسخاوى : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ،

كما تأثر ابن الأزرق الأصبحى المعروف بابن الأزرق الغرناطى من الأندلس

وله كتاب (الابريز المسبوك فى كيفية أدب الملوك) أما الكتاب الذى تأثر فيه بمقدمة ابن خلدون فهو (بدائع السلك فى طبائع الملك) .

وموضوع السياسة الملكية سبق أن طرقه المفكرون المسلمون بكثرة قبل ابن خلدون وظهرت فى مؤلفات كثيرة مثل الأحكام السلطانية للماوردى ، وسراج الملوك للطرطوشى ، ولكن مقدمة ابن خلدون تعالج الموضوع بطريقة أحدث (محمد عبد الله عنان) .

الباب الثاني

الرواد

١ - جمال الدين الأفغاني

٢ - السلطان عبد الحميد

٣ - محمد إقبال

٤ - شاه ولي الله الدهلوي

٥ - رحمه الله الهندي

الفصل الأول

(١)

جمال الدين الأفغانى

مقـــاومة النفوذ الأجنبى

قال الشيخ عبد الرشيد إبراهيم أحد علماء المسلمين فى روسيا :

كان أول اجتماعى بجمال الدين فى بطرسبرج عاصمة روسيا عام ١٨٨٩ وكانت أخباره قد سبقته إليها وكنت إذ ذاك فى عنوان الشباب وكان قلبى — وما زال — ممتلئاً قوة ، فلما قابلت جمال الدين احتفلت به أبلغ احتفاء ورأيت أمامى رجلا فذاً جبار الذهن خارق الذكاء ، تترقرق الملاحة من وجهه من شعره المسترسل وتلمع عيناه ببريق حاد نفاذ ، ولم يكد يستقر بنا المجلس حتى شعرت بأنى أعرفه منذ الأزل فله رحمه الله طريقة خاصة فى جذب القلوب إليه ، طريقة جمالية أفغانية ، لم أر شيئاً منها فيمن لقيتهم من عظماء الشرق ، وكنت قد دعوت نفراً من علماء المسلمين فى الروسيا ، وجلسنا نتحدث والحديث ذو شجون ، وانتقلنا من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق حتى قطعت الحديث بسؤال فقهى ، سخر منى جمال الدين وقال ستغرق فى المتناقضات ، وسأل علماء الروس عما إذا كانت روسيا داراً للإســـلام أم داراً للحرب فقال : ليس فى الشرق داراً للإسلام إلا عاصمة الخلافة الإسلامية .

فلما رأيت جاذبية جمال الدين وبعد نظره وحلاوة أحاديثه لازمته ملازمة الظل وكنت لا أفارقه حتى يأمرنى بمفارقته وقد غلبه النعاس ، وتوثقت لدينا عرى الصداقة وسحرنى رحمه الله ببيانه وظرفه وحنانه ، ورافقته فى جولاته فى بطرسبرج وعرفته بنفر من الأكابر الذين أعجبوا بهذا الإمام الجليل .

وبعد بضعة أيام أبدى الأستاذ رغبة فى زيارة إحدى دور التمثيل ، فلما اقترحت عليه دار الأوبرا سألنى أن أحجز له شرفة قريبة من شرفة القيصر ، فحجزت الشرفة وذهبنا إلى الأوبرا بالجبة والقفطان والعمامة ، ولفت دخولنا الأنظار وجاء القيصر اسكندر الثالث ومعه القيصرة والأمراء والوزراء وكبار الساسة .

وبدأ الرقص والغناء والتمثيل وأنزلت الستارة ثم رفعت عن منظر جميل ساحر وإذا بجمال الدين ينظر إلى ساعته وكأنه نسى شيئاً ، ثم يقوم ويفترش جبته ويستقبل القبلة ويقول بصوت جهورى :

— نويت أن أصلى صلاة العشاء الله أكبر .

وإذا بالأنظار تتجه إلينا فى عجب ودهشة ، وإذا بى أرانى هدفاً لنظارات النساء وحيرة الرجال ، واستمر الرقص والغناء والكل فى شغل عن الرقص والغناء وكثر الهرج والمرج وجمال الدين يصلى وكأنه أمام الكعبة .

ثم رأيت القيصر والقيصرة والأمراء وقد التفتوا إلينا والكل يتهامسون فيما بينهم ، ثم طرق الباب ودخل الجنرال جريفين وبادرنى بالسؤال عن معنى هذا ؟ فتصبب العرق من جبينى وشعرت بالأرض وقد مادت والأضـــواء وقد مارت وغدت تنساب حولى ، ولما كرر الجنرال سؤاله قلت :

سله بعد إتمام الصلاة .

فانتظرنا كلانا إتمام الصلاة والكل على أحر من الجمر ولم يتحرك جمال الدين عن إيفاء صلاته قيد شعره ، ولما أتمها خرج إلى الردهة وأجاب الجنرال قائلا (وأنا أترجم كلامه إلى الروسية) :

قال نبينا عليه الصلاة والسـلام : لى مع الله وقت لا يسعنى ملك منزل ولا نبى مرسل ، فانه ألهمنى أن أصلى فى تلك الساعة وفى هـذا المكان ولا يسعنى فى ذلك الوقت امبراطور شائخ ولا خاقان متوج ، فاذهب إلى مولاك وأعد على مسامعه ما قلته .

فعاد الجنرال وأخبر القيصر ماسمعه من جمال الدين ، فعجب القيصر أشد العجب

وأبدى احترامه لمثل تلك القوة الدينية التي لا ترهب شيئاً ، على أني عنفت جمال الدين بعد خروجه من دار الأوبرا وقلت بصريح العبارة : لقد وضعتني في موقف حرج وأخجلتني أمام معارفي وأمام القيصر .

فابتسم رحمه الله ابتسامته الساحرة وقال في هدوء :

ماذا تريد مني ؟ ألم أبلغ كلمة الإسلام إلى قلب الروسيا إلى القيصر والقيصرة والأمراء والوزراء ، لقد أديت الرسالة ولا يعنيني ما ينجم عنها فدع رسمياتك واعلم أن الإسلام لا ينتشر إلا بمثل هذه الجرأة .

ثم قال الشيخ عبد الرشيد : ثم اجتمعنا في الاستانة أيام السلطان عبد الحميد ، وكنت أتردد على منزله كما كان يفعل خاصة الأتراك . وكان جمال الدين يرحب بالقادمين ، ولا يستقر المجلس حتى ترى المحبة والأخوة وقد نسجت فوقه ، والعلم والإيمان وقد تلألأت أنوارهما على الحاضرين ، وكان لجمال الدين راتباً يتقاضاه من عبد الحميد شهرياً ، فكان الرسول يأتيه بما قيمته خمسون جنيهاً من المحتويات الفضية ، فيأمره جمال الدين بإفراغ الكيس في وسط المجلس ، وهنا يهجم الجالسون على الفضة للوصول إلى أكبر عدد من الريالات » .

. . .

قامت حياة جمال الدين الافغاني على حقيقة أساسية ، هي مقاومة النفوذ الأجنبي وأنه كان خصماً عنيداً لبريطانيا وكان يصرح في كل مجالاته أنه يهدف إلى تنكيس علم بريطانيا في الشرق ، وقد دعا جمال الدين إلى عدة أسس هي ما تزال حتى اليوم قواعد أساسية لمقاومة النفوذ الأجنبي .

أولا : دعا إلى مجالدة الاستعمار وتنكيس علم بريطانيا في الشرق

ثانياً دعا إلى اتخاذ القرآن منطلقاً إلى الوحدة الجامعة وإلى النهضة .

ثالثاً : دعا إلى الوحدة في مقاومة النفوذ الأجنبي والتجمع في وجهه .

رابعاً : مقاومة المستبدين المتسلطين (خديو مصر وشاه إيران)

الرد على كتاب (الإيرانى الغامض)

بقــلم لويس عوض

بحث مسموم :

كتب الدكتور لويس عوض بضعة فصول فى مجلة التضامن التى تصدر فى باريس (فى النصف الثانى من عام ١٩٨٣) هاجم فيها السيد جمال الدين الأفغانى هجوماً قاسياً واستعمل فى هذا الهجوم كل الاتهامات التى يمكن أن توجه إلى أعداء الأمم والشعوب ، مستعيناً فى ذلك بما أسماه وثائق المخابرات البريطانية ومتجاهلا كل الحقائق التاريخية عن شخصية الرجل الكريم ، ومع كل ما كتبه عنه مفكرو الغرب أو مفكروا العرب والإسلام محاولا استغلال بعض التناقضات والالتباسات التى كانت تظلل الأحداث والمواقف فى هذا الوقت من الزمان ، وأخطرها : التناقض فى المولدين أفغانستان وإيران . والدخول فى الماسونية ، وشبهة الاتصال بالدولة البريطانية أو الدولة الروسية .

ولا ريب أن كتابة هذا البحث المسموم ، وصدوره فى هذا الوقت بالذات ، وامتناع الصحف والمجلات الوطنية والقومية عن نشره ، مما دفع كاتبه إلى نشره فى إحدى الصحف المهاجرة التى تصدر فى باريس ، كل هذا يوحى بهدف واضح مبيت هو ضرب (الصحوة الإسلامية) باقتلاع واحد من أكبر الجذور الأساسية فيها فضلا عن تضليل الجماهير وتشويه تاريخ اليقظة الإسلامية وقطع روابط الماضى القديم بالإسلام والحاضر القريب بالأمة الإسلامية وأعلام النضال ، ذلك أن من أبرز محاولات اقتلاع جذور الصحوة الإسلامية هو الإساءة إلى هؤلاء الرواد ، وأن تشويه سمعة جمال الدين الأفغانى من شأنها أن تثير ظلال الشك والريبة حول عدد من تلاميذه : محمد عبده ورشيد رضا والكواكبى ومصطفى عبدالرازق وغيرهم .

وهى ظاهرة واضحة تبدو اليوم فى كتابات كثيرين ممن يحاولون أن ينتقصوا

ممن قدر عمر بن عبد العزيز والشافعي وصلاح الدين الايوبي ، وأخطر ما في البحث أنه :

أولا : لا يعتمد الاسلوب العلمى الصحيح فى تقويم الاسانيد والاخبار .

ثانياً : أنه يعتمد على مرجع واحد زائف لا يتخذه أى باحث منصف أساساً لعمله وهو تقرير المخابرات البريطانية التى كتبها الجواسيس والحاقدين من خصوم الامة والعقيدة يهوداً ونصارى وملاحدة ومبشرين ، وإذا كانت هناك حقيقة أساسية فهى أن حياة جمال الدين الافغانى قامت على مقاومه النفوذ الأجنبى وأنه كان خصماً عنيداً الدولة البريطانية ، وكان يصرح فى كل مجالاته أنه « يهدف إلى تسكيس علم بريطانيا فى الشرق » .

لذا فإن كل ما يكتبه أتباع هذه الدولة المستعمرة التى حاربت الإسلام والمسلمين حرباً شديدة خلال أكثر من ثلاثة قرون ، لا يمكن أن يكون له فى ميزان التقدير العلمى والتاريخى قيمة ما . ومن هنا فإنه لا يمكن أن يكون عميلا للروس أو الإنجليز ، بل كان خالصاً للأمة الإسلامية ، وبالرغم من أن مصدر النصوص الخصم ، فإن تعامل لويس عوض مع النصوص تعامل حقد وهوى دفين وليس تعامل علمى بأى حال من الاحوال .

رد على الفرية :

فقد أثبت الباحثون أنه :

أولا : حمل النصوص أكثر مما تحتمل .

ثانياً : أنه كان يهرب من الحقيقة عندما تتضح بإضافة شىء من التمويه .

ثالثاً : التناقض فهو يتهم جمال الدين بأنه يظهر خلاف ما يبطن ، ثم يقول فى موضع آخر إنه يتحرك بوضوح .

رابعاً . فساد دعواه بأن جمال الدين كان داعياً إلى التعصب الدينى فى مجلة « العروة الوثقى » ، بينما تكذب نصوص المجلة هذا الادعاء بل هى تعلن فى صراحة الحفاظ على الوحدة الوطنية وجمع الشمل .

تلاميذ المستشرقين :

وإذا كنا نرد النصوص وأسلوب تحليلها ، فإننا نرد الكاتب نفسه ونكشف هويته ، فالدكتور لويس عوض تلميذ من تلاميذ المستشرقين وداعية من دعاة التغريب واسمه على جبينه يكشف هويته ، ولقد تواترت وجهته خلال حياته الأدبية والفكرية كلها بين ثلاث عوامل هي الدعوة إلى العلمانية والفرعونية والإقليمية والدعوة إلى العامية والحرف اللاتيني وأن تكون مصر (كباريه) عالمي ، فهو دائب على عزل مصر عن الإسلام على النحو الذي بدأه طه حسين وسلامه موسى وتوفيق الحكيم وزكى نجيب محمود وعلى عبد الرازق وحسين فوزى ، ويزيد عليهم أنه منحاز ، ولم تكن كتاباته فى وقت من الأوقات فى تقدير الباحثين العرب والأجانب موضع الثقة من الناحية العلمية ، وهو يدعى إلى مؤتمرات مريبة تعقد فى الغرب ليسمع فيها المستشرقون ما يطمئنهم على أن دعوتهم سائرة فى طريقها وأن هزيمة الفكر الإسلامى قد تحققت فعلا ، وهو صاحب الدعوة إلى اعتبار الاحتلال البريطانى شبيهاً بالفتح الإسلامى (الاستعمار البريطانى فتحاً والفتح الاسلامى استعماراً) .

وهو الداعى إلى طمس شخصية مصر العربية والإسلامية وقيادة حركة التغريب والتبعية .

وقد أحصى له الباحثون عهده الذى عقده منذ كان طالباً فى جامعة كمبردج بأن لا يخط كلمة واحدة إلا باللهجة العامية التى يطلق عليها (اللغة المصرية) وكانت له كتب موضع نقد وتفنيد الباحثين ، وخاصة كتابه عن فقه اللغة العربية الذى ادعى فيه بأن اللغة العربية مصدرها اللغات الآرية الهندية ، ومن هنا كان لا بد أن يكون فى طليعة الهجوم على أعلام الفكر الإسلامى والدعوة الإسلامية ، وقد كان جمال الدين الأفغانى فى مقدمة الداعين إلى تطبيق الإسلام كوسيلة أساسية لمقاومة النفوذ الأجنبى الزاحف .

* * *

القضية الأولى . تهمة الماسونية :

وتتركز كبرى الاتهامات لجمال الدين الأفغانى على التحاقه بالمحافل الماسونية ، وكل الدلائل تدل على أن جمال الدين الأفغانى ورجال ذلك العصر السابق لعام عزل السلطان عبد الحميد (١٩٠٩) لا يعرفون حقيقة الماسونية ولا هدفها الخفى غير المعلن لأن أحداً منهم لم يكن قد وصل إلى الدرجة الثالثة والثلاثين وهى درجة الأستاذ الأعظم التى يكشف فيها الستار عن الهدف .

فالماسونية هى (البناؤون الأحرار) الذين يعيدون بناء هيكل سليمان فى القدس ، هذه الحقيقة لم يكن يعرفها جمال الدين أو محمد عبده ولم تتكشف إلا بعد عام ١٩٠٩ فى كتابات رجلين :

(١) السيد محمد رشيد رضا فى مجلة المنار بعد زيارته لتركيا والتقائه بالاتحاديين الذين عزلوا السلطان عبد الحميد والذين كانوا قد تربوا فى المحافل الماسونية .

(٢) لويس شيخو فى مجلة المشرق الذى تكشفت له هذه الحقائق الخاصة بالفرماسون . كما كانوا يطلقون على الماسونية من وجهة نظر نصرانية إلى خطر هذه النحلة .

ولكن جمال الدين بذكائه سرعان ما تكشف له جو الريبة فى المحفل الماسونى الإنجليزى حيث ما وجده كان مخالفاً للشعار الطنان (حرية - إخاء - مساواة) وكانت صدمة جمال الدين حين رأى أن هذا الشعار لا وجود له فى واقع هؤلاء الأعضاء هنالك هاجم المحفل وخرج منه - ولم يطرد من المحفل كما تقول روايات الأعداء - وسرعان ما أنشأ محفلا آخر تابعاً للشرق الفرنسى نجح فى تنظيمه ، فكان مدعاة للحملة عليه من ناحية النفوذ البريطانى ، وقد ألبوا عليه الخديو توفيق وأفهموه أن هذا المحفل سيكون سبباً فى زلزلة مكانته ، هنالك أخرج جمال الدين من مصر ، بينما كان جمال الدين يظن أنه سيكسب نفوذ الخديو وسلطانه أو يقضى بهذا التجمع على استبداده .

يقول الشيخ محمد عبده فى مذكراته (إن الأفغانى أحسن الظن بلوحة المحافل الخارجية لحاول استغلالها للخدمة العامة ليقف مستعيناً بالمحفل بطريق تصرفات الخديو توفيق وما أن أدرك خداع العنوان حتى فارق المحفل غير آسف) فالهدف الكامن فى نفس جمال الدين الأفغانى كان مختلفاً تماماً عن الواقع وعما حدث .

القضيــــة الثانيـــة : أفغانى أم إيرانى ؟

إن مسألة الإقليمية فى الوطن لم تكن مثارة فى فى ذلك العهد وإنما أثيرت من بعد عندما علت موجة القوميات والإقليميات ، ولما كانت الأمم تتنافس لانتساب العظماء إليها ، ولما كانت الأفغان جزءاً من إيران فى ذلك الوقت ، ولما كان هناك تشابه بين أسد أباد (الإيرانية) وبين أسعد أباه (الأفغانية) فإن كل هذا قد أثار الالتباس الذى أصبح موضع الاتهام من أن جمال الدين إيرانى وليس أفغانياً وشيعى وليس سنياً .

وقد اعتمد كل من كتب فى هذا على أمرين .

(١) على كتاب ألفه من سمى نفسه قريباً للسيد جمال الدين .

(٢) ما نشرته جامعة طهران فى أيام الشاه السابق من وثائق .

ولا شك أن هذين المصدرين لا يستطيعان إثبات هذه الدعوى وهما موضع الاتهام فنحن نعلم أن الخصومة الموجهة إلى جمال وإلى دعوته وإلى الجامعة الإسلامية كانت ولا تزال مصدر الحقد وعلى القوى التغريبية والاستشراق لمحاولة تثبيت هذه الشبهات عن طريق تزييف الوثائق وأنه ليس بعيداً أن يستكتب فارسى بهذه الدعوة أو أن تزيف الوثائق وينكر بعضها .

وأصدق دليل على الحقائق هو كتابة الكاتب عن نفسه . يقول جمال الدين الأفغانى فى ترجمة لنفسه .

(ونظرت إلى الشرق وأهله فاستوقفنى الأفغان وهى أول أرض مس جسمى

ترابها) وقال فى موضع آخر (وقد اضطررت لترك بلادى الأفغان) .

ولا يضير جمال الدين الأفغانى أن يكون إيرانياً أو أفغانياً ، بل الذى يضيره هو الوجهة التى توجه إليها والقضية التى جاهد فى سبيلها ، وقد كان له دوره الواضح فى التقريب بين السنة والشيعة وكان له محاولة فى لقاءاته مع السلطان عبد الحميد رغبة فى رأب الصدع بين تركيا وإيران .

لقد وصفه لويس عوض بأنه إيرانى الجنسية مع أنه أفغانى المولد ، ووصفه بالغامض حيث لا غموض بل كان جمال الدين الأفغانى واضحاً جريئاً صريحاً ، ولكن المصرى الغامض هو لويس عوض نفسه الذى ينشر هذه السموم فى الوقت الذى يحاول أن يعطى لكلمة (إيرانى) انطباعاً سيئاً .

ثالثاً : تقدير شخصية جمال الدين :

إن محاولة اتهام لويس عوض لجمال الدين الأفغانى محاولة باطلة لأنها لا تعتمد على وثائق صحيحة ، وهذه القصاصات التى نقل عنها أو نقلت له تحت إسم وثائق المخابرات البريطانية ليست فى نظر البحث العلمى إلا ركاماً تافهاً لا قيمة له .

بل إن المؤرخين والباحثين يؤكدون أنه لا يوجد فى خلال هذه المرحلة أى مصدر من المصادر التى تجمع أو تحتوى ما يمكن أن يسمى (وثائق المخابرات البريطانية) حيث لم تتكون المخابرات البريطانية بالفعل إلا بعد الانتهاء من فتح مصر ١٨٨٢ وبعد الانتهاء من حملة السودان أى ١٨٨٧ أى بعد الغزو البريطانى لمصر بخمس سنوات وبعد مغادرة جمال الدين مصر بسنوات تسع ، وإن كل تقارير هذه المخابرات لم تذكر حرفاً واحداً عن جمال الدين ، فمن أين جاء لويس عوض بوثائقه هذه عن نشاط جمال الدين الأفغانى .

بل إن هؤلاء الباحثين يؤكدون أنه فى عدد لا حصر له من الكتابات التى كتبها عملاء إنجليز ويهود لم يرد إسم جمال الدين الأفغانى فى فهارس هؤلاء إطلاقاً لسبب هو أن المخابرات نفسها لم تنشأ إلا بعد عهد جمال الدين بعشر سنوات على الأقل

(راجع ما كتبه دكتور السيد فهمي الشناوى) بل أن ما نشره لويس عوض يناقض المصادر الغربية والعربية على السواء :

(١) يناقض ما نشره رينان وبراون وجولد زيهر ولوثر ستودارد ، ومما قاله براون : كان جمال الدين فيلسوفاً وكاتباً وخطيباً معاً ، وكان يرمى إلى تحرير هذه هذه الدول الشرقية من النفوذ الاوربي والنهوض بها نهوضاً ذاتياً من الداخل .

(٢) ويناقض ما كتبه محمد عبده ورشيد رضا والمخزومى وأحمد أمين وعبد الرحمن الرافعى ، وهكذا سلب لويس عوض جمال الدين إخلاصه وصدقه دون الاعتماد على وثائق صحيحة أو مصادر حقيقية ، وكتب تاريخ رجل من مصادر أعدائه ، وكان هو أشد عداوة له منهم .

وقد عرفت شخصية جمال الدين الافغانى بالوضوح والحزم ، بل لقد وصف من أقرب الناس إليه (وهو الشيخ محمد عبده) بأنه لم يكن يقبل المسايرة والملاينة يوما يسمى بالكياسة مع مخالفيه وخصومه .

ويمكن أن يوصف جمال الدين بأنه صفحة بيضاء للأسباب التالية :

(١) دعوته إلى مجالدة الاستعمار وتنكيس علم بريطانيا فى الشرق .

(٢) دعوته إلى اتخاذ القرآن منطلقاً إلى الوحدة الجامعة وإلى النهضة .

(٣) دعوته إلى مقاومة النفوذ الأجنبى والتجمع فى وجهه .

(٤) مقاومة المستبدين المتسلطين أمثال خديو مصر وشاه إيران .

بل أنه ليس هناك ما يثبت دعاوى لويس عوض .

نعم ليس هناك ما يثبت أنه كان ملحداً أو زنديقاً أو مجدفاً ، وليس هناك ما يدل على أنه كان غامضاً ، أو مزدوج الشخصية ، بل هناك ألف دليل على وضوح الهدف والصراحة والغيرة على هذه الأمة ومقدساتها .

رابعاً : دعوته إلى الجامعة الإسلامية :

لا ريب أن من أبرز العوامل التي دعت لويس عوض والتغريبيين إلى الحملة على جمال الدين الأفغاني مفهومه للجامعة الإسلامية ومقاومته لمفهوم الإقليمية من ناحية وللفصل بين الدين والدولة من ناحية أخرى .

فمفهوم جمال الدين للإسلام مفهوم سليم وهو مفهوم أهل السنة والجماعة ، ولقد كان لويس عوض يطمع في أن يدعو جمال الدين إلى إقليمية مصرية فيكون في نظره بطلا وعظيماً ، والمعروف أن لويس عوض في كل ما يكتب يرفض انتماء مصر الإسلامى ، ويهاجم عروبة مصر ، ويصف الدائرة الإسلامية بأنها سفاسف ، ويتهم الإسلام بالسلبية والبيرقراطية .

ويجرى اتجاه لويس عوض في تقدير شخصية جمال الدين الأفغاني إلى أهوائه الفرعونية والغربية الرامية إلى تفتيت وحدة المسلمين وإزالة العلاقات الإسلامية وتغليب العلمانية والإقليمية والتغريب على الفكر العربي الإسلامى ، ويجرى لويس عوض في اتجاه التغريب فلا يجد من جمال والصحف الإسلامية الممتدة إلى اليوم إلا خصومة وعداوة .

فالهدف الذى يسعى إليه لويس عوض هو هدف الغرب وخصوم الإسلام والعروبة الذى يرمى إلى الفصل بين واقعنا وبين تاريخنا ، والداعى إلى تجاهل تراثنا وإعلامنا ، والعمل على إسكات الصوت الذى بدأ يرتفع بالدعوة إلى الإسلام : الدين والدولة ، وإلى عودة الخلافة ، وإلى الجامعة الإسلامية التى تتمثل في التضامن الإسلامى .

ولا ريب أن الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة شيء لا يقره الإسلام ويعرف المسلمون اليوم أنه ضد مسار النهضة الإسلامية ، وأن المسلمين حين يقرون الإسلام ديناً ودولة لا يقرون الدولة البيرقراطية التي يخوفنا بها لويس عوض ، فالمسلمون يدعون إلى وحدة تحت لواء القرآن ، وهذا ما يزعج دعاة التغريب

والمسلمون يؤمنون اليوم بأن المحاولة التغريبية تتركز حول إخراجهم من ذاتيتهم وكيانهم وتميزهم الخاص ليسهل صهرهم فى بوتقة الأممية والحضارة الغازية .

خامساً : بضاعة مزجاة :

تكاد تجمع كل الكتابات التى دحضت سموم لويس عوض على شىء واحد وهو ثقافة لويس عوض الضحلة ، بالإضافة إلى مصادره الزائفة ، بالإضافة إلى أحقاده وأهوائه الباطلة ، وهو كلما دخل معركة من هذه المعارك مثل :

(١) معركته مع العروبة (٢) معركته مع اللغة العربية (٣) معركته مع جمال الدين ، يكشف نفسه ويبين عن خلفية قليلة الفهم والإحاطة بالموضوعات التى يتناولها من قبل وعلى صفحات الأهرام حين كتب عن المعرى لم يفهم كلمة (الصليان) فقال إن المعرى كتب عن (الصلبان) .

وفى هذا البحث يقع فى عديد من الأخطاء فلا يفرق بين المهدوية والمهدى ولا بين النصيبى والناصبى ، ولا بين معركة نصيبين وبين فرقة النواصب الذين ناصبوا على بن أبى طالب وبنيه العداء ، كذلك فإنه يجهل التمييز بين الآية القرآنية والحديث فيقول إن آية (إنما المؤمنون إخوة) هى حديث .

ولما كان العلم بنقد النصوص أخص خصائص من يتصدى للبحث العلمى ، فإن لويس عوض قد عرف بقلة البضاعة العلمية فى هذا الميدان الذى تصدى للإفتاء فيه ودخل ميدان التاريخ دون أن يمتلك أياً من أدواته كما قال ناقدوه .

وبالجملة فإن كتابات الدكتور لويس عوض تؤكد وجهته فى التشكيك والافتراء على الإسلام والعروبة والقرآن واللغة العربية ، وتشير إلى زيف مراجعه ومصادره وعدم قدرته على ضبط مشاعره كعالم ، وتسلط أهوائه عليه وانكشاف اتجاهه التغريبى المعادى للصحوة الإسلامية ، كما يكشف عمن هم وراء لويس عوض من الملقنين الذين يقدمون إليه المادة التى ينشرها باسمه بعد أن انتهى دور المبشرين الذين كانوا يقومون بهذه المهمة .

(٢)

السلطان عبد الحميد

عارض المؤامرة

لم يظلم علم من أعلام الحكم والسلطان فى العصر الحديث كما ظلم السلطان عبد الحميد منذ أعلنت الحملة الصهيونية عليه بعد أن رفض تسليم فلسطين لليهود قبل عام ١٩٠٨ ومنذ ذلك الوقت لم تتوقف الحملة على هذا المسلم الغيور ، وهى حملة امتدت إلى كل مكان ، وكان أخطر معاقلها كتب التاريخ المدرسية المقررة فى بعض البلاد العربية والتى تصفه بأنه ظالم ومستبد . ومع أن وقائع التاريخ كشفت عن براءة السلطان عبد الحميد من الظلم وأسفرت عن موقفه المشرف الكريم من مؤامرة اليهود للسيطرة على فلسطين باعتراف الدكتور هرتزل نفسه الذى قام بالحوار معه ، مع هذا كله فلا يزال عملاء العلمانية والتغريب يشنون عليه حملة ضارية لا تتوقف ، والواقع أن هـذه الحملة تنطلق من أحقاد الغرب على الدولة العثمانية التى سيطرت على أوربا ثلاثة قرون والتى حمت العالم الإسلامى من عودة الحرب الصليبية مرة أخرى بعد هزيمتها وحماية الدولة العثمانية للوطن العربى خلال أكثر من أربعمائة عام .

يقول برنارد لويس اليهودى فى كتابه (نشوء تركيا الحديثة) :

« لقد تعاون الإخوة الماسونيين واليهود بصورة سرية على إزالة السلطان عبد الحميد لأنه كان معارضاً قوياً لليهود إذ رفض بشدة إعطاء أى شبر لليهود فى فلسطين » .

ومن ثم فقد جرد اليهود الحملة فى كل صحف العالم وفى الصحف الموالية للنفوذ الاستعمارى فى الوطن العربى ـ وكانت كبراها الأهرام والمقطم فى ذلك الوقت تحت سيطرة الصهيونية العالمية مع اختلاف بسيط . إذ كانت الأولى موالية للنفوذ الفرنسى والأخرى موالية للنفوذ البريطانى .

وكانت حملات الصحف الماسونية قد بدأت منذ تبين صلابة موقف الرجل وقد استمرت هذه الحملات تلح على تصوير السلطان عبد الحميد بصورة الطاغية المتسلط فترة تزيد على خمسين عاماً ثم بدأ يتجلى حقيقة موقف السلطان جزئياً بعد ترجمة بروتوكولات صهيون التى كشفت مخطط المؤامرة على الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية ثم تكشفت بصورة أوسع بعد ترجمة مذكرات هرتزل الذى روى بإفاضة وتوسع قصة الوساطة بينه وبين السلطان وعروضه ورد السلطان عليها.

وكشف فى وضوح أنه حاول أن يقدم للسلطان خمسين مليون جنيها باسم قرض الدولة العثمانية وخمسة ملايين لخزينة السلطان الخاصة فى سبيل السماح لليهود بدخول القدس وكيف رفض السلطان ذلك عن وعى وفهم عميق لأبعاد المؤامرة .

والمعروف أنه فى عام ١٨٩٧ إجتمع مؤتمر بال وقرر إختيار فلسطين لإقامة الوطن القومى اليهودى ، وتحدد أمر الاتصال بالسلطان والدولة العثمانية وكان السلطان قبل ذلك قد أمضى عزيمته فى الدعوة إلى الجامعة الإسلامية وتجميع المسلمين من خارج الدولة العثمانية تحت لواء الخلافة لمواجهة خطر النفوذ الاستعمارى الزاحف على الأمة الإسلامية .

ولقد لقيت صيحته إستجابة مدوية بوصفه قائداً للعالم الإسلامى كله وليس الدولة العثمانية وحدها ، والتف حوله العرب والمسلمون والفرس والترك ، لتعضيد الخلافة والذود عنها دون قيد أو شرط .

وكان السلطان عبد الحميد عندما تولى الخلافة عام ١٨٧٦ رأى فوجد أن الدولة العثمانية قد فقدت التفوق فى القوة العسكرية التى يمكن بها أن تقهر أعداءها فقد عوضه الله تبارك وتعالى عن ذلك قدرة من الدهاء إستطاع بها مواجهة مؤامرات الغرب (الاستعمار والصهيونية وروسيا القيصرية) التى كانت منذ سنوات طوال تحيك المؤامرات للقضاء على الدولة العثمانية بوصفها ممثلة للوحدة الإسلامية القائمة بين العرب والترك ، ومن ثم أخذ يوسع دائرة هذه الوحدة لتشمل مسلمى العالم كله ومن هنا كانت صيحته :

(يا مسلمي العالم اتحدوا)

إزاء الغزو الإستعماري

وقد أخذ يستصرخ الأمم الإسلامية في كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي للالتفاف حول دولة الخلافة لتكوين قيادة عامة للمسلمين جميعاً ، وقد جمع السلطان حوله عدداً كبيراً من زعماء العرب والبلاد الإسلامية ، وأحست إنجلترا وفرنسا وهما الدولتان المتنازعتان على السيطرة العالمية ، وقد أحسا أن العالم الإسلامي أوشك أن يلتف حول قيادته وخاصة حين أخذ ينفذ مشروع سكة حديد الحجاز ليربط العالم الإسلامي بالكعبة المشرفة وقد جمع لذلك سبعة ملايين من الدنانير .

وقد أشارت الدكتورة ألماولتن في كتابها عنه :

أنه كان لديه أربعون ألفاً من الدعاة للوحدة الإسلامية ممن كانوا في القسطنطينية من طلبة المعاهد الإسلامية وقد وجه دعوته إلى روسيا وشمال أفريقيا والهند والصين ، وإلى المسلمين جميعاً أينما وجدوا ومن أى جنس كانوا وقد حدث هذا في الوقت الذى كانت الدول الاوربية تترقب بفارغ الصبر موت (دولة الرجل المريض) لاقتسام ميراثها وتوزيع الأنصبة فيما بينهم .

وليس أدل على براعة السلطان عبد الحميد من عبارة السيد جمال الدين الأفغاني الذى قال بعد أن إلتقى بالسلطان وتعرف على مشروعه في الجامعة الإسلامية وأسلوبه في العمل السياسى وبايعه على ذلك ، قال: إن السلطان عبدالحميد لو وزن مع أربعة من توابع رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة ، فلا عجب إذ رأيناه يذلل كل ما يقام للملك من الصعاب من دول الغرب ، أنه يعلم دقائق الامور السياسية ومرامى الدول الغربية وهو يعد لكل هزة تطرأ على الملك مخرجاً واسعاً ، وأعظم ما أدهشني ما أعده من خفى المسائل وأمضى العوامل كى لا تتفق أوربا على أمر خطير في الممالك العثمانية وكان يراها عقابا محسوساً :

إن تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن أن يقع إلا بخراب الممالك الاوربية بأسرها وكلما حاولت دول البلقان الخروج على الدول بحرب ، كان السلطان يسارع بدهائه العجيب لحل عقد ما ربطوه و تفريق ما جمعوه » ا . هـ .

وقد وصفت خطة السلطان بأنها تمثل له سياسة (التوازن الدولى) تى كان من شأنها أن تبق الدول الغربية متجامدة متنابزة فى الامور التى تتعلق بتركيا ومستقبلها .

• • •

وكان السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ – ١٩٠٩) وهى فترة حكمه فاهما لكل التيارات المحيطة به وبالدولة العثمانية وبالخلافة فى الداخل والخارج وعلى وعى كامل بالمؤامرة التى تدبرها (الدونمة) المقيمة فى سالونيك عن طريق حزب الاتحادين الموالى للصهيونية والذى يحمل لواء الدعوة إلى إعادة الطورانية ونزع الرباط الإسلامى ، عارف بكل ما يدبر عن طريق مخططات الماسونية مما لم يكن مكشوفاً فى ذلك الوقت للعامة ، وتأتى تصريحاته وعباراته لتدل دلالة واقية على وعيه الواضح ومن هنا كانت مقولاته :

يجب ألا ندع الغرب يبهرنا فإن الخلاص ليس فى المدنية الاوربية وحدها .

وقوله : إن تركيا نافذة الإسلام التى سيشع منها النور الجديد .

وقد بدأ عمله فعلا نحو الوحدة الإسلامية حتى أشار تقرير سفير بريطانياً لدى الباب العالى ١٩٠٧ إلى هذا الخطر بقوله :

يمكننا أن نقرر أن من أهم حوادث السنوات العشر الأخيرة على الأقل (١٨٩٧ - ١٩٠٧) خطة السلطان الباهرة التى استطاع أن يظهر بها أمام (ثلاثمائة مليون مسلم) - فى ثوب الخليفة الذى هو الرئيس الروحى فى الدين الإسلامى - وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الدينى وغيرته الإسلامية ببناء سكة حديد الحجاز ونتيجة لهذه السياسة فقد أصبح حائزاً على خضوع رعاياه له خضوعاً أعمى .

وقالت الدكتورة ألما واتن (لقد استطاع أن يقود تركيا بعيداً عن الكارثة ، بمناوراته السياسية البارعة ، موازنا بين مقاطعاته ودول أوربا مستحثا الهمم رافعاً الآمال ، موجها إنتباه العالم نحو أشياء جديدة كلما كان التنور يهدد بأن يصبح جاداً وكانت خطته لاستعادة قوة تركيا ومجدها عن طريق توحيد العالم الإسلامى تقترب من النجاح) .

ومن أجل هذا الذى تقرر وأصبح واضحاً كان لابد من القضاء على السلطان وتحطيم مشروعه حيث كان يواجه تياراً ضخماً من المطامع للدول الأوربية والصهيونية وروسيا فى تمزيق أمبراطوريته وكان السلاح هو تسليط سلاح العنصرية الذى حمله دعاة تركيا الفتاة والاتحاد والترقى بالدعوة إلى الطورانية وآزرتهم الدونمة التى كانت تمهد للوصول إلى فلسطين .

وقد واجه السلطان هذا المخطط بقوة وبسالة وفى نفس الوقت الذى بدأ فيه هرتزل محاولته كان السلطان قد أصدر أمره بفصل (سنجق القدس) مركزى وإدارى عن ولاية سوريا ١٨٨٧ وإخضاعه لإدارته المباشرة بمجرد أن تكشفت له المرامى البعيدة وراء المخططات الصهيونية .

وعندما شرع هرتزل يفكر فى مقابلة السلطان ملتمساً مختلف الوسائل والطرق ليسترعى إنتباه الباب العالى كان عبد الحميد واعياً لكل المحاولات وقد سعى هرتزل لدى بسمارك حيث كانت ألمانيا حليفة لتركيا وسعى عند كثيرين من الشخصيات البارزة وكان هدفه أن يقنع السلطان بإعطائهم مساحة من الأرض مقابل إستعداد اليهود لدعم مالية الدولة العثمانية والتأثير على الرأى العام الأوربى ليقف إلى جانب السلطان .

ولكن السلطان كان متشبثا بموقف الايمان والاصرار على حماية حق الأمة الإسلامية ومعارضة كل الاغراءات والمحاولات قد حسم الموقف فى حزم حين قال :

(أنصح للدكتور هرتزل أن لا يسير أبداً فى هذا الأمر ولا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد لأنها ليست لى بل لشعبى ولقد حصل شعبى على هذه

الامبراطورية بإراقة الدماء وقد غذاها بعد ذلك بدمائه وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا ، ليحتفظ اليهود بملايينهم فإذا ما قسمت الامبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون قتال . إننا لن نقدم إلا جثثاً ولن أقبل بتشريح أجسامنا لأى غرض كان (يونيو ١٨٩٦) .

. . .

ولما إستيأس هرتزل من السلطان بعد الاغراء بدأت مرحلة التهويد فاستخدم اليهود قدراتهم الاعلامية والدعائية فى تشويه سمعة السلطان عبد الحميد والتآمر للقضاء على الدولة العثمانية مؤكدين مؤامرتهم على السلطان عبد الحميد بالذات لأنه كان العقبة الكؤود فى طريقهم فرموه بكل منقصة وأظهروه للأمة فى أبشع صوره وانطلقت أقلام تابعيهم تصفه بالسلطان الأحمر وألف جرجى زيدان قصة الاستبداد العثمانى وكتب مركيس وغيره عشرات المقالات والكتب الظالمة فى إتهام الرجل الشريف وكان ذلك مقدمة لإسقاطه ، ثم إسقاط الخلافة والدولة العثمانية .

فهذه فى الحقيقة قصة رجل مظلوم قاوم فى سبيل حماية أرض الإسلام من أخطر مؤامرة فى العصر الحديث وهى الاستيلاء على فلسطين والقدس ، يجب أن تكون فى وعى الشباب المسلم اليوم .



الفصل الثالث

(١)

إقبال والقرآن العظيم

قال محمد إقبال : يرجع الفضل في كل ما أنشأته من شعر أو نثر إلى توجيهات أبي رحمه الله ، فقد كنت تعودت أن أقرأ (القرآن) بعد صلاة الصبح . وكان والدي يراني فيسألني : ماذا أصنع فأجيبه بأني أقرأ القرآن ، وظل على ذلك ثلاث سنوات متتالية يسألني سؤاله فأجيبه .

وفي ذات صباح قلت بعد إجابتي (ولكن لماذا تسألني عن شيء أنت بجوابه عليم) فقال : إنما أردت أن أقول لك

إقرأ القرآن كأنه نزل عليك .

ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه ، فكان من أنواره ما اقتبست ومن بحره ما نظمت .

ويقول السيد أبو الحسن الندوي : ولم يزل إقبال إلى آخر عهده بالدنيا يغوص في بحر القرآن ويطير في أجوائه ويجوب في آفاقه فيخرج بعلم جديد وإيمان جديد وإشراق جديد وقوة جديدة ، وكلما تقدمت دراسته واتسعت آفاقه إزداد إيماناً بأن القرآن هو الكتاب الخالد والعلم الأبدي وأساس السعادة ومفتاح الأقفال المعقدة وجواب الأسئلة المحيرة ، وأنه دستور الحياة ونبراس الظلمات ، ولم يزل يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى التدبر في هذا الكتاب العجيب وفهمه ودراسته

والاهتداء به فى مشكلات العصر واستفتائه فى أزمات المدنية وتحكيمه فى الحياة والحكم ، ويعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب الذى يرفع الله به أقواماً ويضع به آخرين . يقول فى مقطوعة شعرية :

[إنك أيها المسلم لا تزال أسيراً للمتزعمين للدين ، والمحتكرين للعلم ولا تستمد حياتك من حكمة القرآن وأسا . إن الكتاب الذى هو مصدر حياتك ومنبع قوتك لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة فتقرأ عليك سورة (يس) لتموت بسهولة فوا عجباً ، قد أصبح الكتاب الذى أنزل ليمنحك الحياة والقوة يتلى الآن لتموت براحة وسهولة] .

وهكذا حدد إقبال منطلقه الفكرى كله على مدى حياته لم يحد عنه شعره ، القرآن هو مصدر ثقافته ومنهجه وشعره ، كان يفكر بعقل القرآن وكل ما كان يراه كان يراه بعين القرآن ، كما عبر عن ذلك الإمام المودودى ، كذلك فإن فلسفة إقبال التى أدارها حول الذات الإنسانية استنبطها من القرآن الكريم ، إذ أن كثيراً من الآيات تذكر الذات الإنسانية فى كينونتها وحريتها وثوابها وعقابها ونموها الروحى والعقلى على حد تعبير الدكتور فهمى قطب الدين .

يقول إقبال فى كتابه (تجديد الفكر الدينى فى الإسلام) :

(أولا) إن الإنسان اصطفاه الله (تبارك وتعالى) « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » .

(ثانياً) إن الإنسان بالرغم من أخطائه جميعاً يريد أن يكون خليفة الله فى أرضه (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) .

(ثالثاً) إن الإنسان أمين على شخصية حرة أخذ تبعتها على عاتقه (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا) .

كذلك فإن مراحل تربية الذات عند إقبال قد استلهمها من القرآن وهي : (الطاعة وضبط النفس والنيابة الإلهية) .

فآيات الطاعة والإمر بها في القرآن تزيد على إحدى وخمسين آية وكذلك آيات ضبط النفس وقيادتها والالتزام بالشرع لتكسب الحرية والشجاعة وعدم الخوف إلا من الله تبارك وتعالى كثيرة في القرآن » .

(٢)

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي : إن إقبال شاعر أنطقه الله ببعض الحكم والحقائق في هذا العصر . أنطقه الله الذي أنطق كل شيء ، أنطقه كما أنطق الشعراء والحكماء قبل عصره وفي غير عصره ، إنني أعتقد أنه صاحب فكرة واضحة وعقيدة راسخة عن خلود الرسالة المحمدية وعمومها وعن خلود هذه الأمة وصلاحيتها للبقاء والازدهار وعن كرامة المسلم وأنه خلق ليقود ويسود وعن تهافت المبادىء والفلسفات والدعوات التي ظهرت في هذا العصر كالقومية والوطنية والشيوعية والرأسمالية ، وأشهد على نفسي أني كلما قرأت شعره جاش خاطري وثارت عواطفي وشعرت بدبيب المعاني والأحاسيس في نفسي ، وتلك قيمة شعره وأدبه في نظري .

وفي هذا الجو المكهرب بالفكر الغربي وفي هذا العالم المتجاهل لقيمته وقوته ورسالته ومكانه في قيادة الإمم تزداد قيمة شاعر يولد في بلاد بعيــدة عن مهد الإسلام في سلالة برهمية قريبة العهد بالهداية الإسلامية في بيئة كان يحكم فيها الإنجليز وتسود فيها الثقافة الغربية وتدرس فيها العلوم العصرية ، ثم يشتد إيمانه بالرسالة المحمدية وحبه وغرامه بشخصية محمد ﷺ وثقته بهذه الأمة ومواهبها ومستقبلها ويستخدم عبقريته الشعرية ومواهبه الأدبية في نشر عقيدته وشعوره ودعوته ويحدث هزة في الأفكار والآداب في قطر من أعظم الأقطار الإسلامية وأوسعها ويتجاوز تأثيره إلى أقطار بعيدة .

لقد تخرج محمد إقبال من مدرسة القلب والوجدان ، وهي مدرسة تشرف عليها

التربية الإلهية وتمدها القوة الروحية ويرجع إليها الفضل فى تكوين مسيرته وعقليته وأخلاقه وشخصيته .

أما أستاذه العظيم فهو القرآن الكريم ، الذى أثر فى عقلية إقبال وفى نفسه ما لم يؤثر فيه كتاب ولا شخصية فقد أقبل على قراءة هذا الكتاب قراءة رجل حديث العهد بالإسلام فيه من الاستطلاع والتشوق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب من مال ومتاع وعقار ، وقد وصل إليه هذا المهتدى بشق النفس وعلى جسر من الجهاد والتعب .

لقد كانت قراءة محمد إقبال القرآن قراءة تختلف عن قراءة الناس ، منذ أن وجهه أبوه هذه الوجهة .

(إقرأ القرآن كأنه نزل عليك)

ولم يزل محمد إقبال إلى آخر عهده بالدنيا يغوص فى بحر القرآن ويطير فى أجوائه ويجوب فى آفاقه فيخرج بعلم جديد وإيمان جديد وإشراق جديد وقوة جديدة ، وكلما تقدمت دراسته ازداد إيماناً بأن القرآن هو الكتاب الخالد والعلم الأبدى وأساس السعادة . .

(٣)

ومن هنا كان الشاعر الإسلامى الوحيد الذى وجه كل شعره إلى الإسلام بمفهومه الصحيح حيث لم يصل إلى هذا التفرد شاعر آخر فى أرض الإسلام قاطبة . قال الأستاذ الزيات صاحب الرسالة إذا كان حسان شاعر الرسول ﷺ فإن محمد إقبال هو شاعر الرسالة .

ولا يرى إقبال أنه شاعر أو فيلسوف ولكنه يرى أنه يحمل لواء الدعوة إلى النهوض بالأمة الإسلامية وإحياء الإسلام ، ويرى أن الأصول الاجتماعية التى قدمها الإسلام يمكن أن تكون وسيلة لتوحيد الإنسانية وأن الإسلام هو السبيل الوحيد لتوحيد العالم .

وفكرته عن الإنسان الكامل غير مستعارة لا من كتاب الصوفية القديمة ولا من كتابات الغرب عن سوبرمان نيتشه، ولكنها إسلامية الجوهر والأداء. عاش في الغرب وتعلم فكر الغرب ولكن تعلمه للإسلام، لم ينبهر به أو ينحاز إليه كما انحاز الذين خدعهم هذا الفكر واحتواهم وقليل هؤلاء ومنهم غير إقبال: مالك بن نبي.

لقد عرف إقبال الغرب وفكره ليصحح موقف المسلمين منه وليدلهم على أن منابع الإسلام هي أكثر أصالة وقوة وإن كان الغرب قد نهل من منابع الإسلام ولكنه حول ذلك إلى بوتقته اليونانية الرومانية.

لقد أعطانا إقبال النموذج، نموذج المسلم الذي يذهب إلى الغرب ثم يستطيع بإيمانه العميق أن يفلت من شباك الصيد، لأنه قد تحصن قبل سفره بزاد عميق من القرآن.

كان حبه لرسول الله ﷺ بالغ الوصف ولكنه حب نقي يتحرك في إطار المفهوم الإسلامي الأصيل، مفهوم أهل السنة والجماعة بعيداً عن الشطحات والمبالغات، إنه الرجل الذي جعل من الشعر منطلقاً إلى بناء الأمة الإسلامية المتجددة، لقد كتب كثيراً ولكنه كان يؤمن بأن الشعر هو المنطلق الحقيقي الذي يهز النفس ويدفعها إلى قبول ما يقدم إليها.

(٤)

كانت معركة إقبال الكبرى مع الجمود. يقول الدكتور سمير عبد الحميد في أطروحته عن إقبال: إن إقبال يسير في دعوته إلى ابتعاث مفهوم الإسلام الأصيل على نفس الطريق الذي عرفه المسلمون من خلال حركة اليقظة في العصر الحديث، ويتابع خطوات الشاه ولي الله الدهلوي ومحمد بن عبد الوهاب وجمال الدين الأفغاني.

ويرى إقبال أن الدهلوي هو أول من وجه العناية إلى الشريعة الإسلامية وكشف أسرارها وغوامضها. وبهذا مهد السبيل لدراستها من جديد للقيام بمهمة

التجديد لمسايرة التطورات الحديثة وملابساتها الطارئة وإزالة الركود منها لتصبح سهلة مرنة تساير حياتنا، وإن إقبال يؤمن بتحرير الفكر الإسلامى من جموده وبضرورة التكامل بين العقل والقلب وبين الفرد والمجتمع وبين الروح والمادة وبين الدين والعلم وذلك فى مواجهة مايحاوله الاستشراق من التركيز على جوانب من التراث والمبالغة فى إذاعتها وفى مقدمتها دراسة الصوفية المتصلة بالمفاهيم المنحرفة والدخيلة على مفهوم الإسلام الأصيل بما كان سبباً فى تحول الإسلام من الإيجابية الدافقة إلى عقيدة مستسلمة تأملية ، الأمر الذى أدى إلى حالة من التشاؤم والقدرية وأن الغرب لم يقبل تحرير العالم الإسلامى إلا على أساس مفروض وهو أن يدخله فى فكره ، فكان التحرر من النفوذ العسكرى علامة على الوقوع فى أزمة سيطرة نفوذ فكرى من جانب الغرب .

ويدعو إقبال إلى التعارف على الأساس الواضح والصحيح لفكرنا وذاتنا وشخصيتنا ، وأن نؤمن بقيمنا الإنسانية التى نبنى عليها تطورنا الفكرى ، فإذا وجدنا هذا الأساس وهو موجود واتفق عليه ، تحققت وحدة الفكر التى تحول دون البلبلة والاضطراب فى تيه نظريات الغرب ، فإذا تحققت وحدة الفكر كان من السهل مواجهة تيارات الفكر الوافد كله دون أن تقتلعنا أو تمسخنا .

(٥)

كشف إقبال لأول مرة حقيقة العلاقة بين أوربا والعلوم الإسلامية فقال فى كتابه (تجديد الفكر الدينى) : إن هذا المنهج التجريبى الإسلامى نقل إلى العالم الحديث عن طريق الأندلس وأن آراء روجر بيكون أصدق وأوضح من آراء خلفه فرنسيس بيكون ، وقد استمد آراءه من الجامعات الإسلامية فى الأندلس والتاريخ على ما نقول شاهد ، فدراسات روجر بيكون للمصادر الإسلامية مسجلة مواقعها ومصادرها وهو يعلنها بمقولات زائفة منها قوله : لو أتيح لى لأحرقت كل كتب أرسطو لأن دراستها يمكن أن تؤدى إلى ضياع الوقت والوقوع فى الخطأ وازدياد الجهالة ، ذلك لأن كتب أرسطو تعرض منهجاً منطقياً لا يؤدى إلى معرفة الحقائق التى تمثل الواقع فى حين يمثل المنهج القرآنى حقائق مستمدة من الاستقراء .

والاستخلاص والتجريب ، وقد اتبعه العلماء العرب فى الفقه والطب والعلوم الكونية والطبيعة والهندسة ، فكانت لهم السيادة العلمية نحو قرون عشرة .

ويتحدث إقبال عن الوحدة الإسلامية :

(إن المسلم لا تعرف أرضه الحدود ولا يعرف أفقه الثغور ، ليست دجلة والنيل ودنواب إلا أمواجاً صغيرة فى بحره المتلاطم ، عصوره عجيبة وأخباره غريبة ، هو فى كل عصر ساقى أهل الذوق ، وفى كل مكان فارس ميدان الشوق ، شرابه رحيق دائماً وسيفه ماض فى كل مفرق المسلم الربانى ، ليس بشرقى ولا غربى ، ليس وطنى دهلى ولا أصفهان ولا سمرقند وإنما وطنى العالم كله ، إن المسلم كالشمس إذا غربت فى جهة طلعت فى جهة أخرى فلا تزال طالعة) .

ويقول :

ليس فى استطاعة أمة أن تتنكر لماضيها تنكراً تاماً ، لأن الماضى هو الذى كيف شخصيتها الحاضرة ، كما أن حكم القرآن على الوجود بأمة خلق يزداد ويترقى بالتدريج يقتضى أن يكون لكل جيل الحق فى أن يهتدى بما ورثه من آثار إسلامية من غير أن يعوقه ذلك التراث فى تفكيره وحكمه وحل مشكلاته الخاصة .

* * *

لك الحمد يا رب إذ لست من سقط المتاع ، ولست من عبيد الملوك والسلاطين لقد رزقنى حكمة وفراسة لم أبعهما لملك من الملوك ، إننى فقير قاعد على قارعة الطريق ولكنى غنى النفس أبى .

(إقبال)

الفصل الرابع

شاه ولى الله الدهلوى

حجة الله البالغـــة

عرف بأسلوبه الخاص فى البحث عن أسرار الشريعة وغوامض العلوم النقلية والعقلية ومحاربته الصريحة للبدع والخرافات فضلا عن فصاحته فى اللغة العربية ، عرف بكتابه الشهير : حجة الله البالغة فى علم أسرار الشريعة .

كان مصلحاً مجتهداً وصاحب دعوة إلى العودة إلى المنابع وليس إلى تبرير واقع المجتمعات شأنه شأن بعض المصلحين .

واجه الهنود وهم يرون أن علوم اليونان تغنيهم عن كتب الإسلام ، وحارب الجهل والجمود ، والتقليد الأعمى ، بعد أن طغا واستفحل وغفل الناس عن صوت القرآن الكريم والحديث .

وقد دعا إلى التمسك بالكتاب (القرآن الكريم) إذ هو عماد الدين وعليه بناء الإسلام ويرفع الله به أقواماً ويضع به آخرين ، فوضع أصولا للتفسير وحل معضلات القرآن فى رسالة له وترجم معانى القرآن إلى اللغة العلمية فى ذلك الزمان ـ وهى الفارسية ـ ودعا إلى الاجتهاد والتحقيق ، وعمل على نشر السنة ، وكان قد سبقه الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى فإنه أول من غرس الشجرة ، شجرة الحديث فى الهند وسقاها بماء مؤلفاته .

لم يكن يتقيد برأى إمام معين بل كان يأخذ بما أجمع عليه الأئمة ويسعى فى سبيل التطبيق بين مذاهبهم إن أمكن ، وإن تعذر عليه ذلك أخذ بما يؤمن به من

الأحاديث الصحيحة ويرجح على غيره ، وكتابه (حجة الله البالغة) أكبر شاهد على ذلك .

وكانت قاعدة ولى الله الدهلوى (١١١٤ هـ) طرد الشبهات وإزالة الأوهام والذود عن عقائد أهل السنة حتى يتبين لهم الحق .

* * *

يقول خاجا شهاب الدين : قل أن وجد فى تاريخ القارة الهندية فى القرن السابع عشر شخصية لها أثرها العميق فى أهل ذلك الزمان مثل ما كان لشاه ولى الله ، فقد عول على أن يخلص الدين مما كان قد علق به من الأوهام ، وراح يمهد الطريق لتحقيق هذا الغرض عن طريق المدرسة الرحيمية التى أصبحت نواة لحركة ثورية تهدف إلى تجديد الفكر الدينى فى الإسلام ، فقد كان يؤمن بأن الإسلام دين متجدد ولذلك طلب إلى بنى ملته أن يتركوا التعصب وأن يدرسوا الإسلام على أنه دين حق بمكنته أن يهدى البشر إلى ما فيه الخير والسلامة .

وكان قد أنشأ المدرسة الرحيمية التى قامت بدور خطير فى تاريخ الإسلام لشبه القارة ، طلب العلم على يدى أبيه الذى كان من العلماء ثم هاجر إلى الحجاز فطلب العلم على يدى فقهاء مكة والمدينة .

وكان يؤمن بأن عالم الدين يجب أن يبصر رجل السياسة إلى الطريق القويم ويلح عليه فى أداء الواجب ، وقد قام بدور المصلح والمنسق والحكم فى الصراع الذى كان قائماً يومذاك بين المؤمنين والملحدين حتى أطلق عليه مجدد الألف الثانى . وكان يطالب بإصلاح الصوفية مع عدم رفضها كلية أو إنكارها ذلك لأنه كان يجد فيها حلولا لكثير من المشكلات الفردية ومتسعاً لكثير من القوى المعنوية والروحية . وكان يصور منهجه على نحو واضح صريح .

« إن الرجل العادى يجب أن يتبع إمامه ، أما الشخص العارف المتفقه فيمكنه أن يأخذ مايريد من أى مذهب من المذاهب وأن يتبع ما جاء فى أحاديث الرسول

الكريم ، وإن المسلم ليستطيع أن يوفق بين ما يدور فى عقله ومنطقه وبين ما هو نازل بشأنه ، وإن من يدرك هذه الأمور حق فهمها يدرك أن أغلب حالات الاجتهاد دائماً هو منطو على الحقيقة فى أى من طريقها ، والدين دين سمح وإنما بشروط :

وأن الإنسان يجب أن لا يلقى عبء نفسه على أشياعه ومواليه .

* * *

عالج فى كتابه (حجة الله البالغة) مشكلات المسلمين فى كل زمان ومكان وعرض لما كان من شأن المجتمع الإسلامى فى شبه القارة الهندية فى زمانه ، وطالب بإزالة المظالم التى كانت تنخر فى كيان الأمة ، وكان يطلب من قومه الحد من الإسراف وترك الفخفخة والرجوع إلى أيام الإسلام الأولى .

كما عرض للأمراض الاجتماعية التى انتقلت إلى المسلمين من الهنادك فكان يعارض بقاء الأرامل بلا زواج بعد وفاة أزواجهن ، وكان ينكر المبالغة فى طلب المهور والبذخ فى حفلات الأعراس .

• ترجم معانى القرآن الكريم إلى الفارسية .

• كشف عن (الفيصل فى وحدة الوجود ووحدة الشهود) .

واهتم بنشر التعاليم والمبادىء التى تضمنها القرآن الكريم . وألف كتابه (الفوز الكبير) الذى عالج فيه الإسلام بصورة دلت على علمه وطول باعه .

وكتبه فى التصوف تهدف إلى وضع حد للخلاف القائم بين الصوفية والعلماء وكانت تهدف إلى سد الثغرة القائمة بين رجال الصوفية أنفسهم .

وله مقدمة فى تفسير القرآن المجيد .

وقد نجح فى خلق طائفة كبيرة من المؤمنين ذوى العقول النيرة . وقد وسع

أولاده الأربعة من بعده خاصة (شاه عبد العزيز) من قطر الدائرة التي رسمها والده حتى اتسعت للآلاف من الناس المنتشرين في شبه القارة الهندية كلها .

. وفق بين المذاهب الأربعة في خلافاتها ودلالاتها في كتابه : (الفروق بين الأئمة) .

. وفق بين مذهبي الصوفية المتنافسين : مذهب وحدة الوجود (ابن عربي) ومذهب أحمد السرهندي (فلسفة سمو الإسلام) .

وبالجملة فقد عمل على تحرير المسلمين من الفكر الوثني والبرهمي واليوناني الذي كان يغشى العقلية الهندية ورهبانية الهنادك الباطلة ورياضياتهم المخالفة لما جاء به الإسلام الحنيف ، سواء في مجال علم الكلام الذي كان يعتمد على الفلسفة اليونانية أم التصوف الذي كان يعتمد على مفاهيم الغنوصية . ودعا إلى الاعتصام بالكتاب والسنة وترك التقليد .

توفي ١١٨٠ هـ (١٧٦٦ م)



الفصل الخامس

رحمة الله

إظهار الحق

ألف الشيخ رحمة الله الهندي كتابه إظهار الحق على امتداح الخليفة العثماني السلطان عبد العزيز والصدر الأعظم .

وكان الشيخ قد هاجر إلى مكة المكرمة عقب ثورة ١٨٥٧ وزار القسطنطينية .

وقد آثر في هذا الكتاب خطة الهجوم كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) واعتمد في الكتاب على التناقضات الواضحة والبديهيات الجلية من الأخطاء التي لا تقبل التأويل واستخرج منها نتائج كالنتائج الرياضية لا يختلف فيها إثنان ووضع عقيدة التثليث في النصرانية على محك العقل ونقدها نقداً علمياً ، وأضاف إلى ذلك الحديث عن القرآن الكريم وإثبات أن كلام الله والسيرة النبوية ، وذكر المعجزات والبشارات التي وردت شأن النبي ﷺ ، ونقل الكتاب إلى عدة لغات أوربية وكتبت عنه كبرى صحف انجلترا (التيمس) تقول :

لو دام الناس يقرأون هذا الكتاب لوقف تقدم المسيحية في العالم ، وكان القس فندر قد ألف كتابه (ميزان الحق) .

وقامت المناظرة التاريخية بينه وبين القس فندر في أكرابادا كره إحدى مديريات الولايات الشمالية الرئيسية وأحد مجالات النشاط التبشيري في الهند في حي من أحيائها المعروف بحارة عند المسيح ، وحضرها ولاة المديرية وموظفو النكلة

الإنجليزية من الإنجليز وعدد من الأعيان ، وأسفرت المناظرة عن اعتراف القس فندر بوقوع التحريف فى ثمانية مواضع من الإنجيل .

وقد حضر المناقشة عدد من الحكام الإنجليز المسيحيين والهنادك والسيخ ، وظهر ضعف فندر فى المناظرة وتعنته ، ولم يرجع القس إلى المناظرة فى اليوم الثالث وأصبح شعاراً له أنه إذا علم بوجود الشيخ فى مكان غادره .

* * *

وقال الدكتور أحمد حجازى السقا المحقق لكتاب إظهار الحق أن الشيخ رد على الحركة التبشيرية بمثل مايفعل المبشرون ، فقد أسس مع النيوريين جماعة التبليغ للدين الإسلامى وأصدروا الكتب رداً على الكتب ، وبمناظرته للقس بفندر رئيس البعثة التبشيرية ببلاد الهند وغلبته له رفع رءوسهم إلى السماء بانتصار الإسلام على النصرانية ، ولما خزى النصارى فكروا فى الإعداد العسكرى المسلح للاستيلاء على الهند استيلاء كلياً وتم لهم ذلك عام ١٨٥٧ م .

وكان الشيخ رحمة الله الهندى المتوفى ١٣٠٨ه من نسل عثمان بن عفان الذين استوطنوا بلاد الهند ، وقد درس كتب الشريعة الإسلامية واللغة الفارسية والعربية على يد آبائه لاستكمال تعليمه العالى وارتحل إلى مدينة دلهى ولكنو وتتلمذ على المفتى سعد الله .

وفى منتصف القرن التاسع عشر كان المبشرون النصارى من طائفة البروتستانت جادين فى نشر دينهم ببلاد الهند يستهدفون الإسلام بكل طاقاتهم فأخذوا فى الانتشار فى جميع البلاد يوزعون رسائلهم وكتبهم فى مختلف الطبقات ، وكان معهم القس بفندر رئيس البعثة التبشيرية فى عموم الهند الذى ألف كتاباً أسماه (ميزان الحق) يدعو فيه السكان المسلمين علناً إلى النصرانية ، فدب الملل فى نفوس الناس وكادوا أن يخرجوا من ملتهم ، وفجأة تنبه علماء المسلمين وعلى رأسهم الشيخ رحمة الله ابن خليل الله للخطر الداهم على الإسلام والمسلمين هناك فوضعوا خطتهم التى تركزت على محورين :

المحور الأول : مطالعة كتب الدين النصرانى وما شرحه علماؤهم فى عقيدتهم كى يعرفوها حق المعرفة عند مناظرتهم .

المحور الثانى : مقاومة الغزو التبشيرى النصرانى بأسلوب الفكر المستنير وإظهار الحجه القوية دفاعاً عن الإسلام ودحضاً للنصرانية وذلك على رءوس الأشهاد .

* * *

يقول الشيخ رحمة الله : دعوت العالم النصرانى (بفندر) أكبر القسيسين ورئيس البعثة التبشيرية فى الهند للمباحثة والمناظرة على مرأى ومسمع من الناس لتحق الحق وتزهق الباطل ، وقد انعقدت الجلسة الأولى للمناظرة فى التاريخ المحدد لها بحى أكبر أباد فى مدينة أجرا ، وكان مرافقاً للشيخ الدكتور محمد وزرخان كما كان للقسيس بفندر القس فرنيشى أما شهود المناظرة فكانوا كثيرين ، منهم رئيس الديوان ومستشار النظارة المالية ونائب آمر مدينة نبارس ، وإمام الجامع الكبير فى أجرا الشيخ قمر الإسلام ، كما حضرها رئيس تحرير جريدة مطلع الأخبار خادم على خان وبعض أمراء الإنكليز وحاكم المعسكر .

وكانت جلسة المناظرة الأولى (١٠ أبريل ١٨٥٤) .

وموضوعات المناظرة :

(١) النسخ (٢) التحريف (٣) التثليث (٤) حقيقة القرآن (٥) رسالة محمد ﷺ .

وعرض الشيخ رحمة الله وجهة نظرة فى النسخ وتحريف الإنجيل وأثبت بأدلة استخرجها من كتب أهل الكتاب أنفسهم ، إن النسخ ممكن عقلا وواقع فعلا ، وإن الإنجيل المتداول ليس هو الذى نزل من السماء على السيد المسيح عليه السلام وخلال المناقشة اعترف القسيس بفندر بقوله (لا يوجد التحريف إلا فى سبعة مواضع أو ثمانية من الإنجيل) .

فعند ذلك وقف الشيخ قمر الإسلام أمام المسجد الجامع وقال المحرر الصحفى

خادم على خان : اكتب فى صحيفة مطلع الأخبار أن القسيس بفندر اعترف بالتحريف فى الإنجيل فى سبعة مواضع أو ثمانية .

فصاح القسيس بفندر : نعم أنا أعترف إلى هذا الحد ولكن مثل هذا القدر القليل لا يضر الكتب السماوية .

قال الشيخ رحمة الله : إذا ثبت التحريف فى وثيقة من الوثائق فإنه لا يعمل بها وتكون لاغية ، وحيث قد أقررتم بثبوت التحريف فى سبعة أو ثمانية مواضع فكيف يكون الإنجيل (الذى أصيب بالتحريف) صحيحاً وتؤمنون به وتدعون إليه .

وفى الجلسة الثانية (١١ أبريل ١٨٥٤) التى حضرها القسيس وليم كاين والقسيس هارفى وآخرون بعد أن سمعوا بأن المسلمين قد غلبوا القساوسة النصارى جرت المناظرة حول تحريف الإنجيل ولكن لوحظ أن القسس كانوا يتحدثون بمنطق ملتو ويحتدون فى المناقشة بغضب شديد وينطقون بكلمات تستفز الشيخ رحمة الله وتكشف شعورهم بانعدام حجتهم وضعف موقفهم ، وانتهت الجلسة بهزيمة القس (بفندر) والذين معه وامتنع القسيس عن الحضور لباقى الجلسات واكتفى بمراسلة الشيخ من (أول مايو ١٨٥٤ حتى ١١ أغسطس) وما رد بجواب مقنع مما دعا الدكتور وزير خان أن يتوجه برسالة إليه يقول فيها :

أولا : كان يجب عليكم الإجابة عن أسئلة الشيخ رحمة الله ثم بعد ذلك .

ثانياً : تلقون الإنجيل وراء ظهوركم لإقراركم بتحريفه ولا تمتنعون عن حضور جلسات المناظرة .

(أسباب امتناع القسيس عن حضور المناظرة بعد الجلسة الثانية)

حدث فى بداية انعقاد المناظرة الأولى أن أخذ الشيخ رحمة الله على نفسه عهداً أمام الحاضرين أنه إذا لم يستطع الإجابة عن أسئلة القسيس بفندر فسيلزم نفسه بقبول عقيدة النصرانية .

كما التزم بهذا الشرط وأخذه على عاتقه القسيس بفندر إذ أعلن بأنه إذا لم يستطع الإجابة فسيعتنق الإسلام .

فلما أثبت الشيخ رحمة الله فى مدة يومين فقط أن الإنجيل شابه التحريف وانتزع الاعتراف الصريح من القسيس المذكور أمام الحاضرين ، امتنع القسيس عن الحضور حتى لا تتكرر هزائمه فى باقى مواضيع المناظرة فيضطر إلى ترك دينه لذلك اكتفى من الغنيمة بالفرار من الميدان ليلعق جراح ذاته وجهله .

فلما سمعت رئاسة الكنيسة البروتستانية فى أوربا بما حدث لقسيسها بفندر من هزيمة محبته من بلاد الهند ، ولما ذهب إلى القسطنطينية أشاع كذباً أن علماء المسلمين فى بلاد الهند فشلوا فى مناظرته لهم مما أدى إلى انتصار النصرانية على دين الإسلام ، فانزعج السلطان العثمانى من تلك الشائعة وأرسل فى طلب الحقيقة من واليه بمكة المكرمة الذى كان يعلم أن الشيخ رحمة الله بعد فراره من بلاد الهند ولجأ إلى الأراضى الحجازية إثر احتلال القوات الإنجليزية للهند ومحاولة القبض عليه عند مقاومته لهم .

ولما عرف السلطان العثمانى بحقيقة ما دار فى المناظرة وتغلبه على القسيسين أرسل فى طلبه وبمجرد وصوله إلى مدينة القسطنطينية ترك القس بفندر بعثته التبشيرية وفر هارباً من هناك .

أما السلطان العثمانى فقد خرج لاستقبال الشيخ رحمة الله فى موكب رسمى واحتفى به حفاوة بالغة . وقد دعا فى حفل استقباله جميع علماء الدين فى قاعدة الخلافة وكبار رجال الدولة ، واستمع الجميع من فم الشيخ لتفاصيل ما دار فى مناظرته مع القسيس (بفندر) وكيف قاوم جيوش الغزو الإنجليزى فى بلاد الهند .

وسداً لباب الفتنة أمر السلطان العثمانى بالقبض على القسيسين الأجانب ومصادرة كتبهم وطردهم من البلاد .

ولما قام الهنود المسلمون بثورتهم الكبرى ضد شركة الهند الشرقية ١٨٥٧ التى انتهت باستئصال الحكم المغولى والقضاء على الحكومة الإسلامية واستيلاء الإنجليز على جميع البلاد ، كان من أول أعمالهم مجابهة الإسلام والمسلمين فقتلوا الألوف المؤلفة من خيرة علماء المسلمين المجاهدين .

هنالك ثار الشيخ رحمة الله على الإنجليز وقاومهم أشد المقاومة .

واستعمل الإنجليز الخديعة فاشتروا بعض المواطنين الخونة فانهزم المجاهدون المسلمون وفر الشيخ رحمة الله إلى مكة المكرمة ١٢٧٤ ﻫ — ١٨٥٨ م .

وصادر الإنجليز أملاكه انتقاماً منه ، وقام الشيخ بالتدريس فى المسجد الحرام وألف عديداً من الكتب فى نقد النصرانية والرد عليها .

(١) كتاب إظهار الحق : الذى يضم تفاصيل المناظرة التى سبقت الإشارة إليها .

(٢) كتاب إزالة الشكوك : يجيب على ٣٩ سؤالا .

(٣) كتاب إزالة الأوهام : باللغة الفارسية للرد على كتاب ميزان الحق الذى ألفه القسيس بافندر باللغة الفارسية .

(٤) أحسن الأحاديث فى إبطال التثليث .

تكلم فيه عن التثليث فى النصرانية وأبطله بالدلائل العقلية والنقلية .

(٥) كتاب البروق اللامعة :

أثبت فيه أن النبى محمد ﷺ مكتوب عنه فى التوراة والإنجيل .

(٦) كتاب التشبيهات فى إثبات الاحتياج إلى البعث والحشر .

الباب الثالث

الطلائع

(١) أمين الرافعى

(٢) عبد العزيز جاويش

(٣) مالك بن نبى

(٤) محمد أسد

(٥) ناصر الدين دينية

(٦) زكى على

الفصل الأول

(١)

أمين الرافعى

هذا رجل أمسك بقلمه مؤمناً بصدق النية الخالصة ليقول كلمة الحق ويحتمل في سبيلها كل ما تجنيه من متاعب وصعاب خالصة بها نفسه لا يبتغى من عرض الدنيا شيئاً فكان إعجوبة عصره وعلامة على أن هذه الأمة الإسلامية تقدم أنموذج الأمثل الذى يستمد منهجه من صميم الإسلام .

يقول فى عرض لكفاحه (٢٤ إبريل ١٩٢١) :

لقد قمنا بواجبنا الوطنى من يوم أن استطعنا إلى ذلك سبيلا وكنا عالمين حق العلم أننا سنلاقى فى هذا السبيل عقبات شديدة تسلبنا راحتنا وهناءنا وقد تؤدى بحياتنا نفسها ، كنا عالمين بذلك فلم نتردد ولم ننكص على أعقابنا بل آلينا على أنفسنا أن نتقبل بالإرتياح العام كل تضحية لأن الواجب بطبيعته يقتضى هذه المصلحة .

ولما قررت الحكومة الانجليزية بسط الحماية على مصر أبينا كل الإباء أن نكتب كلمة تحت هذا النظام أو بالاحتجاج عليها وآثرنا إقفال جريدتنا .

وطلب منا أن نستمر فى إصدارها وأن نسكت على النظام الجديد إن لم نحبذه وهددنا بأشد أنواع التهديد ، هددنا بالنفى وهددنا بالمشانق وهددنا باستخدام كل أنواع القوة ضدنا فلم يتزعزع إيماننا والحمد لله ، بل قلنا لمهددينا أنهم يملكون روحنا وينتزعونها من بين جنبينا ولكنهم لا يمكنهم أن ينتزعوا منا مبدأنا الذى

نلق الله عليه . وقد ظللنا مضطهدين أعواماً متعددة وادى احتفاظنا بمبدئنا إلى تحمل متاعب الاعتقال أشهراً طوالا ، كل ذلك بقصد التأثير فينا وزعزعة عقيدتنا الوطنية فلم ينالوا منا مأرباً ولم يزحزحونا قيد شعرة عن موقفنا .

وإذا كان موقفنا بالأمس فسيكون موقفنا اليوم وغداً وبعد غد حتى تنقطع صلتنا بهذه الحياة طالت أيامها أم قصرت فإننا لا نعبأ بحياة نحياها إلا إذا وقفناها على خدمة الوطن وفى سبيل الوطن ولا نعبأ بحياة إلا إذا كان قلمنا حراً نكتب ما عليه الضمير وما يرسمه القلب .

فنحن لانعبد إلا الله ولا نخضع إلا لضميرنا ، إما إذا كان معنى الحياة أن الغير يسيرنا وأننا نكون آلة فى يد كائن من كان فإننا نرفض هذه الحياة ونحتقرها لأننا ما عشنا إلا للحرية وما وهبنا حياتنا إلا لنكون أحراراً ، أحراراً فى عقائدنا ، أحراراً فى أفكارنا ، أحراراً فى آرائنا ، أحراراً فى خطتنا .

وإذا كانت حرية الرأى لم توجد فى كثير من البلاد إلا بعد أن ذهب فيها عدد كبير من الضحايا فلتكن هذه السطور أول ضحية لاحترام حرية الرأى المصرى .

نقول هذا لأن فريقا من حضرات الطلبة جاءوا إلينا وأراد بعضهم أن يحطم القلم فلا نكتب ما يمليه علينا ضميرنا وأراد البعض الآخر أن نكتب ما نشاء ولكن لاننشر لغيرنا ممن يؤيدون رأينا .

وكل هذا ضغط على حرية الرأى لم نقبله منهم ولن نقبله ولو تألب علينا العالم بأسره ، لأننا لو سلمنا لأنفسنا بأن نغير خطتنا اليوم تحت تأثير تهديد أو وعيد من طائفة من الناس فقد حكمنا على أنفسنا بأننا عبيد لفكرة غيرنا ، لا لفكرتنا ومتى كنا عبيداً لفكرة الغير فإن التهديد إذا جاء إلينا من طائفة أخرى ، إذا جاء إلينا من غير المصريين خضعنا له أيضا وبذلك نصبح أبواقا لغيرنا وقد كنا ولا نزال وسنبقى إلى الأبد بعيدين عن ضميرنا وحده ، ولا يقال

أن نشرك أحداً فى الضمير الذى به نحيا وبصوته نسترشد ، وبأمره نهتدى وفى سبيله نموت .

لقد قلنا لهم ونقول لكل من يريد تهديدنا ولكل من يوحى بهذا التهديد إننا نتقبل كل شيء فى سبيل الاحتفاظ بحرية رأينا وبحرية آراء من يؤيدنا فى موقفنا .

وإن كان هذا الاحتفاظ يضع حياتنا فى خطر ويعرض دماءنا لأن تسفك فسننادى بآخر قطرة من هذه الدماء بأن دخول الوفد فى المفاوضات قبل تعديل الأساس مضر بالقضية المصرية .

نعم : قلنا لهم ونقول لكل من تحدثه نفسه بأن يحملنا على زعزعة إيماننا الوطنى ، إن الأمر لو أدى بنا إلى المشنقة لصعدنا درجاتها مطمئنين مؤمنين دون أن نهتز لقطع صلتنا بهذه الحياة ما دمنا لم نفرط فى عقيدتنا ولم ننتهك حرمة حرية الرأى المقدسة .

إذن لا سبيل لأى قوة إنسانية على التحكم فى ضمائرنا ، لا سبيل لأى قوة على تغيير موقفنا ، وما دام هذا مبلغ إيماننا ، ما دامت هذه قوة عقيدتنا فليبحث الباحثون عن شخص آخر يقبل أن يسلم قياده لغير ضميره . أما نحن الذين لم نخضع فى أى وقت إلا لهذا النداء الصادر من أعماق قلبنا فلن نتحرك من مكاننا وسيظل صوتنا مرتفعاً لأن الواجب الوطنى يطالبنا بأن نرفع هذا الصوت إلى آخر نسمة فى حياتنا .

نحن نعتقد اعتقاداً جازماً صحيحاً أن الدخول فى المفاوضات الرسمية على الأساس المعروض من انجلترا مضر بقضيتنا ، فمن الإجرام أن نلجم أفواهنا ، ومن الإجرام أن نلتزم الصمت أو نقصر فى أداء الواجب .

* * *

هذه كلمات أمين الرافعى فى أخطر معاركه تتسم بالعزم والتصميم والمواجهة حيث وقعت بينه وبين سعد زغلول خصومة عنيفة بعد أن قبل استئناف المفاوضات مع انجلترا دون أن يفكر فى (تعديل الاساس) الذى ينبغى أن تقوم عليه المفاوضات وهو إلغاء الحماية البريطانية ورفع الاحكام العرفية وقبول الإنجليز للتحفظات المصرية ، وكلها أمور قال بها سعد زغلول قبل تولى الحكم .

* * *

لم تكن هذه معركته الاولى أو الاخيرة ، فقد رفض نشر إعلان حماية الإنجليز لمصر ، وآثر أن يغلق أبواب جريدته ولا يكتب حرفاً . وأغلق (الشعب) وهى فى قمة الانتشار ، ودعا الأمة إلى إعلان الحداد يوم ١٤ سبتمبر ١٩٠٩ احتجاجاً على الاحتلال فى ١٨٨٢ وأصدر اللواء مجللا بالسواد .

ثم أصدر الأخبار عام ١٩٢٢ وهو صاحب الفتاوى الدستورية الهامة وصاحب الرأى القانونى بعقد البرلمان فى فندق الكونتنتال فى ٢١ نوفمبر ١٩٢٥ .

* * *

وحمل على تصريح ٢٨ فبراير حملة شديدة لما تضمن من تحفظات ، ووصف هذه التحفظات بأنها ضمانات تهدم الاستقلال . وقال : إن احتفاظ انجلترا بصورة مطلقة بتولى هذه الامور إنما هو حكم الحيلولة الصريحة بين مصر وبين التمتع بحقها فى الاستقلال ، بل هو قضاء فعلى على مبدأ السيادة التى تتظاهر انجلترا بالاعتراف بها لمصر .

وعندما بدأت لجنة الدستور عملها طالب بأن من حق الامة أن تباشر وضع دستورها بواسطة جمعية وطنية تأسيسية تنتهجها الامة ، ودافع عن هذا الحق دفاعاً مجيداً .

* * *

وقاوم مشروع مد امتياز قناة السويس واشترك مع محمد فريد فى هذه الحملة التى امتدت من أكتوبر ١٩٠٩ إلى فبراير ١٩١٠ حيث هدم المشروع ورفضته الأغلبية البرلمانية .

* * *

عرف بأسلوبه المدعم بالحجج والمستندات والوثائق منذ تخرج فى كلية الحقوق عام ١٩٠٩ وانتظم فى تحرير اللواء ، وتحدث عن نظام التعليم فى مدرسة الحقوق وجناية الاحتلال الإنجليزى على التعليم العالمى فى مصر وما أصيب به فى عهد سيطرة الإنجليز فى نظارة مستر (هيل) بعد عهد دنلوب .

انتقل من العمل فى اللواء إلى العلم ١٩١٠ ثم الشعب .

« إننا نقول للقائمين بالأمر أن سياسة الشدة والاضطهاد لاتجدى نفعاً ولا تؤثر فى نفوس الأمة التى تنشد الحرية وتبغض الذل والاستبداد ، وكلما زادت الحكومة فى الضغط زادت الأمة قوة وبأساً ، وإذا استطاعت الحكومة تحطيم الأقلام وكم الأفواه فلن تستطيع أن تطفىء تلك العاطفة الوطنية الكامنة فى القلوب وبين الضلوع .

حمل على الخديو فى تصريحاته سنة ١٩١٠ لما تضمنته من إقرار المعتمد الإنجليزى على تدخله فى شئون مصر والطعن فى سياسة الحزب الوطنى العدائية نحو الإنجليز .

وحمل على تقرير الدون خورست وكشف الستار عن الحملة الإنجليزية المدبرة لمحاربة الحركة الوطنية بطريق الإرهاب ودافع عن حرية الصحافة دفاعاً مجيداً .

وحمل لواء المطالبة بالدستور .

* * *

كان أول من دعا إلى مقاطعة لجنة ملنر فى أنحاء القطر المصرى . ثم عارض الدخول فى المفاوضات مع الإنجليز إلا بعد تعديل الأساس ، واحتمل فى سبيل ذلك أشد العنف ، فلما نقل سعد زغلول إلى سيشل فى ديسمبر ١٩٢١ ، كان من أشد المدافعين عنه وعن رفاقه فى المنفى .

* * *

كانت حياة أمين الرافعى حتى وفاته فى **٢١** ديسمبر **١٩٢٧** خالصة لمصر وللحرية والكرامة ، وقد تعرض من أجل مبدأه للأخطار وآثر الفقر والاضطهاد وقد رفض فى سبيل ذلك الكثير من رغبات الساسة الذين كانوا يحاولون إغرائه بأن يضعوا تحت تصرفه ما يشاء من الأموال فى سبيل مسايرتهم فى مبادئهم .

كان طريقه فى تأدية الأمانة الصحفية ألا يقبل فيها إغراء ولا يراعى إلا ولا نسبا ولا كسباً ولا غنى فلم يخدعه زخرف الدنيا ولا مالها ، ولطالما عرضت عليه المناصب فكان يقول :

« إن مهمتى الوحيدة فى هذه الأمة أن أقول ما أعتقد وأن أقوله فى الصحافة » .



عبد العزيز جاويش

نموذج من الخلق الرفيع

يمثل الشيخ جاويش نموذجاً كريماً من النماذج الإسلامية فى ميدان العمل السياسى والصحفى والتربية ، شخصية مليئة اتصلت بالإمام محمد عبده ثم أتيح لها أن تسافر إلى اكسفورد وأن تحقق خطوات واسعة ، حتى إن كرومر وهو يحكم مصر ما كان يخشى قلماً مثلما كان يخشى قلم عبد العزيز جاويش الذى تعلم فى انجلترا واستطاع أن يكشف خططهم وأن يعرى مؤامراتهم .

واجه المستشرق الفرنسى مدير دار الكتب فى مؤتمر ١٩٠٥ عندما هاجم القرآن واللغة العربية ودحض شبهاته على نحو أعجز العلماء حين رأوا عمامة إسلامية تتكلم بالفرنسية وترد على سموم هذا المبشر الخطير ، حتى إنهم اصطلحوا معه على أن يرفعوا كلمات المستشرق فى مقابل عدم تسجيل رده ، هنالك دعاه (محمد فريد) خليفة مصطفى كامل أن يتولى إدارة صحيفة (اللواء) فلما تولاها ـ هى ومن بعدها (العلم) قاد حملة ضخمة على الاستعمار هز أركانه ، فابتكروا له من المؤامرات ليدخلوه السجن مرة ومرة وفى كل مرة كان يستقبله الشعب استقبال الفاتحين عند خروجه ، ثم كانت هجرته إلى ألمانيا وتركيا خلال الحرب العالمية الأولى ، حيث التقى هنالك بمصطفى كمال الذى كان يعد لإسقاط الخلافة والذى حاول أن يغريه بمنصب شيخ الإسلام على أن يفتى له بما يريد ولكن جاويش كان مستعلياً على متاع الدنيا راغباً فى نصره الإسلام .

يقول فى تقرير له : إنه لما كان فى اكسفورد بانكلترا خاطبه المرحوم مصطفى كامل أن يشتغل بالسياسة فى ١٩٠٥ فقبل وعاد إلى مصر ليستقيل ـ لا حباً فى المال ولا حسداً للغير ـ كان سعد زغلول إذ ذاك وزيراً المعارف فعرض عليه زيادة المرتب أو ترقية في الدرجة ولكنه اعتذر عن ذلك ومضى فى طريقه .

وكان أهم ما أزعجه ما شاهده من أعمال الإنجليز فى التعليم ولا سيما الدور الذى قام به المستر دنلوب ، وكان قد قدم له تقريراً عن مدرسة المعلمين (مدرسة عبد العزيز) يطالبه بأن يكون على نمط مدرسة المعلمين فى انجلترا ، وقد ناقشه دنلوب وقال له : كيف تريد أن تكون مدرسة المعلمين فى مصر على نظام مدرسة المعلمين فى لندن ؟ وكانت هذه أول صدمة له ، ولما جاءت الفرصة استقال واختار الطريق الذى يستطيع عن طريقه أن يقول ما يريد وهو الصحافة ، لحمل قلمه وانطلق ، وكان قد أحب مبادىء الحزب الوطنى وقال : إن الإنجليز ألقوا على المصريين آيات بينات ، جعله يعتقد أن هذا الحزب (حزب الله) الذى لا يغلب وقال إن العواطف قسمان : ضالة ومهتدية ، والثانية القائمة على البرهان العقلى ، أما الأولى فهى تقليدية وهى عواطف النساء .

يقول الشيخ جاويش : سياستى إسلامية : إن الشرق كله كتلة واحدة ولا يسلم منه جزء إلا بتماسكه مع الأجزاء الاخرى ، ولا يمكن لأمة أن تسلم إلا إذا اعتصمت باختها بمشاركتها فى حضارتها ، ومع ذلك فإن انكلترا على عظمتها وقوتها وسطوتها ومجدها وما لها من الأملاك التى لا تغرب عنها الشمس تمد يدها إلى باعة الإبل فى الحجاز وإلى من يحترفون ببيع الماء فيه وإلى قطاع الطرق الذى لا يملكون حتى جبة واحدة ، فأخذت تعاهدهم وتؤلف لها قوة حتى بطشت بتلك الدولة التى صارعت ٢٧ دولة .

إن تفكك عرى الاتحاد بين الهندوس لاختلاف مذاهبهم جعلهم أضعف من المسلمين ، مع أن الهندوس ٢٢٠ مليون والمسلمين ٧٠ مليونا ، ولكن الإسلام سلاح قوى يربط ما بين الشعوب الإسلامية ، ولذلك أعتقد أن الإسلام قوة يجب الانتفاع بها ، وأنا أفاخر بأن سياستى إسلامية .

ونحن خصوم المفاوضات لأسباب عدة :

أولا : ليس بيننا وبين الإنجليز خصومه ، إنهم مخطئون ونحن نطالبهم بالجلاء

إن المفاوضة مع الإنجليز مفاوضة الأسد مع الفريسة ، ودرع مصر أن تكون القضية المصرية دولية .

• • •

التحق عبد العزيز جاويش بالأزهر ١٨٩٢ وكان زميله فى الدراسة حسن منصور المدرس بدار العلوم فيما بعد ، أمضى عاماً وبضعة أشهر فى الأزهر ، حضر دروس الشيخ محمد عبده ومجالسه الخاصة فى عين شمس ، وتردد على صحيفة المؤيد وشهد ندواتها ، والتحق بدار العلوم .

وعين عقب تخرجه مدرس بمدرسة الزراعة ١٣١٥ هـ ١٨٩٧ م . وما لبث أن اختير موفداً إلى انجلترا ليدرس بجامعة بورورد ، فأمضى بين جدرانها ثلاث سنوات وتولى منصب مفتش بوزارة المعارف ، ثم أعير عام ١٩٠٢ إلى جامعة أكسفورد لتدريس اللغة العربية والعلوم الإسلامية قضى بها خمس سنوات ، من مؤلفاته : (الإسلام دين الفطرة) — (أثر القرآن فى تحرير الفكر البشرى) ، (مرشد المعلمين) .

وقد دعى وهو يعمل فى اكسفورد لحضور مؤتمر المستشرقين بالجزائر عام ١٩٠٥ حيث التقى بالزعيم محمد فريد .

وقد بهر أعضاء المؤتمر بحججه القاطعة وبراهينه الساطعة فى رده على بحث المستشرق الألمانى فولريس الذى كان مديراً لدار الكتب المصرية ، وكان فى مبحثه يطعن فى بلاغة القرآن الكريم ، فانبرى له جاويش مفنداً مزاعمه مبيناً كراهيته وجهله للغة العربية وبلاغتها ضارباً الأمثلة العديدة على أن القرآن كتاب الله المعجز ببلاغته وليس فى طوق الإنس والجن أن يأتوا بسورة من مثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

ولم يجد فولريس بعد أن خسر المعركة أن يطالب بسحب بحثه من ملفات المؤتمر على شرط أن يحذف من المحاضر ردود الشيخ جاويش الذى وافق على ذلك كما وافق المؤتمر .

وفى جلسات المؤتمر تصدى للمستشرق الإنجليزى مرجليوث (عميد كلية أكسفورد إذ ذاك) فدحض أباطيل ساقها فى كتاب ألفه باسم (ارتفاع الإسلام) أما فى وزارة المعارف بمصر فقد طالب بإلغاء بعض الكتب التى رأى فيها ما يمس الإســلام ووقف أمام دنلوب معارضاً سياسته التعليمية حتى استقال من منصبه وتفرغ لرئاسة تحرير اللواء ، وقد كتب أربعة مقالات ملتهبة بعنوان (ظلموك ياسعد) وجهها إلى وزير المعارف إذ ذاك محذراً من أعمال دنلوب مستشار الوزارة والذى كان صاحب الأمر المطلق فيها .

وقد اختار الاستانة منفى له عام ١٩١٢ بعد أن أخذ الاستعمار يصفى أنصار الحزب الوطنى ويعد المسرح لسعد زغلول .

ولما تولى مصطفى كمال السلطة بعث إلى جاويش يستقدمه إلى أنقرة ليعهد إليه برئاسة لجنة الثقافة الإسلامية ، ولكنه أحس فى لقائه باتجاهات خطيرة ، ألمح عنها مصطفى كمال فيما يتعلق بالخلافة الإسلامية وإعلان دولة علمانية وإلغاء الحكم بالشريعة الإسلامية .

وحاول الشيخ جاويش إقناع أتاتورك بخطورة هذا فلم ينجح وتوقع شراً مستطيراً نتيجة موقفه فقرر مغادرة تركيا على الفور ، ولكنه لم يصل إلى مصر إلا عام ١٩٢٣ .

وكانت الدنيا قد تغيرت فعمل فى وزارة المعارف ورأس التعليم الابتدائى ، ولكنه ظل محافظاً على كرامته فلم يقبل أن يكون تابعاً للنفوذ الأجنبى حتى توفى فى يناير ١٩٢٩) .

رحمه الله رحمة واسعة .

مالك بن نبي

تأصيل قواعد النهضـــة

يمكن القول أن مالك بن نبي هو ثمرة يانعـة من ثمار مدرسة عبد الحميد بن باديس مع اختلاف قليل فى الأساليب ، فمدرسة بن باديس ومدرسة مالك بن نبي على حد تعبير (عبد الوهاب حمودة) تسيران نحو غاية واحدة ولهما صيغة واحدة هى الصبغة الإسلامية ، ولكنهما يختلفان فى المنهج والأسلوب ، وإذا انتشرت من خلال جهود جمعية العلماء فى الأوساط الشعبية الذين اقتفوا أثر ابن باديس فإنه يمكن أن نعزو الأثر فى المجال الجامعى إلى جهود ابن نبي الذى كان له إلى جانب ذلك كتابات فى الصحافة وتآليف عديدة .

فقد عنى بن باديس بالأوساط الشعبية وعنى باللغة العربية ، أما مالك بن نبي فقد وجه جهده إلى الجامعيين الناطقين باللغة الفرنسية من شبابنا وكان يعلمنا كيف نستعمل أذهاننا فى مجابهة من يخالفنا فى العقيدة بحجج عصرية وبلغة عصرية ، أى إنه أعطى الطالب السـلاح لمواجهة من يقف فى وجهه ونزع عنا العقد النفسية حتى أصبحنا نتحدث ونناقش كبار علماء الغرب وبلغتهم لا نجد رؤوسنا إلا عالية أمامهم وكان رحمه الله يتجه إلى المدارس الثانوية خاصة فى شهر رمضان فيعقد أمسيات علمية مع رجال الغد .

وكان بحثه عن (الظاهرة القرآنية) بعيد الأثر فى الشبيبة الجزائرية التى تقرأ الفرنسية حتى استطاع أن يثبت إيمانهم ، فقد عمل على أن يشرح للشباب إعجاز القرآن الكريم بأسلوب علمى تحليلى دقيق ».

ونضيف إلى هذا أن هذا الكتاب وسائر مؤلفات مالك بن نبي أفادت الشباب المسلم فى المشرق العربى عندما ترجمها الدكتور عبد الصبور شاهين ونشرت باللغة

العربية خلال إقامة مالك بن نبي في القاهرة حيث اتسع نطاق تعرفه إلى بيان اللغة العربية وكتب بها في السنوات الأخيرة لأول مرة .

* * *

وكانت لمالك بن نبي تجربته المريرة مع النفوذ الأجنبي وخاصة عندما سافر إلى فرنسا ليكمل تعليمه في مجال الهندسة وعمل المستشرقون على احتوائه فعجزوا عن ذلك ، فقد كان عميق الإيمان ، غير طامع في مطامع التغريب التي كان يقدمها لكل من يبعثون إلى الغرب ليعودوا خداماً له في بلادهم ، وأمام إصرار (مالك ابن نبي) وعجز النفوذ الاستعماري على احتوائه عوقب في أهله وجماعته المقيمة في الجزائر ، وحيل بينه وبين جوانب من العلم كان يريد الحصول عليها ليحارب بها النفوذ الأجنبي .

ولكن صموده وإصراره وصدق إيمانه بربه تبارك وتعالى فتح له الآفاق فأصبح من قادة الفكر الإسلامي ، ليس في الجزائر وحدها ولكن في العالم الإسلامي كله .

ومن هنا كان منهجه الفكري بالغ الدقة بعد أن اطلع على فكر الغرب وقارن بينه وبين مفاهيم الإسلام .

* * *

يقول :

« إن كل تغيير اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي يكون دوماً تابعاً لتغيير أدبي في النفوس بحيث لا نتصور أن عملية تغيير من النوع السياسي أو الاجتماعي قد تتأتى في جو من الفتور والخمول حتى ولو توفرت من الناحية الفنية المجردة بما نسميه بشروط الانتقال وربما وجدنا في هذه الاعتبارات العامة ما وضح لنا المعنى الذي يشير إليه عز وجل في قوله المحكم :

(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

معنى هذا الأساس جدير بنا أن نتأمل بالنسبة للعالم الإسلامي في أي شروط يتأتى بها انتقاله من حالته الراهنة إلى حالة أضمن لمصالحه وأسعد لحياته .

إذن فالأمر يقتضي تغيير الجو النفسي الذي يعيش فيه مسلمو اليوم وهو متنقل بضميره من كارثة وأخرى .

هذه الكوارث التي إن عبرت عن شيء فإنما تعبر عن فتور وخمول في حياة المسلمين اليوم ، هذا الفتور لا يمكن تفسيره بدوره ، إلا على أن المسلم لا يجد في مجال حياته الشخصية والجماعية المبررات الكبرى التي تهز المجتمعات في الساعات السانحة لما يؤديه لها أو أن الانتقال من حالة استسلام إلى حالة رسالة تخاطب بها نفسها أولا والإنسانية ثانياً .

فالقضية اليوم منحصرة في إيجاد المبررات الجديدة التي تجدد في المسلم الشعور بالطموح والرسالة ، شعوراً يجعله ينظر إلى نفسه كصاحب رسالة وإلى غيره كمنقذ مثلما كان أيام عمر حين أرسل وفده إلى رستم قائد كسرى فنراه يخاطبه خطاب الند للند بل أكثر ، يخاطبه خطاب الإنسان الملهم الذي يعمل من أجل تخليص خصومه أنفسهم .

• • •

ويتحدث عن مصير المجتمع الإسلامي فيقول : إنه مصير واحد بالرغم من الاختلافات الشكلية التي يخدع بها المسلم أحياناً عندما يواجه مشكلات البلاد الإسلامية ويضفي عليها الطابع المحلي ، كما أن مصير المجتمع العربي واحد متحد ، بما فيه الاتحاد السوفيتي رغم الاختلاف المذهبي العميق .

إن إحدى النتائج التي تبين إلى حد كبير مستقبل العالم الإسلامي ، أن النتيجة صادرة من الصدمة التي صدم بها الضمير الإسلامي عندما شاهد مظاهر التقدم خارج البلاد الإسلامية ومظاهر التخلف داخلها أثرت منذ أكثر من أربعين سنة في تكوين الزوابع السياسية التي اجتاحت القارة الوسطى متخذة أحياناً صورة (اللائكية) مثل الصورة التي عهدتها تركيا مع كمال باشا أو أحياناً أخرى

فى صورة ردود فعل عقائدية عميقة ، غير أن النتيجة الحاسمة حيث إنها لم تزل منذ نصف قرن تكون كل التطورات السياسية الأخلاقية فى العالم الإسلامى فى صورة عملية استدراك لا زالت تحمل بين طياتها مجهولا خطيراً سوف يجليه التاريخ .

• • •

ما فرض الاستعمار رقابته على الحياة الدينية إلا لعلمه أن الدين وحده هو الوسيلة النهائية لتصحيح أخلاق الشعب الذى فقد فى غمار أزمة تاريخية كل هم أخلاقى .

وإذا كنا نجد اليوم شيئاً يدوى فى جوانب النفس الإنسانية فيردها قادرة على تغيير ذاتها والتخلى عن جمودها فلن يكون ذلك الشىء سوى الإسلام ، لذلك لم تفلت هذه القوة الباعثة من تهجم الاستعمار ففرض عليها القيود .

• • •

إن ثورة الجزائر بدأت من جبال أوراس (مقاطعة إسلامية) تعتز بإسلامها وعروبتها ، وكانت العقيدة الإسلامية هى المحرك الدافع الكبير للتيار الثورى الجزائرى .

وجبال أوراس التى انطلقت منها الثورة كانت متمسكة بدينها أشد التمسك ، فكان من الطبيعى أن يفكر الاستعمار فى فكرة نقل الثورة من يد هؤلاء القوم ليسلمها إلى أيدى من يتقرب إليه عن وعى وغير وعى ، وذلك بطريقة تكوينه الثقافى أو بطريق العمالة ، كما وقع فى جميع البلاد الإسلامية .

محمد أسد (ليوبولدفايس)

الإســـلام على مفترق الطرق

كان إسلام محمد أسد وانتقاله إلى دين التوحيد وكتابته عن المقارنة بين الإسلام وحضارة الغرب عاملا هاماً من عوامل إرساء قواعد صحيحة لفهم الإسلام فى صورته الحقيقية وفى توضيح منطلقه الحقيقى ، وذلك على النحو الذى قدمه كتابه (الإسلام على مفترق الطرق) .

ما هو الموقف الذى يجب أن يتخذه المسلمون تجاه المدنية الأوربية ؟إن الأمر الذى حيرنى هو التباعد بين واقع المسلمين وبين ماضيهم حين كانوا يطبقون الإسلام تطبيقاً عملياً . إننى أبحث عن السبب الذى دفع المسلمين إلى محو تطبيق التعاليم الإسلامية تطبيقاً تاماً على الحياة الحقيقية .

وقد وجدت أن الإسلام كل لا يتجزأ ، وبناء متكامل يشد بعضه بعضاً ، فالإسلام على مايبدو لى بناء تام الصنعة وكل أجزائه قد صنعت ليتمم بعضها بعضاً فليس هناك شىء لا حاجة إليه ، وليس هناك نقص فى شىء فينتج عن ذلك ائتلاف متزن مرصوص .

إن الإسلام من وجهته الروحية والاجتماعية لايزال بالرغم من جميع العقبات التى خلفها تأخر المسلمين أعظم قوة نهاضة بالهمم عرفها البشر ، وإذا كان الإسلام يمثل فلكاً ثقافياً مستقلا ونظاماً اجتماعياً واضح الحدود ، فإن امتداد أى مدنية اجتماعية بشعاعها إلينا لا ينبغى أن يقابل بالقبول والتسليم وإنما ينبغى علينا أن نتبين لأنفسنا إذا كان هذا الأثر الأجنبى يجرى فى اتجاه ثقافتنا أو يعارضها ، وهل يفعل فى جسم الثقافة الإسلامية فعل المصل المجدد للقوى أو فعل السم .

إن الاتجاه الدينى فى الإنسان هو نتاج طبيعى لأحواله النقلية والحيوية ،

والإنسان لايستطيع أن يكشف لنفسه غوامض الحياة ، والعلوم المادية والطبيعية لا تستطيع أن تقدم تفسيراً كاملا لها ، لأن مجال الغيبيات خارج عن نطاقها ، ومن ثم يبقى الدين وحده هو القادر على تقديم التفسير الكامل للحياة لأنه يهدى الإنسان فى كثير من الأحيان عن طريق الحدس والوجدان لقبول تفسير الحياة تفسيراً شاملا مبنياً على الاعتقاد بأن هناك قوة مبدعة سامية تدير هذا العالم على أمر قد قدر ، ولكن الإحاطة بما وراء طاقة الفهم البشرى يخلق شعوراً نفسياً عميقاً فى النفس البشرية هو شعور السكينة والطمأنينة والذى يتميز به المؤمن من الجاحد .

* * *

وميزة الإسلام على الأديان تبدو فى أنه لا يصل بالإنسان إلى الهدف السامى عن طريق رفض الحياة ، أو عن طريق تقشف يفتح به الإنسان باباً سرياً إلى التطهر الروحى ، أذ أن هذا أمر غريب فى الإسلام ، لأن الإسلام نهج من الحياة حسب قوانين الطبيعة التى سنها الله (تبارك وتعالى) لخلقه ، وهى قوانين توفق وتوازن بين الوجهتين الروحية والمادية فى الحياة الإنسانية ، وهى وجهتان لا انفصال بينهما فى الإسلام لأنهما يكونان كلا واحداً متسقاً . ومن هنا يبدو الفارق بين الإسلام وبين التعاليم الروحية التى تدعو إلى إماتة النزعات الجسدية ليتحقق الكمال ، وهى بذلك تعطل كل ما فى الحياة من ماديات سخرها الله (تبارك وتعالى) للإنسان لكى يعمر بها الدنيا التى ينتقل عبرها إلى أخراه : هذه هى ميزة الإسلام على سواه .

وإذا كان الإسلام لايلغى المادة من أجل الروح ، فإنه من جانب آخر لا يجعل هذه المادة هدفاً وغاية ، وإنما هى واسطة الى غاية فقط ، ان النجاح المادى أمر مرغوب فيه ولكنه ليس غاية فى نفسه لأن الغاية من كل نشاط مادى عملى هى غاية خلقية تعمل على ترقية الفضائل فى البشر .

ولكى نفهم الإسلام يجب أن نفهم الغرب .

أما روح الغرب فقد سيطرت على وجوه نشاطه وجهوده اعتبارات من

الانتفاع المادى . وهدفه اكتشاف أسرار الحياة من غير أن ينسب الى تلك الحياة حقيقة أدبية فى ذاته، وان كان هذا معنى عدم الغاء المادة كما هو فى الإسلام ، الا أن الإسلام مع ذلك لا يلغى الروح أو لا ينظر اليها على أنها لا علاقة لها بالجانب المادى فى بناء الحياة الإنسانية ، ان الرقى المادى والرقى الروحى فى نظر الغرب الحديث وجهان من الحياة الإنسانية مختلفان تماماً وليس لأحدهما بالآخر علاقة ما لا سلباً ولا ايجاباً .

ان (المادية الغربية الحديثة) لا تخضع الا لمقتضيات اقتصادية واجتماعية أو يومية ، ومن هنا فإن معبودها الحقيقى ليس من نوع روحانى وانما هو مجسد فى أى جانب من هذه الجوانب المادية البحتة ، وبالمقارنة يظهر بوضوح أن القوة الباطنة والتماسك الاجتماعى فى الإسلام كانا أرقى من كل شىء ، خبرة العالم عن طريق التنظيم الاجتماعى خلقت هذا الأساس [تعاليم القرآن وسنة الرسول] فأصبحت اطاراً من القوى حول ذلك البناء الاجتماعى العظيم ، فالغرب يرى فى الدين عرفاً اجتماعياً ويترك الأخلاق المطلقة خارج الاعتبارات المادية ، ولا يجعل للمواقف الروحية مكاناً فى نظامها الفكرى ويميل الأوربى الى أن ينسب الأهمية المادية فقط الى تلك الأفكار التى تقع فى نطاق العلوم التجريبية ، أو تلك التى تؤثر فى صلات الإنسان الاجتماعية بطريقة ملموسة ، ونتيجة لذلك فإن الفضائل التى تتفق مباشرة برفاهية المجتمع المادية مثل الوطن والشعور القومى والقدرة الفنية ، هى موضع المديح . أما الفضائل الخلقية الخالصة كالحب الأبوى والعقائد فإنها تخسر من قيمتها بسرعة لأنها لا تهب المجتمع فائدة مادية محسوسة ، ومن ثم فقدت مشاعر الأبوة والنبوة وشاع الانحلال التدريجى فى العلاقات الإنسانية .

ولكن هذا لا يمنع المسلمين من أخذ كل نشاط مادى قادم من الغرب فى ميدان العلوم المجردة والعلوم التجريبية ، ولكن صلاتهم الثقافية يجب أن تبدأ عند هذا الحد وتنتهى عنده ، أما أن يخطو المسلمون الى أبعد من ذلك أو أن يقلدوا المدنية الغربية فى روحها وأسلوب حياتها وفى تنظيماتها الاجتماعية فهو المستحيل .

وتتسم نظرة الغرب بأمرين : (١) فقدان التجانس الروحى .

(٢) روح العداء الكامنة التى يكنها الغرب للإسلام ويؤيد ذلك التجارب التاريخية التى اصطنعت بعداوة غربية للإسلام وموقف الغرب (من الإسلام) ليس موقف كره فى غير مبالاة كما هو موقفه من سائر الأديان والثقافات بل هو كره عميق الجذور يقوم فى الأكثر على صدور من التعصب الشديد ، هذا الكره ليس عقلياً فقط وإنما هو كره يصطبغ بصبغة عاطفية قوية تظهر فى كتابات كثير من المستشرقين الذين يتعرضون لتعاليم الإسلام ، وكان من أثر ذلك تكوين صورة مشوهة للإسلام .

والسبب البارز لهذا العداء يرجع إلى الاصطدام العنيف الأول بين أوربا المتحدة من جانب وبين الإسلام من الجانب الآخر فى تلك الحروب الصليبية والتى بقيت آثارها كامنة فى تقسيم الشعب الأوربى إلى الفظائع المروعة التى اقترفها الصليبيون فى البلاد التى اجتاحوها ثم شردوها لقد تسمم العقل الأوربى بما شوهه قادة الأوربيين من تعاليم الإسلام ومثله العليا أمام الجموع الجاهلية فى الغرب . وإذا كانت أوربا استفادت من عصر النهضة فائدة كبرى من المصادر الإسلامية والعربية على الأخص فإنها مع ذلك لم تعترف بهذا الجميل ، لقد نمت البغضاء مع تقدم الزمن ثم استحالت عادة .

(٣) إن أولئك الذين يرون أن المدنية الأوربية هى الأداة الوحيدة لإحياء الحضارة الإسلامية الراكدة ، إن هؤلاء يدخلون الضعف على ثقتهم بأنفسهم ، ذلك لأن تنشئة الأجيال الحديثة على هذا الزعم سوف يؤدى بهم حتماً إلى زعزعة إرادتهم فى أن يعتقدوا أو ينظروا إلى أنفسهم على أنهم يمثلوا الحضارة الخالصة التى جاء بها الإسلام ، إن العقيدة الدينية اضمحلت سريعاً فى نفوس أولئك الذين نشأوا وتربوا على أسس غربية بحتة ، ليس معنى هذا أننا نعادى العلم الحديث فهذا زعم لا سند له ، وفى القرآن دعوة متكررة إلى إعمال العقل والفكر ، والى التعلم ، وتاريخ الإسلام كله شاهد عملى على تنفيذ ما دعا اليه القرآن الكريم ، فالإسلام لم يكن يوماً يكره التقدم والعلم .

ولكن الشيء الوحيد الذى لا يستطيع المسلمون أن يتمنوه هو أن ينظروا

بعيون غربية ويرو الآراء الغربية ، وأن يبدلوا بحضارة الإسلام الروحية تجارب مادية من أوروبا ، وأن الشيء الممكن هو أن ندرس العلوم وأن ندرسها من غير أن نخضع خضوعاً يسرقنا للاتجاه العقلي في الغرب .

الباب يكون مفتوحاً أمام العلوم الطبيعية والرياضيات وأن يكون ذلك في المرتبة الأولى ، أما الادب الاوربي فإنه على النحو الذي يدرس به في البلاد الإسلامية يجعل الإسلام غريباً بين أهله خاصة في عيون الناشئة ، وما يقال عن الأدب الاوربي يقال عن التاريخ الاوربي ، اذ أنه يخلق في نفس الجو الفكري الذي يعلي من شأن الغرب بينما يهون من شأن سائر الشعوب .

وعلينا أن نحترس في مجال التربية والتثقيف من الجو الفكري للمدنية الغربية ، ان بعض عادات الغرب وزيه في الحياة يصبح المسلمون به تدريجياً مضطرين الى الاخذ بوجهة النظر الغربية .

(٤) أما التقليد : تقليد المسلمين فرادى وجماعات لطريقة الحياة الغربية فإنه يعد من أعظم الاخطار التي تستهدف لها الحضارة الإسلامية : هذا التقليد نشأ بسبب قنوط المسلمين الذين رأوا القوة المادية في الغرب ثم وازنوا بينها وبين الحالة المؤسفة في بيئتهم الحاضرة إذ قد نشأ عند بعضهم اعتقاد خاطيء مؤداه أن النظام الإسلامي في الاجتماع والاقتصاد لا يتفق مع مقتضيات التقدم ، فيجب من أجل ذلك أن يحور حسب الأسس الغربية .

وهنا خطأ الاعتقاد بأن تقليد المدنية الغربية هو المخرج الوحيد من واقع التفكك الإسلامي . إن موطن الخطر في تقليد الغرب لا يكمن في الاشياء التي تقلد فحسب، بل انه يكمن كذلك في اقتباس الآراء والمثل العليا الغربية فهو يقطع بالتدريج تلك الصلات التي تربط العالم الاسلامي بماضيه، ومن هنا فإنه يفقد شخصيته الثقافية الى جانب انه سينتهي الى أن يفقد أساسه الروحي اذا ظل سائراً في طريق التقليد . إن المشكلة اليوم هي مشكلة مسافر وصل الى مفترق طرق ، انه يستطيع أن يظل واقفاً مكانه على مفترق الطرق اما نحو المدنية الغربية أو الى حقيقة الإسلام .

(٢)

محمد أسد

الطريق إلى الإسلام

تأثرت بالإسلام منذ عام ١٩٢٦ أى منذ ستين عاماً ، وكما يعرف أصدقائى فأنا أذيع وأنشر وأكتب أبحاثاً عن الإسلام إلا أنى أقدم عدداً صغيراً من الكتب .

* ترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغة الألمانية .

* الطريق إلى مكة — أى طريق إلى الإسلام عندما أسلمت عام ١٩٢٢ ترجم إلى إحدى عشرة لغة وسمى (الطريق إلى الإسلام) .

* الإسلام على مفترق الطرق .

* أسس الدولة فى الإسلام .

كان تأثرى بالإسلام حينما ذهبت عام ١٩٢٣ مراسلا لأكبر صحيفة ألمانية إلى مصر وسوريا وتركيا ، ووقعت أسيراً فى حب العرب ولم أكن أعرف الإسلام بعد .

وفى سنة ١٩٢٤ أرسلونى فى رحلة استمرت أكثر من سنتين ، ذهبت إلى سوريا والعراق وأفغانستان ووسط آسيا وعدت عن طريق روسيا السوفيتية نهاية عام ١٩٢٦ .

حدث شىء هام فى حياتى ، بدأت أفكر فى هؤلاء الناس الذين قابلتهم وما هى أفكارهم وعقائدهم وكيف يعيشون وبدأت إقرأ ترجمة القرآن الكريم لأن لغتى

العربية كانت ضعيفة إذ ذاك ، وفى عام ٩٢٥ كنت مسافراً على ظهر حصان فى أفغانستان عابراً أقصى جبال العالم إرتفاعاً ومعي رفيقان : أحدهما كان خادماً لصديق لى فى كابول والآخر كان تاجراً ، قابلت حاكم المنطقة الذى حدثنى عن أشياء كثيرة ثم حدثنى عن الإسلام .

قلت له : إنكم تؤمنون بدين رائع ولديكم قدوة فائقة فى نبيكم محمد ، ولكنكم لا تتبعون لا دينكم ولا رسولكم ولا تسلكون السلوك الذى يهدى إليه القرآن فالفساد يعم كل البلاد الإسلامية والإسلام يحرم هذا .

قال لى الرجل : أنت مسلم ولكنك لا تعرف هذا ، وسوف تعرفه فى يوم من الأيام .

وحين أدركت أن القرآن من عند الله تعالى وليس من صنع بشر ، ذهبت فأعلنت إسلامى أمام شيخ وسألته عن الطقوس أو الرسميات التى يجب أن أقوم بها حتى أصبح مسلماً فضحك الرجل وقال :

لا شيء قط ، أعطنى يدك اليمنى فقدمت له يدى فقال : قل أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فلما قلت ذلك قال لى : الآن أنت أصبحت مسلماً .

ومنذ ذلك اليوم أصبحت مسلماً وبقيت على مدى الستين عاماً المتعاقبة موقناً بأننى كنت صائباً فى إعتناق الاسلام وأن الله (تبارك وتعالى) قد أعاننى على صياغة حياتى من جديد خلال هذه الأعوام الستين .

أتحدث كثيراً عن اللغات وقد كان لهذه اللغات أثر على فى القراءة وأنا صغير فقد قرأت وأنا فى سن الثالثة عشرة لنيتشه ، كان شاعراً أكثر منه فيلسوف وكانت أفكاره إذ تصور نيتشه فى السوبرمان بعيدة عن الاسلام فالاسلام يتطلب من كل إنسان أن يطور قدراته العقلية والجسدية ولكن السوبرمان عند نيتشه يصبح متفوقاً بفعل الاكتمال الذى أتى ، وهذا ما اختلفت فيه مع نيتشه منذ مدة بعيدة .

لم أقرأ لكارل ماركس ولكننى قرأت عنه وعن أعماله فى العشرينات حيث كانت فكرة الشيوعية تعم العالم بأسره ، أن ما ذهب إليه ماركس هو العدالة الاجتماعية ولكن العدالة الاجتماعية يتم تحريمها بحجب الفرد فى المجتمع، فالشيوعية تجعل الفرد مجرد جزء من المجتمع ، فقطعة يتم طحنها فى آلة ولا يظل الفرد باقياً محتفظاً بحقوقه ، يظل جزءاً من المجتمع، فى هذا الاطار يتبنى كارل ماركس نظريته فى العدالة الاجتماعية .

وفى الاسلام يخاطب الله تبارك وتعالى الانسان مباشرة ، (يا أيها الذين آمنوا) المؤمنون والمؤمنات ، وإنما تجد مخاطبة الانسان فالاسلام يهدف إلى العدالة الاجتماعية من خلال شخصية الأفراد ، الاسلام تطوير كامل للصفات الشخصية للأفراد ، والذين يتسنى تسخير قدراتهم لاقامة عدالة اجتماعية على عكس ذلك فالماركسية تسحق الأفراد .

س : سارتر موقفك منه ؟

ج : بعيد جداً فالاسلام بعيد جداً عن أى فكرة أو أيدلوجية أخرى فهو مختلف تماماً وفى كتبى تحذير ضد إستخدام التصورات والتعبيرات الاوروبية الغربية فيما يتعلق بالاسلام ، فالاسلام لديه تعبيراته الفنية الخاصة وتصوره الكامل وغير المتواجد فى أى شىء آخر فالاسلام وحدة متكاملة متحدة وليس مثله من شىء على الاطلاق .

* * *

أما مشكلة المسلمين اليوم فإنهم تخلوا عن قدراتهم الابداعية وأصبحوا مقلدين منذ قرون وليس اليوم فقط أو أمس ، أصبحوا يتسوقون الأفكار من أوروبا تماماً كما يشترون من هناك الأشياء ويكتفون بإعادة وترديد الصيغ وفقدوا كل إبداعهم ، وهذا سبب رئيسي فى المشاكل التى يواجهونها ، لقد تفوق الاسلام فى

كل المجالات فى القرون الأولى ببساطة شديدة لأن المسلمين الأوائل فى القرون الثلاثة أو الأربعة الأولى من الإسلام حيث انتشرت الآداب والفنون والعلوم ، لأنه كان هناك إبداع فريد ، ولا يتواجد الآن فى المجتمعات الإسلامية ، ذلك لأن الطفل داخل هذه المجتمعات الآن ينشأ على أن يقلد وليس على أن يبدع وهذا هو الخطر .

(ثانياً) : ليس لدى المسلمين شيء يعتمدون عليه سوى القانون الإسلامى والآخرون لديهم قوانينهم ، والمسلمون كمجتمع ليس لديهم شيئاً يجعلهم مجتمعاً أو يعطيهم أفكاراً عامة ، سوى الدين الذى نص القرآن عليه والسنة ، لدينا الحق ينبعث من القرآن والسنة والشريعة التى هى دستور المسلمين فى حياتهم والعامل الوحيد لقوة الإسلام فى حياة المجتمع ، يجب أن يكون مفهوماً من كل الناس .

ويعتقد أغلب الناس أن الشريعة والفقه مترادفان لمعنى واحد ، أو أن الشريعة جزء من الفقه أو الفقه جزء من الشريعة ، وفى رأيى أن الشريعة تقوم أساساً على نصوص القرآن والسنة فقط وهذه النصوص لا تقبل الإلتباس ، إفعل هذا أو لا تفعل ذاك وهذا حسن وهذا سيء .

وأن العرب يتصورون خطأ أن القرآن ميراث لهم من الآباء والأجداد وهذا ليس صحيحاً لأن الإسلام لكل الناس وكما ذكر القرآن الكريم (لقوم يتفكرون) .

وأنصح الشباب المسلم بعدم تقليد المجتمع الغربى وفى نفس الوقت أنصحهم لا يدينوا كل شيء أنجبته الحضارة الغربية ، ذلك الانجاز الذى هو حق لكل البشرية وخاصة الانتاج العلمى الغربى فلا يوجد علم أو علوم غربية وعلوم إنسانية فالعلم هو العلم ، فالحضارات يتم بنؤها على أسس علمية مأخوذة من حضارات سابقة فالحضارة الغربية مبنية على الحضارة الاغريقية والرومانية والاسلامية واستطاع الغربيون أن يحققوا إبداعات أكثر وأكثر فى سبيل التقدم .

وقد انتقدت إتخاذ المسلمين العادات الغربية والمؤسسات الغربية ولكن هذا لا ينطبق على العلم .

ولا ننسى قول الرسول ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » هناك شيئان لابد من التفريق بينهما من ناحية المجتمع الغربي (١) طريقة التعليم . (٢) ومنهج التفكير . وهما جيدان أما طريقة الحياة فهي مخالفة تماماً للإسلام .

ونصيحتي للمسلمين في الغرب : « إعرفوا ماذا جاءت به تعاليم الاسلام وليس ما قال لكم المستشرقون عنه لأنهم دعاة الصليبية الحديثة ، كونوا مسلمين على (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) وليس على التفسيرات الرومانتيكية أو الصوفية بالمفهوم الغربي .

وعلى إسرائيل أن تعلم أنه لا يتم بناء شيء على الظلم ، واليهود تعرضوا لسوء المعاملة ، ولكن ليس على يد العرب ولكنهم أساءوا إلى العرب بسرقة أرضهم فليس صحيح إطلاقاً أن الفلسطينيين جاءوا إلى فلسطين على يد العرب بعد الإسلام فالفلسطينيون العرب عاشوا في فلسطين قبل مجيء موسى إلى فلسطين ، وبالتالي فهناك الآن أيضاً عرب فلسطين ، ففلسطين هي أرض الفلسطينيين حتى قبل مجيء اليهود ، وهي أرضهم ولم يخرجوا منها إلى يومنا هذا ولم يغادروها أبداً على مدى التاريخ .

الفرق الوحيد أنهم كانوا سادة في أرضهم قبل الاحتلال الصهيوني ، ولكنهم الآن في المعتقلات .

* * *

وبعد فقد أقامت قصة إسلام محمد أسد الدليل على أن غير المسلم أياً كانت ديانته - إذا أزال عن عينيه غشاوة الحقد والتعصب أن يعرف الإسلام كأيدلوجية دينية واجتماعية أرقى كثيراً من جميع المفاهيم والمعتقدات الأوروبية ، وقد كان محمد أسد في مقدمة الغربيين الذين كشفوا عن فساد الحضارة الغربية ولا أخلاقياتها وانهزامها أمام الفطرة و العلم والدين الحق في الوقت الذي كان كثير من العلمانيين المسلمين يسابقون الريح في طريق التغريب .

وقال محمد أسد أن فكرة إعتناق الإسلام كانت بالنسبة له أشبه بمغامرة إقتحام جسر يصل بين هوة بين عالمين مختلفين جسر طويل إذا وصل إلى طرفه الاخر فتستحيل العودة .

وكان أشد ما آلمه ألماً شديداً تلك المفارقة بين الإسلام كنهج وواقع المسلمين لأن كل ما كان فى الإسلام تقدماً وحيوية أصبح بين المسلمين تراخياً وركوداً ولكنه رغم خيبة أمله لم يتأثر وقد استطاع أن يحطم كل القيود وأن يصل إلى ضوء الإسلام الساطع .

مفهوم الإسلام كما حدده محمد أسد

(١) =

ثانياً : الإسلام منهج حياة يتفق مع قوانين الطبيعة التى سنها الله تبارك وتعالى توفق بين الحياة المادية والأشواق التوجيه توفيقاً تاماً .

ثالثاً : إمكان بلوغ الإنسان الكمال فى إطار الحياة الدنيا (وهى خصيصة يتميز بها الإسلام دون سائر الدعوات الأخرى) فالإسلام لا يؤجل بلوغ الكمال إلى ما بعد إماتة النوازع البشرية والشهوات الجسدية كما تفعل النصرانية ولا هو يعد سلسلة متلاحقة من تناسخ الأرواح على مراتب متدرجة كما هو الحال فى الهندوكية . ولا هو يعتبر أن الكمال والنجاة لا يتمان إلا بعد إعدام النفس الجزئية كما ترى فى البوذية .

رابعاً : والإله المعبود عند المسلمين هو الله تبارك وتعالى رب العالمين وليس إلهاً قبلياً على النحو الذى نراه فى العهد القديم أو التلمود عند اليهود .

خامساً : والإنسان فى ظل الإسلام يستطيع بلوغ الكمال فى حدود قدرات البشر عن طرق الاستفادة من وجوه الإمكانيات المتاحة له فى الدنيا ، والكمال المقصود هو تحسين الصفات الإيجابية التى أودعها الله تبارك وتعالى فى الإنسان على نحو يتفق مع الفطرة السليمة ولا يتعارض مع السنن الكونية .

سادساً : يقر الإسلام المواهب فى الأفراد وقدراتهم فتتفاوت لذلك درجات الكمال ومراتبه وأنواعه فكل ميسر لما خلق له ويترك الإسلام المسلم

---

(١) تلخيص (منار محمد رمضان) .

مجالا واسعاً فى حياته الشخصية والاجتماعية لكى يشكل تبعاً لمواهبه وقدراته واستعداده الفطرى ، أى أن الإنسان المسلم مكلف باتباع ما أمر الله بصدق وإخلاص وله بعد ذلك أن يتخير ما يشاء من الوجوه المشروعة وأن يستخرج من نفسه أحسن ما فيها .

سابعاً : حرية الاختيار فى الإسلام تقوم على مبدأ الأصل فى طبيعة الإنسان الخير أما الفساد الذى يعتريه فقد جاء فى مرحلة تالية من أثر الجحود وانتكاس الفطرة السليمة على أنه من الممكن أن يستعيد بقاءه . وصلاحه إذا رجع إلى ربه وأناب وأدرك بوعيه الكامل خلال خالقه ورحمته والالتزام بشريعته .

ثامناً : ليس فى الإسلام غفران شامل أو جماعى أو فداء أو خلاص على النحو المعروف فى المسيحية ولكن (كل نفس بما كسبت رهينة) ، (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) أى أن هناك مسئولية شخصية .

تاسعاً : الإسلام لا يشارك المسيحية فى رفض الحياة الدنيا التى تدل عليه الرهبانية ولكن يعلمنا ألا نعلق عليها أهمية مبالغاً فيها على نحو ما تفعل المدنية الغربية الحاضرة . على الرغم من إدعائها بأنها تدين بالمسيحية فالإسلام ينظر إلى الحياة الدنيا بهدوء واحترام ولكنه لا يعبدها ولا يحتقرها ، إنه يراها مزرعة للآخرة وممراً ضرورياً فى طريقنا إلى الوجود الأسمى .

وما دامت مرحلة ضرورية فلا معنى لأن يحتقرها أو يبخسها حقها لحياة الإنسان فى الدنيا قيمة ، لأنها جزء إيجابى من تدبير الله تبارك وتعالى وتقديره العظيم ، علينا فقط أن نراها (واسطة) لبلوغ غاية ، وليس غاية فى حد ذاتها ، لا نبالغ فى تقدير قيمتها على نحو ما يفعل الرجل الأوروبى ، الذى شعاره مملكتى فى هذا العلم وحده ولا يحتقرها وينبذها كلية ويترهب على نحو ما يفعل الناسك النصرانى الذى شعاره (مملكتى ليست فى هذا العالم) .

فالإسلام يتخير طريقاً وسطاً بين هذا وذاك .

ومن هنا علمنا القرآن الكريم أن نتوجه إلى الله تبارك وتعالى بهذا الدعاء :

(ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) .

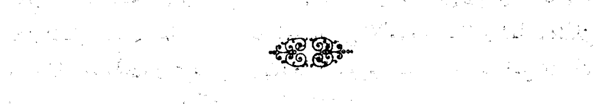
عاشراً : المسلم لا يعيش لنفسه فقط وإنما هو مسئول عن إشاعة الخير بين الناس وإقرار الحق وإزهاق الباطل فى كل زمان ومكان ، ومصداق ذلك قوله تعالى :

(كنتم خير أمة أخرجت للناس) الآية .

= إشاعة الخير أى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

<u>الفتوح الإسلامية :</u>

التبرير الأدبى للفتوحات الإسلامية : فلم يهدف المسلمون من ورائها السيطرة أو القهر أو المصالح الاقتصادية أو بسط النفوذ السياسى أو استعباد الشعوب وإذلالها من أجل إسعاد الغزاة على النحو الذى نراه فى الاستعمار الغربى بجميع ألوانه ، ولم يهدف المسلمون إكراه أبناء الشعوب المغلوبة على الدخول فى الإسلام وإنما كان هدفهم الوحيد إيجاد إطار عملى لأحسن ما يمكن من التطور الروحى وحرية العقيدة فى ظل المبدأ الإسلامى الخالد (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) .



ناصر الدين دينيه الفنان الفرنسي

كيف اكتشف الإســـلام

إن الشخصية التي حملها محمد ﷺ بين بردية كانت خارقة للعادة ، وكانت ذات أثر عظيم جداً حتى أنها طبعت شريعته بطابع قوى جعل لها روح الإبداع وأعطاها صفة الشيء الجديد ، وتلك هي الأمم الإسلامية على اختلاف جنسياتها وبلدانها ، قد طبعها الإسلام بطابعه الواضح المحسوس ، بل إن آثاره لا تزال باقية في أهل أسبانيا وإن كانوا قد ارتدوا عنه منذ خمسة قرون .

على أن المجادلين في ديننا والطامعين كلما أرادوا الطعن فينا يتساءلون عما جاء به الإسلام جديداً عما جاء من قبل .

إن للإسلام عقيدة التوحيد الإلهية العليا وله تلك المبادىء السامية التي تقوم على تلك العقيدة .

• إن نبي الإسلام هو الوحيد من أصحاب الديانات التي لم يعتمد في إتمام رسالته على المعجزات وليست عمدته الكبرى إلا بلاغة التنزيل الحكيم ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

(وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون)

• إن القرآن الكريم دون الكتب المقدسة الأخرى هو الكتاب الوحيد الذي يأمر بالرفق والإحسان في الدين .

قال تعالى (لا إكراه في الدين) .

ومن الحقائق التاريخية أن النبي ﷺ أعطى أهل نجران المسيحيين نصف

مسجده ليقيموا فيه شعائرهم الدينية . زد على ذلك أن المسلمين يحملون لعيسى عليه السلام فى نفوسهم التبجيل والتعظيم .

(٣) رفع النبى محمد ﷺ قدر العلم إلى أعظم الدرجات وأعلى المراتب وجعله من أول واجبات المسلم ، وفى ذلك يقول (اطلبوا العلم ولو فى الصين) .

(يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء) .

كذلك فإنه ليس بين الله تبارك وتعالى وبين عباده وسيط ، وليس فى الإسلام قساوسة ولا رهبان ، فالمسلم يدعو الله وحده لا شريك له .

(٤) إن الفروسية لم يكن يعرفها الأقدمون من اليونان والرومان ولكنها كانت معروفة عند العرب أيام جاهليتهم ، ثم هذبها الإسلام وطهرها تطهيراً وعلى يده دخلت أوربا ووصلت إلينا نحن الغربيين . قال بارتلمى سان هيلار « إنه إلى العرب يرجع الفضل على سادات أوربا وفرسانها فى القرون الوسطى فى تعديل عاداتهم الخشنة وتلطيفها ، ثم تعليمهم رقة العاطفة وتهذيب نفوسهم والرفعة بها إلى حيث الإنسانية والنبل ، وقد حفظ لنا التاريخ فى سجلاته عن فروسية العرب وروحها العالية جميع أدلة العظمة الموشاة بالرقة والتهذيب ، وقد ذكر منها الكثير (واصف باشا بطرس غالى) فى كتابه « فروسية العرب المتوارثة » .

(٥) لا يتمرد الإسلام على الطبيعة التى لا تغلب وإنما هو يساير قوانينها ويزامل أزماتها فلا يفرض على الإنسان الحرمان من زينتها ، وهو يدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولا وأسهل تطبيقاً فى إصلاح ونظام ، ولقد سمى القرآن لذلك بالهدى لأنه المرشد إلى أقوم مسالك الحياة ، ولأنه الدال على أحسن مقاصد الخير .

إن تعدد الزوجات قانون طبيعى وسيبقى ما بقى العالم ، ومن هنا فإن هذه الأمراض الاجتماعية ذات السيئات الأخلاقية لم تكن تعرف فى البلاد التى طبقت فيها الشريعة الإسلامية تمام التطبيق .

(٦) لقد حقق القرآن معجزة لا يستطيع أعظم المجامع العلمية أن يقوم بها ، ذلك أنه مكن للغة العربيه فى الارض بحيث لو عاد أحد أصحاب الرسول ﷺ إلينا لكان ميسوراً له أن يتفاهم تمام التفاهم مع المتعلمين من أهل اللغه العربيه ، بل لما وجد صعوبة تذكر للتخاطب مع الشعوب الناطقة بالضاد ، وهذا عكس ما يجده مثلا (رابايه) من أهل القرن الخامس عشر الذى هو أقرب إلينا من عصر القرآن من الصعوبة فى مخاطبة العديد الأكبر من فرنسى اليوم .

إن لغة القرآن وإن كانت تمت فى أصولها إلى عصور بعيدة قديمة فهى مرنة طيعة تسع التعبير عن كل ما يجد من المكتشفات والمخترعات الحديثة دون أن تفقد شيئاً من رونقها وسلامتها .

(٧) لقد شعر القوم بروح الجمال تستهوي نفوسهم ، إذا ما تتلى عليهم آيات القرآن الحكيم ، حتى كان من أثر ذلك أن استنبطوا منه الخط وأخذوا يكتبون كلام الله الكريم فى أشكال جميلة مزخرفة ذات رسوم وخطوط بديعة الرواء كان لها فيما بعد أكبر الأثر فى فن العمارة وفى غيرها من الفنون .

(٨) إن الحركات والإشارات فى الصلاة الإسلامية هى ذات بساطة ولطافة ونبالة لم يسبق لها مثيل من نوعها فى صلاة غيرها ، كما أنها لا تدعو الوجوه بالتظاهر والتكلف ولا العيون بالشخوص إلى السماء واستنزال الدموع ، حقاً إن الصلاة الإسلامية خالية من تلك الأمور الشائنة ، وهى ذات دلالة على الرزانة والهدوء والاطمئنان ، وهى خالية من مبالغات الورع وتكلفات الخضوع والتظاهر بذلك ، مما هو غريب فى العبادات لأن الله سبحانه وتعالى عليم بما فى الصدور وهو الغنى العزيز .

وحركات الصلاة الإسلاميه فوق [illegible] التام عما تحمل نفوس المؤمنين من العاطفة النبيلة نحو المولى الكريم تقوم للجسم بأعظم مزايا الحركات الرياضية ، أضف إلى ذلك حكمة الوضوء الذى يسبق كل صلاة ففيها للبدن انتعاش وصحة ونظافة .

(٩) إن العقيدة الإسلامية لا تقف عقبة فى سبيل التفكير . فقد يكون المرء مجيبح الإسلام وفى الوقت نفسه حر الفكر .

وكما أن الإسلام قد صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات وجميع درجات المدنيات ، وللإسلام على النفوس طابع لا يمحى ، قال الكونت دى كاستري :

إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى ليس فيه مرتدون .

• • •

تلك كلمات موجزة من رسالة هذا الفنان العالمى الفرنسى إيتان دينيه الذى أسلم بعد أن اتصل بمسلمى الجزائر وعاش بينهم طويلا وتعرف على الإسلام بوحى كلماته بمدى عمق إيمانه بالله تبارك وتعالى وبالإسلام ، وهى كلمات وجهها فى رسالة تحت عنوان :

BAYONS DE PUMIERE ISLAMIQUE

(أشعة خاصة بنور الإسـلام)

وجهها الأوربيون ليفهموا حقيقة الإسلام ، وإنك لتجد هذا الفنان المسلم واسع الاطلاع صحيح الحجة ناهض البرهان كما وصفه الأستاذ راشد رستم مترجم الرسالة إلى اللغة العربية .



الدكتور زكي علي

خمسون عاماً في خدمة الإسلام في الغرب

يقول الدكتور زكي علي في مقدمة كتابه (الإسلام في العالم) المطبوع في لاهور ١٩٣٨ باللغة الإنجليزية في مكتبة الشيخ محمد أشرف في سوق كاشميري (والذي أعيد طبعه في الستينيات مرة أخرى في عام ١٩٦١) :

غادرت مصر إلى أوربا لأول مرة في بعثة طبية وقد كنت موظفاً كطبيب امتياز وطبيب تخدير في مستشفى قصر العيني بالقاهرة ، ولم أكن أتوقع أنه ستتاح لي رغبة عنيفة لمسائل أخرى غير الطب ، غير أني اكتشفت أن في أوروبا جهلاً عميقاً وعدم إدراك الإسلام ، ذلك الدين الذي أؤمن به ، وألفيت أن العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامي في حالة من المرض الشديد تستاهل بحث أسبابها ومعالجته منذ ذلك التاريخ .

والدكتور زكي علي مقيم بين النمسا وسويسرا ، وهو في جينيف منذ سكنها الأمير شكيب أرسلان وكان ساعده الأيمن في خطته لخدمة قضايا العرب والمسلمين في الغرب . وكان ثالثهم على الغاياني صاحب جريدة « منبر الشرق » .

وقد أقام الدكتور زكي علي منذ ذلك الحين وما زال - أطال الله بقاءه - يحمل قلمه في سبيل دعوة الله ، ولقد كان كتابه (الإسلام في العالم) هو دعامة عمله ، فقد كتبه باللغة الإنجليزية ونشره في آفاق البلاد الهندية الإسلامية رغبة في توصيل هذه الحقائق إلى المسلمين من غير العرب ، ولم يتوقف عمله عند هذا الحد ، بل إنه حرر الرسائل وكتب الفصول الضافية وأذاع في إذاعات الغرب الكثير عن الحضارة الإسلامية وما قدمته للبشرية وخاصة في ميدانه الأصيل : ميدان الطب ، وقدم الإسلام للكثيرين الذين دخلوا فيه أمثال الدكتور عبد الكريم جرمانوس ،

وكان من أصدقائه الغربيين الذين دخلوا الإسلام الدكتور خالد شلدريك وصحفي مسلم كبير في النمسا الآن زار البلاد العربية منذ سنوات . وإذا تصفحت الدوريات في الثلاثينات والأربعينيات وجدت إنتاجاً وافراً في صحيفة البلاغ المصرية والرسالة والفتح .

يقول العلامة محمد لطفي جمعه (مجلة الرابطة العربية) في التعريف بكتابه الإسلام في العالم :

لم يضع كاتب حديث ولا قديم بلغة غير لغته كتاباً على هذا النمط العالى كما صنع الدكتور زكي على نزيل جنيف وخادم العلم والوطن والملة ، وإذا كان هذا الرجل الفذ لا يزال في منتصف العقد الرابع ، كما علمنا من بعض عارفيه الثقاة فلا يعلم إلا الله ما يصل إليه بعد عشرين سنة من الدرس والتحصيل والتنقيب والتأليف فهو يمتاز قبل كل شيء بالصدق والأمانة في النقل ، كما يظهر ذلك جلياً في الفصلين اللذين عقدهما لحضارة الإسلام والتوسع الإسلام وامتداد نفوذه ، ويمتاز بخلة ثانية نفيسة وهى قدرته على سرعة الإلمام بحقائق العلم ووقائع التاريخ وسرولة اهتضامها وصياغتها في أفضل قالب وأبلغه وأوضحه .

وقد سبق له أن كتب في الطب في الإسلام وذكر من نبغوا من أطباء العرب في مصر والشام والعراق والأندلس وعواصمها القاهرة ودمشق وبغداد وقرطبة وطليطلة ، ولم تكن مراجع الطبيب المؤلف مقصورة على ماكتبه العرب أمثال ابن أبي أصيبعة (جمال الدين) في معاجم العلماء (عيون الأنباء) إلخ ، ولقد رجع إلى مدونات مخطوطة ومحفوظة في مكاتب أكسفورد وباريس وفرنسيا ومدريد وسالرنو ، وفيرنزه وغيرها من مراكز الحضارة التي أفادت من علوم العرب في القرون الوسطى .

وذكر أن كثيرين من علماء أوربا سواء في انجلترا وفي إيطاليا وفرنسا تركوا أوطانهم وهاجروا إلى الأندلس ليتعلموا اللغة العربية ويغترفوا علوم العربية

التى كانت شائعة كالطب والرياضيات والكيمياء واللوغاريتم (وأصل الإسم نسبة إلى الخوارمى) ولم يهمل الاستفادة من مصادر قديمة محترمة مثل لويس فياردوت وكوسان وبرسيفال وسيديو ، من العلماء الإفرنج الذين نزحوا إلى بلاد الأندلس ليتعلموا على أيدى العرب ألفونسى نيروس الفونسى (١٠٦٢ م) فتخرج فى الطب وعاد إلى انجلترا فعينه الملك هنرى الأول طبيباً ثم تلاه ان بلارو الحامى.

إن الدكتور زكى على مؤلف كتاب « الإســلام فى العالم » لم يرم إلى تمجيد الإسلام وحسب ، بل رمى إلى حل مشاكله المعاصرة ، فقد شرح النضال الحامى بين الشرق والغرب فى فصل ممتع ألم فيه بكل ما يهم العرب أن يعرفوه عن تاريخ النزاع بينهم وبين أوربا المجتاحة الغاضبه.

وفى الحق إن هذا النضال من أغرب حوادث التاريخ الحديث ، فإن آسيا وإفريقيه إذا صح التشبيه تزاوجا وأنتجا فتاة طائشة قاسية هى أوربا ، تلك القارة الغشوم الطامعة التى قابلت والديها بنكران الجميل والجحود المطلق ، فهذه آسيا قد قدمت للعالم سلسلة من الحضارات العريقة فى المجد والتقدم كالحضارة الأكادية والشمرية والبابلية والآشورية واليمنية والهندية والصينية ، كما قدمت للإنسانية جميع الأديان المشهورة كالبوذية والبرهمية واليهودية والنصرانية والإسلام ، وأبرزت آسيا العلوم والفنون والآداب ، وفى إفريقيا قامت حضارة بذت سائر الحضارات هذه إفريقيا وفضلها على العالم التى اجتاحتها أوربا ووصفتها بأنها القارة السوداء واقتسمتها فيما بينها كالغنيمة الباردة ، وكان أعظم الكيد والغيظ والحقد الذى يغلى فى صدور أوربا هو ما أفرغته ضد العرب والإسلام منذ الحروب الصليبية إلى وقتنا هذا.

وهكذا أضاف الدكتور زكى على إلى الأدب العالمى والبحث التاريخى ثروة جديدة بهذا الكتاب النادر الثمين.

وبعد فقد قدم الدكتور زكى على فى كتابه (الإسلام فى العالم) مفهوم الإسلام الصحيح للغرب بأوسع لغات الغرب انتشاراً : قدمه على نحو بارع حيث

تقدم الرسول والقرآن ومنهج المجتمع والدولة فى معرفة حقيقية لنظام الإسلام . يقول : لا بد لدراسة هذا الدين وتفهم مراميه من تفهم حياة صاحبه ، وفائدة ذلك أنه يربط للقارىء بين المظاهر العامة والذاتية فى حياة الرجل الذى حمل عبء الرسالة وأداه صادقاً أميناً ، وكان فى حياته الخاصه والعامه المثل الكامل للإنسان الفاضل ، والصورة الواضحة الحق للرسول والنبى المبعوث ، وما كان ينطق عن الهوى (إن هو إلا وحي يوحي علمه شديد القوى) .

فالإسلام من حيث هو دين ونظام اجتماعي يربط بين الطبقات ويوحد بينها ويتجه بمراميها إلى الغاية المنشودة من الرسالة ، ويتجلى طابع الإسلام الحق وجوهره الخالص من كل زيف أو شائبة فى القرآن الكريم : الذى اشتمل على مبادىء القانون الإسلامى العام : فهو قانون لدين اجتماعى مدنى تجارى حربى فقهى خلقى تشريعى سياسى .

وهو بعد ذلك كتاب له تأثيره الدائم فى أذهان المؤمنين الذين هيهات أن ينتكب بهم الطريق لو أنهم ثابروا على اقتفاء خطاه وأوامره ، وليس فى هذا الكتاب ما يناقض العقل بل إنه ليشجع الإجتهاد والتخريج .

ويمضى فى رسم الأيدلوجية الكاملة للإسلام فيتحدث عن نظام الحكومة والدولة فى الإسلام . ويقول إنها من النواحى الهامة فى تاريخ هذا الدين مما كان له أثره البعيد فى آسيا وإفريقيا فيتعرض للجزية والزكاة والخراج ، وهى الأسس الاقتصادية التى تقوم عليها الحكومة فى الدول الإسلامية . والجهاد حرب دينية دفاعية والجهاد شرعاً الحرب فى سبيل الدين والذب عن حياضه وإدخال القوم الجاحدين في شريعته ، ومن ثم فإن النظام الإسلامى فى غاية بجهوده أن يمد يد العون للنوع البشرى ليوفر له أسباب الراحة الروحية ويرقى به فى سبيل الكمال والسعادة .

وقد عرض الدكتور زكى لآراء الغربيين فى الإسلام عرضاً دقيقاً واستخلص من شتى كتاباتهم عن الإسلام ما يدحض كل شبهة تحاك فى نفس أحدهم ، فهو يرى

أن النظام الدينى والاجتماعى فى الإسلام ليس بالضيق أو ما يشتم منه رائحة التزمت والجمود بل إنه فى جوهره مرن بل إنه يعمل على النهوض بالحياة الإنسانية وقد أعلن المؤلف إنه لا يستطاع الفصل بين السياسة والدين بل إنهما يتعاونان معاً فى ميادين الاستقلال الإقتصادى والسياسى والاجتماعى .

كما تحدث عن حادثى الغزو التتارى والحروب الصليبية وأثرهما على الإسلام ، وتحدث عن الصراع بين الشرق والغرب . وقد جاء هذا التلخيص مما سجله الدكتور حسن حبشى فى بحثه القيم عن الكتاب . هذا وقد مضى الدكتور زكى على على طريقه هذا فكتب بعد أكثر من عشرين عاماً باللغة الفرنسية كتابه الذى أحدث ضجة كبرى فى عالم الغرب :

(هذه الشعوب البيضاء)

وهكذا فإن الدكتور زكى على منذ هاجر فى سبيل الله إلى الغرب لغير مغنم دنيوى أو مطمح مادى ، فقد أقام يعمل فى سبيل كلمة الإسلام ، حريصاً على إطلاع الغربيين على محاسن الإسلام واطلاع أهل الإسلام على ما وطل هنالك من أبحاث ودراسات ، كما عقد مع صحبة المجاهدين عدداً من المؤتمرات فى سبيل التعرف بالمسلمين المقيمين فى أوربا والعمل فى الدفاع عن قضايا البلاد العربية والإسلام وعرض قضاياهم فى المحافل الدولية وخاصة فى جنيف التى كانت ولا تزال مركزاً سياسياً وعالمياً .

• • •

وإذا كان الدكتور زكى على قد عاش فى الغرب خادماً للدعوة الإسلامية فإنه لم يتوقف عن مراسلة من يأنس فيهم الخير لتوجيه أنظارهم إلى الحقائق .

وما زال شأنه فى ذلك شأن الأمير شكيب أرسلان يطالع كل ما ينشر فى الغرب ويبدى وجهة نظر الإسلام فيه ، وقد حفلت مجلة الفتح التى كان يصدرها السيد محب الدين الخطيب بعديد من أبحاثه وملاحظاته حول الإسلام فى الغرب

بل لقد شارك فى المؤتمرات التى عقدت لمسلمى أوربا للتعارف وجمع الشمل فضلا عن محاضراته فى إذاعات فينا وجنيف عن الإسلام وحضارته ومآثره على الحضارة الغربية ، وقد عرف الشرقيين فى الفترة الأخيرة بالكاتبة الألمانية (أنا مارى شميل) التى لم يترجم لها بعد أى أثر إلى العربية ودورها فى الإنصاف لحضارة الإسلام والتعريف به فى الغرب ، وإن كنا نعتذر عنه فى وصف هؤلاء بالمستشرقين ، وإنما نحن نعتبرهم من العلماء المنصفين وننضمهم إلى أمثال دراير وجوستاف لوبون وكارليل والدكتورة سجريد هونكه الذين اعترفوا بفضل الحضارة الإسلامية على الغرب ، وكاتبتنا هذه إنما يبدو إنها تعرفت عن الإسلام عن طريق مسلمى الباكستان والهند فهى معنية بالشاعر إقبال والزعيم جناح وإن كانت لها دراسات عن ابن خلدون وفن الخط العربى والإسلام فى شبه القارة الهندية الباكستانية ، وكذلك بحثها الممتاز عن الإسلام دين التوحيد والوحدة ، وإشارتها إلى أن القرآن هو المعجزة الكبرى للنبى ﷺ .

وهكذا تتواصل آثار الدكتور زكى على ويستمر إنتاجه على مدى الأيام فى قوة وحيوية ، آنس الله وحدته وأدام عليه الصحة والعافية .

حاشيــــة :

(٥ رمضان ١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢ م)

كتب الدكتور زكى على فى إحدى رسائله المقيم منذ أربعين عاماً فى جنيف فى سنة ١٩٥٠ فى إحدى رسائله : ظهر كتابى الصغير بالفرنسية واللغة العربية فى العالم وترجم إلى العربية تباعاً فى مجلة الأنوار المغربية التى كانت تصدر فى تطوان (المغرب) وفى ١٩٥١ وصلنى خطاب من جمهورية بيرو بانتخابى عضواً شرفياً فى أكاديمية الدراسات الإسلامية فى ليما عاصمة بيرو .

وفى سنة ١٩٥١ جاءتنى رسائل متتالية من مدير الأكاديمية للدراسات الآسيوية فى سان فرانسسكو يرشحونى فيها أستاذاً لتاريخ الإسلام والمدنية الإسلامية ،

ولكنى رغم إلحاحهم فضلت البقاء فى سويسرا .

فى ١٩٥٤ ظهرت الطبعة الثانية المزيدة من كتابى الصغير (لمحات فى الإسلام) بالإنجليزية ، وخلال ١٩٥٠ — ١٩٥٥ أرسلت سلسلة مقالات إسلامية إلى المجلة الإسلامية ISLAMIC التى كان يصدرها الشيخ محمد أشرف صاحب دار النشر فى لاهور الباكستان .

ومن ١٩٤٧ إلى ١٩٥٥ نشرت لى صحيفة نهضة العرب فى ديترويت بأمريكا سلسلة مقالات عن معظم البلاد العربية من جهة النظر الإسلامية ، وآخر مقال كان عن بعض آثار لم تنشر للأمير سكيب أرسلان منها دفاتر بخطه عنوانها (القول الفصل فى رد الفاعل إلى الأصل) وكانت الدفاتر عندى وقد أعطيتها قبل شهور إلى سعودى هنا تكفل بإرسالها إلى ناشر سعودى على أمل طبعها ونشرها .

وخلال الخمسينات أيضاً نشرت لى مجلة إسلامية تصدر بالفرنسية فى باريس مقالات إسلامية ترجم منها إلى التركية وإلى الإنجليزية فى مجلات إسلامية بهذه اللغات .

عبد الكريم جرمانوس رغم تقريظه الرائع لكتابى الإسلام فى العالم لم يكن وفياً لى كصديق رحمه الله .

محمود سالم بك العرفانى كان صديقاً حميماً لى ، وهو الذى كان أسس جماعة التقارب الإسلامى ، وكانت زوجته الفرنسية مسلمة واسمها عائشة ، وكان فيما قبل سفره إلى باريس مهاجراً من مصر قاضياً فى المحاكم المختلطة ، رحمه الله رحمة واسعة كان براً بى مخلصاً لى .

ثم أيضاً سنة ١٩٥٢ نشر لى نقد لقاموس عصرى ألمانى للمستشرق الألمانى هانزفير ، وخلال الستينات كان تفرغى التام لإعدادكتابى الفرنسى .

(. هذه هى الشعوب البيضاء .)

كذلك نشرت بعض رسائل تشجيع لأصحاب صحف عربية ذات نزعة إسلامية فى المهاجر من جريده الفطرة فى بونس إرس فى الأرجنتين .

وأيضاً نشرت لى فى الخمسينات مقالات بالفرنسية عن التربية الإسلامية وترجمته إلى التركية فى مجلة إسمها (العالم الدينى) اهـ . هذا وقد كان ذلك كله رداً على رسالة لى إليه عن نشاطه الفكرى فى فترة الخمسينات .

وكان الدكتور زكى على قد أرسلته الحكومة المصرية إلى فرنسا للتخصص فلما أتم تحصيله ونال الشهادة بتقدير عظيم طلب الالتحاق بمستشفى فينا حيث أسس الجمعية الإسلامية ورفض الرجوع إلى مصر فأنذرته الحكومة بإلغاء بعثته إن لم يعد ، فآثر الخدمة الدينية العامة على الخدمة الذاتية ، وبقى هناك مثابراً على الدعوة الإسلامية ، فدخل فى دين الإسلام على يديه كثير من الخلق وفى مقدمتهم الدكتور عبد الكريم جرمانوس .

وكان هناك رفيقاً للأمير شكيب أرسلان حيث نقل مسكنته إلى جنيف ليكونا معاً ، وكان فى جنيف فى تلك الفترة أيضا الشيخ على الغاياتى .

الرابطة الإسلامية أسسها فى بودابست عام ١٩٣٢م تحت رمز تعاون المسلمين فى أوربا .

ترجم كتاب (الله أكبر) لجرمانوس بعد أن أعلن إسلامه .
له أبحاث عن الطب الإسلامى .

وقد أقام فى جنيف على الرغم مما يقاسيه من شظف العيش وخشونة الحياة ، وما زال مثابراً على نشاطه .

يقول فى إحدى رسائله :

(ويمكنك أن تتصور المحنة والشقاء الذى أعانيه إذا علمت إنى قضيت يوم عيد الفطر ولم أتناول سوى الخبز الجاف وكان غذائى هو غذاء الروح من الإيمان الصادق والصبر والثبات لألقى حظية الافتتاح وأحيى الضيوف المتساويين .

وقد حضرت جمعاً : جمع العجمى والأفغانى والمصرى والسورى والتركى إلخ إلخ .

الباب الرابع

الأمناء

(١) أمين الحسيني

(٢) شكيب أرسلان

الفصل الأول

(١)

أمين الحسيني

لم يكن أحد أخبر بوقائع التاريخ وخطوات المؤامرة على مسرى رسول الله ومعرفة أبعاد القضية من هذا الرجل المؤمن الواثق بنصر الله تبارك وتعالى والذى ظل يعمل فى كفاءة ونضال دائبين خلال أكثر من خمسين عاما منذ توليه منصب مفتى القدس ١٩٢١ إلى وفاته فى يوليو ١٩٧٤ على نحو شهد به الأعداء . حتى قال وايزمان فى مذكراته (التجربة والخطأ) :

إن مقاومة الفلسطينيين العنيفة ومواقف السيد أمين الحسينى هى التى أخرت تنفيذ البرنامج اليهودي فى فلسطين إلى عام ١٩٤٨ بينما كان مقرراً أن يتحقق عام ١٩٣٤ على الأكثر فقد حاول الإنجليز التفاهم معه على التقسيم على أساس تقرير لجنة بيل فرفض فى عناد وحاولوا إغرائه بأن يكون رئيس القسم العربى فى فلسطين فقال لهم :

إنى أعارض مبدأ التقسيم لضرره على البلاد وهدمه لكيانها وتمزيقه لوحدتها فلما فشلوا فى التأثير عليه بوسائل الإغراء والوعد عمدوا إلى التهديد والوعيد وعزموا على العنف والبطش وحاصروه فى دار جهاده ففر من أيديهم وكانوا عمدون لنقله إلى ميناء حيفا لتقله إلى جزيرة موريشش فى المحيط الهندى، وأفلت منهم وظل يتحرك مهاجراً إلى العراق ثم إيران ثم تركيا حتى وصل ألمانيا .

يقول : لقد فكرت فى الحالة التى كنت فيها وانى كنت خائفاً أترقب منذ كنت محاصراً فى بيتى بالقدس ثم فى لبنان وفى مرورى بسوريا وإقامتى بالعراق ثم بإيران وسفرى إلى تركيا وإنى لم أشعر بشىء من الطمأنينة إلا عندما خرجت من

الأقطار التى يسمونها دار السلام حزنت وحز فى نفسى أن يستطيع طغيان الإستعمار تغيير الأوضاع وتبديل الأحوال وأن يجعل منا غرباء فى بلادنا مشردين فى أوطاننا وقد ضاقت علينا الدنيا بما رحبت وذرفت عيناى دمعتين حزنا على دار السلام والمسلمين .

• • •

لقد كان أمين الحسينى واعياً بالمؤامرة الصهيونية العالمية كلها وكان دارساً للتاريخ ومن خلال مذكراته نجد هذا الوعى واضحاً جلياً :

« إن التاريخ لا يمكن أن ينسى انتصار الجيش المصرى بقيادة الملك المظفر قطز والظاهر بيبرس إنتصاراً عظيماً حاسماً على جيوش التتار الخطيرة سنة ٦٥٨ فى معركة عين جالوت الواقعة بين بيسان وحيفا فى فلسطين ، كما انتصر عام ٥٧٦ بقيادة الملك العادل أخى صلاح الدين على البرنس أرناط حاكم الكرك فى الأردن حين تصدى لفتح الحجاز واتجه إلى غزو المدينة المنورة فأحبط كيدهم وهزمهم شر هزيمة ، وكان قائد الأسطول المصرى فى هذه الحملة (حسام الدين لؤلؤ) ففر الأعداء من العقبة التى احتلوها حقبة ودحر أسطولهم وطردهم من البحر الأحمر ، والتاريخ يعيد نفسه هنا مرة أخرى فإن أحد كبار اليهود الأمريكيين (بن هخت) دعا إلى غزو المدينة المنورة واحتلالها بواسطة جيش يهودى كما جاء فى مقال لجريدة نيويورك تيمس . وفى نفس الوقت إحتل اليهود بمساعدة الإنجليز (العقبة) التى يسمونها (إيلات) للسيطرة على البحر الأحمر .

ويتحدث عن المعاهدة العمرية وقد نصت المادة الثانية على عدم السماح لليهود من دخول فلسطين والقدس ، ثم كيف سمح محمد على باشا لعشر عائلات يهودية بالسكن فى القدس ، ومرت الأيام ولم يكن يعرف مؤامرة اليهود إلا السلطان عبد الحميد الذى كان مطلعاً على قرارات المؤتمر اليهودى العالمى فى بال سنة ١٨٩٧ وكان مقابلتهم معه عام ١٨٩٨ بعد عشر سنوات عمل الإنقلاب عليه وقد أعطتهم بريطانيا ٦٠٠ ألف دونم وأخذوا أراضى السلطان عبد الحميد .

ولقد كان واضحاً أن فلسطين كما عبر عنها اليهود بتولهم (ليست هدفنا الأخير) وإنما هي جسر ننفذ منه إلى أهداف بعيدة المدى ، وقد نشروا خريطة جديدة لهم منذ أربعة أشهر أدخلوا الدول النفطية كلها (كان ذلك عام ١٩٧٤ في محاضرة له بمكة المكرمة) .

وقالوا : نحن الآن في أورشليم في طريقنا إلى يثرب وإلى بابل وإلى خيبر ووادي القرى وبني قريظة وبني النضير .

وطلبوا من روزفلت أن يقنع الملك عبد العزيز بتسليمهم هذه المناطق الست ، وقال قابلت عبد الله فيلبي وسألته عن هذا الخبر فقال أنه صحيح وقد قدم لذلك قبل الحرب .

وقد نشرت مجلة لوك الأمريكية تصريحاً نشر عام ١٩٦٢ :

(في عام ١٩٨٧ سيعم السلام العالم وتزول الجيوش ، وسلام هذه الأمم الحقيقي في أورشليم وهناك تكون مملكة داود) .

وقال بن يحث عام ١٩٤٩ إن العرب الآن يرفضون الصلح معنا ولا يمكن أن يخضع العرب والمسلمون لمطالبنا إلا إذا أرسلنا جيشاً كبيراً من اليهود وسقناه إلى المدينة المنورة وهدمناها ونبشنا قبر النبي .

• • •

وهكذا كان أمين الحسيني في كل موقف ينبه الأذهان إلى الخطر : خطر الصهيونية العالمية الذي يتخطى حدود فلسطين والذي يطمع في السيطرة على العالم الإسلامي كله وما تزال أحقادهم القديمة قائمة وباقية ومستترة في إعادة الموقف الذي قام به أرناط في الذهاب إلى المدينة المنورة .

الفصل الثاني

شكيب أرسلان

الأصالة الإسلامية

لعل أعظم مفاتيح حياة شكيب أرسلان وأبرز معالم حياته الفكرية والسياسية أنه علامة فارقة على الإيمان بالوحدة الإسلامية مرتفعاً فوق مفاهيم القبلية والقومية الضيقة وكان حفياً بالدعوة إلى بقاء الخلافة الإسلامية كرابطة جامعة لكل عناصر الأمة الإسلامية .

يقول الزعيم علال الفاسي :

إن الذين يتلمسون اليوم روح القومية عند شكيب أرسلان تختلط عليهم الأفكار وتتبلبل عندهم الآراء بسبب هذه الدعايات الغربية إلى مابذلت من جهد بقدر مابذلته في سبيل تفريق كلمة المسلمين وبعث الشعوبية الضيقة في أوطانهم . أما شكيب وأمثاله فهم لا يجدون هنالك تناقضاً بين أن يكون الرجل قومياً وإسلامياً أو عالمياً أي إنسانياً .

إن كل هذه الأشياء تتحد في حقيقتها حينما يصغي المرء لضميره ويبدأ في العمل لتحرير قومه والطائفة التي ينتمي إليها ليجعل منهم أداة صالحة في مجتمع إنساني أفضل وتلك هي المبادىء التي كانت تغمر قلب شكيب وتوجهه في سائر أعماله .

كان مسلماً يعرف كل محاسن الإسلام ويناضل عنها ولكنه ما كان يقف موقف المتعصب إزاء أبناء قومه من رجال الملل الأخرى ، ولعله لم يحظ زعيم

عربى بتأبين رجال الدين المسيحى فى لبنان وسوريا مثل ما حظى به شكيب فى أخطر ظروفه وأقواها وهى ظروف الإتهام الذى وجه إليه بسبب دفاعه عن مسلمى الحبشة .

وكان عثمانياً يدعو إلى الجامعة الإسلامية كرابطة سياسية واجتماعية بين مختلف الشعوب التى تنضوى تحت لواء العثمانيين وهذه إحدى الصفات التى جلبت له الكثير من الأعداء والعديد من الخصومات لأن أصدقائه الكثيرون بل إخوته كانوا يختلفون معه فى هذا الإتجاه فى وقت كان أعظم رجال العرب يضيقون ذرعاً بأعمال الأتراك ويطالبون بالإستقلال العربى ثم بتكوين خلافة عربية .

ولكن شكيب كان أبعد نظراً منهم وأكثر تقديراً للمستقبل فقد كان يعرف أن الأتراك يرتكبون من ضروب الظلم مع العرب ما يستوجب الثورة ويدعو إلى الانفصال ولكنه كان يعلم أن ذلك لم يكن ينبعث إلا من رجال الإتحاد والترقى أى من الأتراك المستغربين بل من مهاجرى التركستان الذين كانوا يريدون بعث الجامعة الطورانية رغبة فى تحرير أوطانهم من الاحتلال الروسى وإن عامة الأتراك مازالون متمسكين بمبدأ الوحدة الإسلامية التى خلفت لهم ماضيهم المجيد ولذلك فالأوفق للعرب أن يغالبوا التيار ويطالبوا بالاصلاح حتى تكون لا مركزية عثمانية يحصل معها العرب على حكمهم الذاتى دون أن ينهار صرح الخلافة الذى هو أساس وحدة المسلمين وحفظ كيانهم .

وكان شكيب أكثر الناس إطلاعاً على ما آلت الحركة العربية من خروج عن خطتها الأولى ، المبنية على الاخلاص والتضحية وأكثرهم معرفة باتصالات الكثير من رجال العرب بفرنسا وإنجلترا واستمدادهم من هذين الدولتين كل وسائل الإغراء والتشجيع على الثورة على الترك باسم الاستقلال .

وكان يؤمن أن صالح العرب هو فى صالح إتحاد المسلمين وجمع كلمتهم وأن الخليفة مهما كان وضعه غير طبيعى وحاله غير شرعى فإنه محور تلتقى حوله أهداف المسلمين إلا فى البلاد ذات الأغلبية المسلمة فقط ولكن حتى بالنسبة للأقليات المسلمة فى سائر أنحاء الدنيا .

وإن ثورة العرب عليه لن تؤدى إلى تكوين الخلافة العربية كما يزعم البعض وإنما تؤدى إلى تفكيك عرى وحدة المسلمين ووحدة العرب ثم إستيلاء الإنجليز والفرنسيين على أوطانهم وإفساد أخلاق أهلها ».

وقد صدقت الأحداث ما كان يستشعره الأمير شكيب أرسلان وما كان يخشاه ولقد عبر عن هذه المعانى فى كثير من رسائله (التى بلغت ألف رسالة إلى السيد محب الدين الخطيب نشر أغلبها فى مجلة الفتح) وكانت تلك مفاهيمه هو ومجموعة من الصلحاء فى مقدمتهم السيد رشيد رضا وقد وردت هذه المعانى فى تعليقاته على كتاب (حاضر العالم الاسلامى) وغيره .

* * *

ولقد كان الأمير شكيب حفياً بأن يكشف أمرين :

أولا : ما أداه السلطان عبد الحميد من جهد مشكور فى سبيل حماية فلسطين من مؤامرة النفوذ الصهيونى .

ثانياً : الكشف عن المؤامرة الحقيرة التى قام بها الاتحاديين فى سبيل تدمير الدولة العثمانية قبل الحرب والخلافة الإسلامية بعد الحرب .

ولن كل الاتهامات التى توجه إلى الأتراك من مظالم وغيره إنما هى تتمثل فى فترة حكم الإتحاديين وحدهم - (١٩٠٩ - ١٩١٨) .

يقول :

وقد دار الزمن دورته وثار العرب على العثمانية وأعلنوا الخلافة الهاشمية وأراقوا دماءهم فى سبيل الحلفاء الذين كالوا لهم من الوعود المعسولة والأموال المنقولة ما أعمى قادتهم عن تبصر الحقيقة على وجهها وزاد الطورانيين أيضاً فى غوايتهم فتم للأجنبى ما أراد ، وانتهت المعركة الكبرى بنصرة الحلفاء على تركيا وحليفتها ألمانيا وكان أول ماعملته إنكلترا وفرنسا أن اعتقلت الأولى جلالة

الشريف حسين وطردت الثانية إبنه فيصل من بلاد الشام ثم استولتا على الأرض العربية وانتهى الأمر بطرد الاتراك لخليفتهم وإعلان الحكم اللاديني في تركيا الفتاة .

أما رجالات العرب الاتراك فقد دخلوا في هذه الأطوار الجديدة التي يقتضيها العهد الجديد وقبلوا العمل في الغالب في دائرة قومية ضيقة ترضي الإنجليز وإن كانت تحاربهم ويعطف عليها الفرنسيون وإن كانت ستطردهم وهكذا ترك مصطفى كمال وحزبه الميدان للذين يعملون باسم القومية بمعناها الغربي الجديد وتبلورت الوطنية في العراق حول ملكها الهاشمي فيصل العظيم واستقطب الجزيرة العربية على صوت الوهابية ونظامها وغطت اليمن في نومتها العميقة إلى اليوم وسارت ليبيا والمغرب والشام يكافحون المستعمر في جو ملؤه الشوق إلى الحرية والإتحاد . . . » .

هكذا صور العلامة علال الفاسي موقف الامير شكيب في هذه المرحلة الدقيقة ومضى يصور جهاده في سبيل تحرير الأقطار الإسلامية فقد كان في مقره في لوزان ثم في جنيف مقصد كل زعماء البلاد العربية والإسلامية « الذي جعل نفسه علما تتجه إليه أنظار المسلمين في كل أنحاء الأرض ، لقد أصبح مكتب التنفيذ لمؤتمر إسلامي غير موجود ، ورئيس الديوان لخليفة إسلامي معدوم ومكتب الاستعلام والاعلام في كل قضية وكل بلد للعرب والمسلمين فيها حق أو نصيب ولكن جهاده الإسلامي العام لم ينسه أبداً وطنه الخاص الذي هو بلاد الشام بكل أجزائها ويكفي أن ترد منه رسائل وبرقيات لدنيا المسلمين لكي تثور ضد فرنسا وبريطانيا والصهيونية وتتوالى الاحتجاجات من كل جهة .

وكانت ترد إليه الرسائل من الملايو والصين والهند وأفغانستان وإيران والبلاد العربية وأثيوبيا ومن أفريقيا وأمريكا وكلها تشكو من أهوال المستعمر أو تطلب الدعاية لقضية بلادها أو تستشير الأمير فيما يجب أن تعمله ازاء بعض القضايا القائمة .

وكان الأمير يعلق على كل واحدة منها ويأخذ رأى أصدقائه ثم يستيقظ مبكراً ليجيب عن جميعها فالأندونيسيين يحكمونه فى الخلاف القائم بين العلويين وغيرهم ورسالة من أحد التجار المسلمين فى أثيوبيا يشكو من اضطهاد النجاشى للمسلمين ويقول أن النجاشى يؤثر غير المسلمين بفتح وسائل التجارة والاقتصاد فى وجوههم ورسالة من تركى يشكو فيها الكبت الدينى الذى تقوم به حكومة أتاتورك وقد تولى الأمير الدفاع عن كل هذه القضايا وغيرها وحارب فرنسا لاحتلالها بلاد الشام بكل ما استطاعه من سياسة ومن سلاح وحارب إيطاليا بالدعاية وبالسلاح فى ليبيا وفى غيرها من الأماكن التى نكبت باستعمارها .

وكان له موقفه من القضية المغربية أيضاً فقد انتقل إلى تطوان واتصل بالمجاهدين وسمع منهم ورجع إلى سويسرا حيث أعلنها حرباً شعواء على الفرنسيين ولم يزل يوالى كتاباته واتصالاته بأقطاب العالم الإسلامى .

* * *

ومن يطالع (حاضر العالم الإسلامى فى أجزائه الأربعة (٣٨٠ × ٤ = ١٥٢٠ صفحة) يدهش لهذه التعليقات الوافرة التى لم يكن الكتاب الأصلى الذى ألفه لوثروب استوارد وترجمة طيب الذكر الأستاذ عجاج نويهض يزيد على مائتى صفحة فلقد قدم الكتاب للأمير ليكتب له مقدمة فما كان منه إلا أن أخذ يعلق تعليقاته الواسعة فلم يترك حدثاً ولا بلداً مسلماً إلا وتناول حركة النضال فيه من أجل الاستقلال والحرية وقد بدأ هذا العمل منذ عام ١٩٢٤ واستمر فى طبعاته المتوالية حتى أوفى على غايته .

يقول عجاج نويهض : أنه خلال مدة لا تقل عن ٢٤ سنة إنقطع فيها الأمير شكيب عن التأليف ولكنه بقى من حيث المراقبة لسير الأحوال فى أوروبا

والعالم الإسلامى عيناً ساهرة وقلباً تارة يئن وطوراً يطرب وينبغى أبداً كقطعة من نور الشمس ، فأصبح صدره شديد الامتلاء بالمعلومات الإسلامية الخاصة .

فلما كتبت إليه أطلب مقدمة فكأنى قد قدمت إلى الأمير ندى الله ثراه وجعل الجنة مثواه (مفتاحاً) للسر العظيم الذى يحمله فى صدره فاندفق يكتب سنتين » .

رحم الله الأمير شكيب على هذا العمل الضخم وجزى الله عجاج نويهض أجره فى مشقة الإعداد والترجمة والطبع .



الباب الخامس

الدعاة إلى الله

---

(١) حسن البنا : الرجل القرآني

(٢) سعيد النورسي : جماعة النور على منهج القرآن

(٣) مصطفى صادق الرافعي : الأصالة

(٤) عبد الحميد بن باديس : الإسلام والعربية والجزائر

(٥) عبد الحليم محمود : يقظة الأزهر

الفصل الأول

حسن البنا

الرجل القرآني

(١)

يمثل الأستاذ حسن البنا علامة مضيئة على طريق الدعوة الإسلامية في العصر الحديث من بين كوكبة من الدعاة إلى الله الذين عملوا على إحياء مفهوم الإسلام الصحيح ، مجددين هذا الدين ،، بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع . فقد أعطى هذا المنهج قلعة حصينة (بناها في خلال عشرين عاماً وهو البناء) تلك هي الانتقال من مرحلة الدعوة العامة إلى مرحلة بناء الأجيال المسلمة المؤمنة القادرة على حمل أمانة الرسالة عن طريق « التربية » فكان عمله ذلك إضافة واسعة لمن سبقوه منذ الإمام محمد بن عبد الوهاب . والمهدي . والسنوسي . وأحمد بن عرفان . وصولا إلى جمال الدين . ومحمد عبده ورشيد رضا وكان في نفس الوقت استشرافاً لمنطلق جديد للدعوة الإسلامية يمكن أن يقال معه دون تجاوز أو مبالغة : إن هذا العمل هو الذي وصل الآن بعد أقل من أربعين عاماً من رحيله متصلا به أوثق اتصال ، مستمداً من الخطوط الأولى التي رسمها في بساطة ويسر .. ولكن في عمق العارف لتيارات الغزو والتخريب ومحاولات الاحتواء ، والحصار التي أشار إليها في وضوح . . كأنما كان يستشرف معالم المستقبل .

ثلاثة أحداث هزت وجدان الإمام حسن البنا في مطالع شبابه ودفعته إلى رسم أسلوب العمل للدعوة الإسلامية :

أولا : ما أصاب وحدة المسلمين من ضربات بسقوط الخلافة الإسلامية وما سيتوالى من بلاء وفرقة وتمزق تحت إسم الأقليات والقوميات والعصبيات والدماء.

ثانياً: ما سيصيب مسرى رسول الله ﷺ من بلاء بإرهاصات الصهيونية في فلسطين وضرورة العمل لاستعادة أرض المسلمين .

ثالثاً: ما أصاب بناء المجتمع من اضطراب وتخلخل نتيجة فرض قانون نابليون، وخطر ثغراته الثلاث: فى الربا وعلاقات الرجل والمرأة ووباء المقامرة والرشوة.

ومن هنا كانت دعوته إلى التماس منهج رسول الله ﷺ فى بناء جيل جديد يكون قادراً على الدفاع عن عقيدته وأرضه وعرضه، والعودة إلى مفهوم الإسلام الأصيل القائم على التوحيد الخالص بعيداً عن مفاهيم علم الكلام، والاعتزال والتصوف الفلسفى، واستشراف المفهوم الأول الذى جاء به محمد بن عبد الله، والقائم على القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة.

وقد استطاع الأستاذ البنا أن يقيم دعائم أساسية للفكر الإسلامى أهمها:

أولا. الكشف عن فساد الحضارة الغربية وعجزها عن العطاء ورفض المسلمين لها. لأنها تصدر عن منطلق وثنى إباحى مادى يدمر القيم الأساسية للمجتمع الإسلامى. وكانت هذه تجاه الحضارة الغربية من أول ما تكلم به دعاة اليقظة الإسلامية.

ثانياً: الكشف عن فساد المناهج الغربية والأيدلوجيات الوافدة. سواء الليبرالية منها أو الاشتراكية أو القومية، وأنها مناهج بشرية لا تستحق مقارنتها بالإسلام الذى سبقها، وقدم منهجاً ربانى المصدر، إنسانى الوجهة، عالمى الطابع فيه من المرونة والسماحة واليسر ما يجعله قادراً على العطاء لمختلف الحضارات والأمم والعصور.

ثالثاً: الكشف عن قصور القانون الوضعى، وعجزه عن إسعاد المجتمعات الإسلامية، لاستمداده من ثقافة وعقيدة تختلف عن ثقافة المسلمين وعقيدتهم.

رابعاً: اضطراب النظام التعليمى والتربوى المفرغ من الدين والأخلاق وعجزه عن تكوين الإنسان والوطنى والمسلم بتبنيه مناهج تعلى من شأن الغرب وبطولاته

وتزدرى تاريخ الإسلام ولغته وقرآنه ، وأن التبعية للفكر الغربى هى أخطر ما يؤثر فى الأجيال الجديدة .

ولم يتوقف الأستاذ البنا رضوان الله تعالى عليه عند هذا . بل إنه تقدم بخطوة أخرى تحدد موقف الإسلام من قضايا هامة :

أولا : حسم موقف الإسلام من الوطنية والقومية ، وكشف عن صلة العروبة بالإسلام ، وأن الإسلام هو الذى أقام العروبة والعرب هم قادة الإسلام ، وأنه إذا ذل العرب ذل الإسلام .. ولكنه حدد موقف العروبة من الإسلام بأنها مرحلة للوحدة الإسلامية الجامعة ، لا تستعلى بالعنصر أو الدم ، ولا تنغلق إزاء المجموعات الإسلامية . بل (تتعارف) معها وتتصل بها . حيث أن وحدة الفكر الإسلامى التى صنعها القرآن الكريم هى منطلق التصور الإسلامى لكل من العرب والفرس والترك والملايو وجميع العناصر الأخرى المشابهة .

ثانياً : ليس الإسلام ديناً لاهوتياً بمفهوم الغرب . ولكنه دين ومنهج حياة ونظام مجتمع ، وأن عوامل الاختلاف فى البيئة والمناخ والتقاليد فى العالم الإسلامى أضيق كثيراً من عوامل الالتقاء والتشابه فى الثقافة والعقيدة والأخلاق والقيم ، وأنها تمهد لوحدة إسلامية جامعة تعيد مفهوم (الخلافة الإسـلامية) بأسلوب جديد .

ثالثاً : التركيز المستمر والمتصل فى الحفاظ على الذاتية الإسلامية التى تميز بها المسلمون ، والتى كونها فيهم القرآن والسنة خلال أربعة عشر قرناً ، وحماها وحفظها من الانصهار أو الاحتواء تحت أى إسم وقد دعاهم الإسلام إلى التحرر من التبعية الأجنبية . الخارجية والداخلية . إيماناً بأن الإسلام أوسع أفقاً من المناهج الوافدة . حيث تتكامل فيه القيم ، وحيث هو مؤهل لتبليغ رسالة الله تبارك وتعالى إلى العالمين بعد أن يقيم المسلمون مجتمعهم الربانى فى أرضهم عقب مرحلة التوقف الاضطرارية الحالية .

رابعاً : رفع قيد التضارب والصراع بين القيم ، وكشف عن لقاء العروبة بالإسلام ، وجعل ما بين الأجيال لقاء وليس صراعاً ، وأن عناصر اللقاء في الطبيعة والمجتمعات أكبر من عناصر الخلاف . وكان يؤمن بالرفق في التبليغ والبعد عن المغالاة أو التطرف . فقد اعتبر أن الدستور المصرى يمهد للتطبيق الإسلامى ، ولا يحتاج إلا إلى تعديلات يسيرة ، وأن الحدود الإسلامية زواجر تحمى من وقوع الجريمة . وليست عقاباً أو تسلطاً . وأنه فى الإمكان إيجاد صيغ تحقق إلغاء الربا ، وتقضى على الزنا والخمر ، والرشوة والمقامرة حماية للمجتمع وأمنه وسلامته .

وهكذا نجد أنفسنا اليوم نحن نستشرف خطوات واسعة فى عديد من الأقطار الإسلامية و مصر نحو تطبيق الشريعة أن الضوء الذى ألقاه الإمام الشهيد على الساحة ما يزال يهدى إلى طريق الله الحق .

رحمه الله رحمة واسعة وأجزل مثوبته .

(٢)

وأقبل العام الحادى والأربعين بعد استشهاد الإمام يؤكد أن الشجرة التى غرسها قد ثبتت جذورها فى الأرض حتى إنه لم يعد فى إمكان أى قوة اقتلاعها ، وقد شاء الله تبارك وتعالى أن تواجه بالاضطهاد حتى ينتثر عقدها فيصل إلى كل مكان يمكن أن تقال فيه كلمة لا إله إلا الله ، فتلاميذ الإمام وحواريوه قد توزعوا ، فما من مكان اليوم ينادى فيه للأذان ، إلا وتجد واحداً منهم يؤم الناس للصلاة ، فى أقصى الأرض ، فى اليابان ، فى استراليا ، فى الملايو ، فى فرنسا ، ألمانيا انجلترا ، لا بد أن تجد ذلك الرجل الذى يقول

(وأصلى وأسلم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله وصحابته ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين) .

وتلك كانت علامة الدعوة على ألسنة الدعاة .

شاء الله تبارك وتعالى أن يسد الفراغ الذى بدا مقلقاً ومخيفاً بعد سقوط الخلافة ، وارتفاع كلمة باطلة تقول بأن الإسلام دين عبادة وأن محمداً ﷺ لم يقم دولة ولا حكومة .

وفى قلب الجامعة وكلية الآداب بالذات حيث كان طه حسين يطالب إلى أوليائه أن ينقدوا القرآن كأى كتاب أدبى ويقولوا هذه الآية ضعيفة وهذه الآية كذا ... فى قلب هذا التيار خرج الشباب المؤمن الذى أذن للصلاة وقال (الله أكبر ولله الحمد) فى المدرجات .

جاء (حسن البنا) ليكون تعويضاً عادلا عن تلك الموجة العاصفة التى حاولت أن تضرب شواطىء الإسلام حيث التبشير يجتاح المعاهد والإرساليات فيسقط فيه أبناؤنا أسارى ، الاستشراق يتدافع فى الجامعات ودبوى وجماعة يسيطرون على كليات التربية ، والصحافة تقود حركة العلمانية على كل طريق ، المحكمة تحجب الشريعة الإسلامية وتبرز القانون الوضعى ، والمصرف يقيم منهج الربا ، كم كان هذا الطوفان قاسياً وعنيفاً .

ولكن الرجل كان أمة وحده ، رأى كل المنطلقات عاجزة بعد التجربة الطويلة منهج الغرب لم يحقق الهدف الذى تتطلع إليه الامة ، وبدا وكأن الامة قد أحيط بها ، والذين وعدوها بالنصر فى ظل تقليد الغرب قد بدا وكأنهم ظالمون أو غاشون .

وكان لابد من منطلق صحيح ، ولم يكن هذا المنطلق سوى ذلك المنطلق الاول الذى التمسه رسول الله ﷺ : منهج التربية من جديد ، تربية جيل يؤمن بأن الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع وليس ديناً لاهوتياً قاصراً على الصلاة والعبادة وإقامة المولد النبوى .

وحمل حسن البنا اللواء ودعا كل الناس ، دعا أنصار السنة وأهل التصوف ، وأهل العلم ، والمعلمين ، وأهل الصناعات ، وسعى إلى الناس فى أماكنهم ولم ينتظر حتى يأتوا إليه . وحمل لهم قارورة الدواء وناشدهم الله والوطن . وقدم لهم منهجاً

كاملا جامعاً مبرءاً من كل نحلة أو مطمع أو هوى : قدم لهم الإسلام غضاً طرياً .. ومضى يعمل ولم يضيع دقيقة واحدة ، واستجابت الأمة ، استجاب له الشباب في كل مكان ، وبايع الجميع على تقديم أرواحهم وأموالهم فداء دعوة الحق (إن الله اشترى) ونحن بعنا .

وقدم الأستاذ البنا لكل مشكلة حلا . وجدد دعوة الجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

كان القرآن منهجه والرسول ﷺ قدوته ودليله ، فنهما انطلق إلى الهدف وفي ضوءهما (القرآن والسنة) حدد وجهته وكان ورده اليومى الذى لا يتخلف ، كان يحمل في جيبه في الصباح الجزء اليومى ليقرأه في أى مكان فلا يشغله عنه سفر ولا عمل ، وقد أوغل في هذه الوجهة حتى كان يتلوه في دقائق معدودة ، وقد أفاض في تعرف أهدافه حتى يتلو عشرات الآيات ذات المعنى الواحد متصلة في محاضراته على نحو يدهش له السامع ، وفي مكة كان يخاطب الجاوى والهندى والماليزى وغيرهم بلغة القرآن حيث يقدم لهم المعنى من الآيات المتصلة على نحو عجيب حقاً . حتى كانت أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من سياق الآيات القرآنية مما أراد الأستاذ البنا أن يقوله .

وكان غزير المطالعة حافظة حتى كان يستحضر عشرات الأبيات من الشعر فيسترشد بها في دعوته ويستدل بها على غايته فتقع موقع الكلمة الفاصلة ، وقد أخبر أنه كان يحفظ أكثر من خمسة آلاف بيت .

وبالجملة فقد هداه القرآن وهدته السنة إلى تربية جيل من الشباب وفق المنهج الذى طبقه النبى ﷺ قوامه الصبر على الضيم واليقين بنصر الله والفرج بعد الشدة ،

مضى يدعو ويكثف نشاطه مستعيناً بالله عقدين كاملين ، حتى عرفت الدعوة (دعوة الإخوان المسلمين العالمية) في كل أقطار الوطن العربى وامتدت إلى العالم الإسلامى ، وكانت قضية فلسطين تستعجلها النصرة والدفاع ، فحمل لواء الجهاد

وقدمت الشهداء ، وأحس العدو بالخطر فاجتمعت قوى النفوذ الأجنبي على إغراق السفينة التي كشفت مؤامرة الغرب وفساد حضارته وزيف منهجه وأضاليله ومؤامرته على الشريعة والثقافة والتراث في محاولة للحيلولة دون المسلمين ومنهجهم الرباني ، واستشهد الإمام وظل أبناؤه وأتباعه يحملون الراية عالية يضحون في سبيل حمايتها بكل مرتخص وغال ، ماضون على الطريق في صبر وثبات ، يتحملون الأذى ويدعون أمر الظالمين إلى الله .

واليوم وبعد أربعين عاماً من بدء المسيرة ، نرى الدعوة الإسلامية حقيقة واقعة ، قائمة على أمر الله ، وقد انصهرت فما عادت تخاف بخساً ولا رهقاً ، تحمل لواء الحق وتدعو إلى الله على بصيرة ، بعيدة كل البعد عن العنف وعن العدوان ، شأنها شأن الدعوة الأولى ، تجهر بما تعتقده ، ولا تطلب عليه جزاء وليس لها مطمع أو مأرب ، وتفوض إلى الله الأمر ، ونسأل الله للناس الهدى صابرة على كل ما يصيبها فقد باعت نفسها لله خالصة .

نرى أن [الإسلام دين ودولة] حقيقة واقعة، وأن الحضارة الغربية تنهار وأن مناهجها تسقط ، وأن الأصالة والعودة إلى المنابع حقيقة واقعة ، وأن معطيات الاستشراق والتبشير لم تعد تقنع أحداً وأن دعاة العلمانية والفلسفة المادية ينهار بهم الجسر الذي صنعوه .

ولقد هدى الله بكلمة الحق أقواماً خدعوا زمناً واتسع نطاق الدعوة حتى اقتحم عالم الغرب وعشش فيه ، ولها في كل يوم خبر جديد عن نصر جديد ، وقد اقترب الفجر ، وانهدمت الأيدلوجيات ، وسقطت النظريات المادية وعجزت الأنظمة البشرية عن العطاء وتطلعت الأمم إلى ضوء جديد بعد سقوط الماركسية يسعدها ويهدي قلوبها ، وإلى نظام جديد يحقق لها الأمن والسكينة ولا بقاء للغاصب ، وتلك كلمة الله ودعوته حمل لواءها حسن البنا ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ويحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره الكافرون .

• • •

(٣)

أعتقد أنه ما يزال هناك تراث هام فى حياة الأستاذ حسن البنا ما زال غائباً أو مجهولا رغم الحاجة الماسة إليه لاستكمال دراسة حياة هذا الرجل العظيم الذى اختلف منهج حياته عن حياة القادة والعظماء والمفكرين فى عصره . فقد كان نموذجاً مختلفاً متميزاً فى طباعه ومفاهيمه وعلاقاته بالناس أقرب ما يكون إلى الصورة التى حفظتها لنا السنة المطهرة عن الأسلوب الذى دعانا النبى ﷺ أن نسلكه فى التعامل مع الناس .

ومن يتتبع سلوك الأستاذ البنا وخلقه وتعامله مع الناس يستطيع أن يرسى قاعدة أساسية فى هذا الأمر ، وهو أنه يختلف فى الاستجابة للأمور عما يتصور أنه يفعل على نحو يوحى بسماحة النفس وحبها لكسب القلوب والإغضاء عن المخالفات :

فهو قادر على العطاء فى كل لحظات حياته ، حتى مع من يختلف معهم ، أو يخاصمونه إلى درجة قد يتصور المرء معها أنها من منطلق ضعف ولكن حين يتبينها يجد أنها تصدر عن قوة نفسية لا حد لها .

ولقد أهمنى كثيراً أن أعرف عنه أمرين : مذكراته وما كان يكتب فيها ثم علاقاته مع الأسماء اللامعة فى عصره .

أما مذكراته فإنى ما زلت أذكر كيف كنا نقتنص فرصة غيابه عن حجرته (ونحن معه فى رحلة الحج) لنقرأ ما كان يدونه يومياً عن مقابلاته وأحاديثه وهى تعطى انطباعاً بالسماحة مع مخالفيه فى الرأى ورغبته فى كسبهم إلى صف الحق

أما لقاءاته بالناس فقد كانت أمراً عجيباً ، ذلك أن بعض طلبة الجامعة من شباب الإخوان كانوا ينقلون إليه ما يقوله بعض الأساتذة من عبارات النقد للدعوة أو الإعجاب بها ، فكان حرصه شديداً على أن يلتقى مع هؤلاء الذين يختلفون مع الفكرة ، ويدعوهم إلى لقائه فيخرجون من عنده وقد غيروا فكرتهم . تلك هى قدرته الخارقة على مخاطبة الفطرة فى أعماقهم ومخاطبة عناصر الإيمان فى

قلوبهم وعقولهم بالرغم من استغراقهم على مفاهيم الفلسفة المادية والنظريات الوافدة والفكر الغربى بكل ما يحمله لمفهوم الدين والغيب من نفور فضلا عن مطامع الحياة وهناك علاقاته مع المتصدرين للكتابة فى عصره وقادة الرأى من أمثاله محمد التابعى وفكرى أباظة وانطون الجميل ومن أمثال محمد زكى عبد القادر وأحمد حسن الزيات (صاحب الرسالة) وغيرهم كثير.

لست أدرى كيف كان يحدثهم وما هى العناصر الأساسية التى كان يكسبها فى أعماقهم فيظهر من إعجابهم به وبدعوته على النحو الذى كتبه التابعى أو فكرى أباظه أو زكى عبد القادر ولعل اخلاصه صادق لوطنه كان أبرز العناصر ولكنى أتوقف عند رجل مثل (انطون الجميل) حين أرى الاستاذ البنا فى إحدى صوره معه يذهب فى الحديث مذهباً، يوحى بالإعجاب والثقة، هذا رجل مارونى لبنانى أساساً ويرأس تحرير جريدة الأهرام التى هى فى ذلك الوقت وكر النفوذ الفرنسى فى مصر واتجاهها علمانى بعيد كل البعد عن الدين عامة والإسلام بالذات ولكنه الاستاذ البنا بذكائه وقدرته على الغوص فى أعماق النفوس قد وجد ما يكسب به هذا الرجل.

ويبدو ذلك واضحاً أيضاً فى علاقته مع مكرم عبيد أيضاً ولقد ظل أمر الاستاذ الزيات ومجلة الرسالة يحيرنى خلال عشرين عاماً بالنسبة للاستاذ البنا ودعوة الإخوان فى مجلة تصدر أسبوعياً ولا تكتب كلمة عن الإخوان ولم يدع الاستاذ البنا يوماً ليكتب فيها كلمة واحدة، شيء عجيب. ولكن ما كاد الاستاذ البنا يستشهد حتى كتب الزيات عن ذكرياته معه وكيف كان يلقاه، وما يضمره الزيات للدعوة الإسلامية من تقدير وللشيخ من عرفان.

ولقد لاحظت فى عام ١٩٤٦ أن الاستاذ الزيات كتب مقالا إفتتاحياً فى الرسالة تحت عنوان (الرجل المنتظر) قال كل من قرأه أنه ينطبق على البنا سبق لقد وضعته فى مقدمة كتاب لى عن (قائد الدعوة).

وقد كان من حسن الحظ أن نشرت فى الرسالة قبل أن تغرب شمسها بعدة

فصول تحت عنوان (الرجل القرآنى) ضمنها بعض ما أورده صحفى أمريكى كان قد التقى به أيان الأزمة الأخيرة

لقد قابل الأستاذ البنا منذ جاء إلى القاهرة عشرات من الأعلام فى ميدان الفكر والصحافة والسياسة والأدب وبلغ رسالته إليهم ، وكان مرناً بارعاً فى التعامل ، فيكسب لفكرته ولدعوته وأوسع أفاقها وعمق مجراها ، ولما كانت فكرته جديدة (الإسلام دين ودولة) فى مجتمع قد بلغ حداً كبيراً فى الخضوع للعلمانية واستقلت فيه فكرة الليبراليه ، وقامت فيه جماعات وهيئات وصحف وكتابات تدعم مفهومها ، من أجل ذلك كانت قيادته للسفينة الصغيرة فى هذا الموج الهائج والبحر الخضم شاقة وعسيرة ، ولكنه كان يتميز بيقين عميق وثقة بالله تبارك وتعالى فائقة مع قدرة على الحركة ومرونة فى العمل على طريقة المراحل وتطلع إلى الأجيال الجديدة النقية القلب التى لم تلوثها الحزبية أو المطامع ، مع الصبر والعزم والإصرار ، وكان أخطر ما فيه أمران : (١) إيمانه بأنه يتبع خطوات الدعوة الأولى مع الصبر الشديد والثبات . (٢) ذهابه إلى الناس فى بلادهم وقراهم ومواقعهم ولا ينتظر حتى يأتون إليه .

ولقد استطاع أن يخترق القطر من شماله إلى جنوبه مرات باحثاً عن المسلم الذى يتوسم فيه الخير ، فكان أعرف الناس بالأسر والأعيان ومشاكل البلاد من خلال أربعة آلاف قرية زارها مراراً ، وتعرف فيها إلى الذين أحبوه وعرفوه فكان يعرف أبناءهم ومن حولهم .

وكان فى رحلته تلك بسيطاً زاهداً خفيفاً يبيت فى المساجد أحياناً عندما لا يجد من يستضيفه ومعه قليل من الزاد فى حقيبته فإذا لقى كبار الإعيان حرص على أن يكون مختلفاً عن المتصوفة ورجال الذكر ويتقدم إلى الناس دائماً على أنه عنصر جديد مختلف ، وقد كان أسلوبه فى العمل السياسى وفى التعامل مع الناس وفى الكتابة عن الأمور الجارية يوحى بأسلوب جديد قوامه المفهوم الإسلامى (المتميز) عن أسلوب المفكر السياسى الغربى القائم على المراوغة على نحو يرى فى ظاهر الأمر معارضاً أو مخالفاً للأسلوب السياسى أو الحزبى السائد والقائم على

الهجاء والاقتحام والعبارات الرنانة، فبكان يضع بديلا لذلك أسلوباً سمحاً يسيراً قوامه (نتفق فيما نراه متفقاً بيننا ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه) ويواجه الآخرين في يسر بحيث لا يقطع حبل المودة ولا يغلق الباب ولا يقطع الصلات ويسمح بالعودة والمراجعة على النحو الذي دعا إليه الإسلام وصنعه النبي وخلفائه في تعاملهم مع الناس، وقد أرسى في الحوار والكتابة الصحفية وفي المناقشات أسلوباً إسلامياً رصيناً بعيداً عن الجدل العقيم والهجاء المتطاول ويظل مع ذلك قادراً على أن يقول كلمة الحق دون أن يجرح أو يسيل الدماء.

يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات في الرسالة بعد استشهاد الأستاذ البنا (٧ يناير ١٩٥٢):

(الإخوان المسلمون وحدهم هم الذين يمثلون في هذا المجتمع الممسوخ عقيدة الإسلام الخالص وعقلية المسلم الحق.

إنهم لايفهمون الدين على أنه صومعة منعزلة ولا الدنيا على أنها سوق منفصلة وإنما يفهمون أن المسجد منارة السوق وأن السوق عمارة المسجد، وكان للإخوان المسلمين في الإرشاد لسان وفي الاقتصاد يد وفي الجهاد سلاح وفي السياسة رأى وفي كل بلد من البلدان العربية أتباع وفي كل قطر من الأقطار الإسلامية أشياع وما يقظة الوعي العام في مصر والسودان وفي العراق وسوريه وفي اليمن والحجاز وفي الجزائر ومراكش إلا شعاع من هذه الروح سيكون له بعد حين نبأ)

• • •

إنني أذكر دائماً أن الإمام الشهيد وضع قاعدة عريضة هي التي تحمل المسلمين اليوم إلى تحقيق المجتمع الرباني:

(١) سبيلنا إلى التعرف على ذات الله وأسمائه وصفاته وأفعاله ليس علم

أصول الكلام فى نزوعه إلى الفلسفة والاصطلاحات العلمية المعقدة التى تشتت الذهن وتغرق القلب ولا ذوق أصحاب الوجد فى انقطاعه عن منهج العلم وإنما سبيلنا هو العلم الصحيح الثابت فى الكتاب والسنة الموصل إلى العمل الذى تتحرك به الجوارح منفعلة بوجدان قلب علم عن ذات ربه وصفاته وما حركته بالخشية والرهبة والحب وكمال الخضوع والترك .

(٢) لاتصادموا نواميس الكون فإنها غلابة ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها واستعينوا ببعضها على بعض وترقبوا ساعة النصر وما هى منكم ببعيد .

(٣) نحن نعتقد أن أحكام الإسلام وتعاليمه شاملة تنظم شئون الناس فى الدنيا والآخرة والذين يظنون أن هذه التعاليم إنما تتناول الناحية العبادية أو الروحية دون غيرها من النواحى مخطئون فى هذا الظن، فالإسلام عقيدة وعبادة ووطن وجنسية ودين ودولة وروحانية وعمل ومصحف وسيف .

والقرآن الكريم ينطق بذلك كله ويعتبره من لب الإسلام ومن صميمه ويوصى بالإحسان فيه جميعاً .

(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك) .

(٤) أنتم روح جديد يسرى فى قلب هذه الأمة فيحييه بالقرآن ونور جديد يشرف فيبدد ظلام المادة بمعرفة الله وصوت داو يعلو مردداً دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن الحق الذى لا غلو فيه أنكم تحملون هذا العبء بعد أن تخلى عنه الناس. فنحن ندعو إلى الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ والحكومة جزء منه والحرية فريضة من فرائضه .

فإذا قيل لكم هذه سياسة فقولوا : هذا هو الإسلام ونحن لا نعرف هذه الأقسام .

(٥) أنا سائح يطلب الحقيقة وإنسان يبحث عن مدلول الإنسانية بين الناس ومواطن ينشد لوطنه الكرامة والحرية والاستقرار والحياة الطيبة فى ظل الدين الحنيف ، أنا متجرد أدرك سر وجودى . . . إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين » .

وما تزال هذه الكلمات بعد بضعة وأربعين عاماً غضة طرية كأنها قيلت اليوم .

إصلاحه :

الأستاذ حسن البنا هو أول من كسر خط الانبهار بالغرب وحضارة الغرب وكشف عن زيفها وهاجمها هجوماً صريحاً فى عصر كان علماء الإسلام ينظرون إليها بإعجاب وكان كتاب العصر يطالبون بأن تقبل الحضارة الغربية خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، ما يحمد منها وما يعاب بدعوى أنها وحدها التى ستحررنا من نفوذ الاستعمار .

دعا الأستاذ حسن البنا إلى عودة الشريعة الإسلامية إلى موضعها فى قيادة المجتمع الإسلامى وقال :

إن كل تشريع لا تحميه قوة تنفيذية تشريع عاطل مهما كان عادلا رحيما لا يظفر من النفوس إلا بدرجة من الإعجاب لا تدفعها إلى اتباعه والنزول على حكمه . فلا بد إذن من قوة تحمى التشريع وتقوم على تنفيذه وتقنع النفوس الضعيفة والمتمردة التى لا تحتمل البرهان ولا تنصاع بالدليل بإجلاله واحترامه .

لهذا شرع الإسلام الجهاد وحرص على بنية جندية عامة غايتها مناصرة الحق أينما كان والذود عنه حينما وجد بدون ظلم أو إرهاق أو استغلال مادى أو استعمار نفعى كما قال القرآن الكريم (وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) .

وأجمل ما تكون القوة مع الحق ، ومن هنا أمر الإسلام بالقوة والاستعداد لقوله تعالى :

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) .

ثم وجه هذه القوة أفضل توجيه وأكرمه فى قوله :

(ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا : اعدلوا هو أقرب للتقوى) .

وإنما تكون القوة بالعدد الكثير من العاملين ، وإنما العزة بالتكاثر وكانت القاعدة الأصولية أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، .

وكان من منهجه أن الإسلام عقيدة ووطن وجنسية ، فهو لا يتقيد بهذا التقسيم السياسى فى الوطن الإسلامى العام ، وأرض المسلمين فى نظره واحدة ، فالولادة فى جزء منه قد تسد نقصاً فى جزء آخر .

الفصل الثاني

إن شمس الإسلام لا بد أن تسطع وأن نور الله لا بد أن يضيء الطريق .

سعيد النورسي

جماعة النور على منهج القرآن

فى ذات يوم من أيام حياته الحافلة بالكفاح استرعت اهتمامه التصريحات التى أدلى بها اللورد غلاستون (رئيس وزراء بريطانيا) أمام مجلس العموم البريطانى والتى قال فيها .

[إنه ما دام المسلمون متمسكين بأحكام وتعاليم القرآن فلن يكون لنا عليهم من سلطان وسيسدون أمامنا كل السبل ولن يكون فى إمكاننا التسلط عليهم والأخذ بنواصيهم إلا متى حلنا دونهم ودون القرآن]

فغضب سعيد النورسى غضبة الحق لدينه وأقسم على أن يهب حياته روحاً وجسداً للدفاع عن الإسلام ، وأن يقف جهوده لإحباط هذه النوايا الحاقدة على الإسلام والمسلمين والتى أعرب عنها الوزير الإنجليزى ، وتحول إلى مدينة استانبول يحدوه عزم مؤمن على تأسيس جامعة للدراسات الإسلامية باسم (الزهراء) على غرار الجامع الأزهر .

ولما استعلنت حركة الاتحاد والترقى وتبين أنها تحت سيطرة الماسونية أسس حزباً معارضاً بعنوان (الاتحاد المحمدى) مستلهماً الوحى من العقيدة الإسلامية وأخذ يحرر مجموعة من الدراسات تدعو الشعب إلى التمسك بأهداب القرآن الكريم

ومحذراً مواطنيه من الوقوع فى حبائل الغرب مبيناً لهم أن البديل الوحيد للإسلام هو العبودية للغرب وأن المسير فى ركاب الغرب يؤدى حتماً إلى فناء الذاتية وذوبان الشخصية . ولما قدم للمحاكمة بتهمة الدعوة إلى قيام الشرع الإسلامى قال للقاضى (لو كنت أملك ألف روح لضحيت بها الواحدة تلو الأخرى طائعاً مختاراً فى سبيل الذود عن الإسلام ، إن أى عمل يتناقض مع الإسلام ماهو إلا باطل فى اعتقادى وإننى فى هذه اللحظة لأضع قدمى على أبواب البرزخ فى انتظار الرقدة التى ستقودنى إلى العالم الآخر وأنا مطمئن ومستعد كل الاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية لألحق بجوار أصدقائى الذين تقدمونى والذى أنقذهم قرار محكمتكم الجائر من حياة الطغيان والعلو فى الأرض بغير الحق ، إنهم يتهمونى بأنى أنتقد الماسونية بشدة وعنف ، كما أنتقد بنفس العنف والشدة رجال الصحافة الذين يتخبطون فى حمالها ، ولقد كنت أوضحت منذ قليل أن قيافة الرجل المتهم لا تليق بالرجل الشريف) .

وحكم على التورمى بالإعدام ثم أخلى سبيله لتهدئة ثورة الشعب الساخط الذى قابل حكم الإعدام بمظاهرات صاخبة .

* * *

وفى دمشق تحدث عن الوحدة بين العرب والترك وقال إنها الشرط الأساسى لنهضة الاسلام ، وقال إن المسلمين لو أخلصوا لعقيدتهم ودافعوا عنها بكل قوة وإيمان لأمكن أن تحل الحضارة الاسلامية محل الحضارة الغربية التى ينخرها سوس الأطماع الخسيسة والشقاق فضلا عن أنها خاوية من كل اتجاه روحى .

* * *

وشارك فى الحرب التى حررت تركيا وبعث إلى البرلمان التركى يقول :

« يا أعضاء البرلمان اتقوا يوماً تقفون فيه أمام الله سبحانه وتعالى مالك يوم الدين ولا يغرنكم انتصاركم بالأمس على العدو ودحركم قوات الاحتلال الأجنبى لتفسدوا هذا النصر بسلوك تقليد الأوربيين فإنكم ستفقدون عطف ومؤازرة العالم الاسلامى .

وقال لمصطفى كمال أتاتورك : إن الصلاة هى سيمة المسلم المميزة وبإهمالكم لها إنما تتمردون على الله تبارك وتعالى ، وإذاً فلا سلطان لكم علينا ولا ولاء لكم فى أعناقنا ،

وحاول أتاتورك أن يستدرجه بمنصب الإمام الأكبر لإقليم الأناضول ، ولكنه رفض العرض وفضل الانزواء والبعد عن ضجيج المدن والعاصمة ، حيث نصب نفسه داعية إلى الله ، وجمع حوله ثلة صالحة أخذ يلقنهم القرآن الكريم والتفسير كاشفاً بذلك للشباب عن أسرار نواميس الطبيعة ومختلف القوى العديدة المسخرة لمنفعة الانسان ، شريطة أن يحيا حياته الدنيا ملتزماً بأحكام القرآن الكريم مهتدياً بهدى الرسول ﷺ .

وكان نتيجة ذلك أن أبعد إلى منطقة نائية حيث بقى ثمانية أعوام محروماً من الاتصال بأفراد أسرته وأهله ، مكرهاً على أن يطهو طعامه بنفسه ، ولكن روحانيته كانت فوق المحن والامتحان ، وسرعان ما تسربت إلى سجانيه فأصبحوا من أحسن الناس تديناً وغيرة على العقيدة ، وفى عزلته تهافت زواره على استنساخ ما تنتجه عبقريته المؤمنة من هذا التفسير أولا بأول بحيث لم يمر سوى وقت قصير حتى كانت عشرات الآلاف من مخطوطات هذا التفسير تتناقلها الأيدى وتدرس فى المدن والقرى والمدارس .

* * *

إن كل ما أسعى إليه هو أن أهدى قومى إلى الصراط المستقيم ، صراط الله العزيز الحكيم ، نحن لا ننتمى لأى نحلة ولا ندعو لعصبية ولا لفرقة : الله غايتنا والرسول قائدنا والشرع الشريف دستورنا . ها أنذا أمامكم شيخ يحمل على كتفيه أثقال الثمانين ، رجله فى القبر ، فقير لا يملك من متاع الدنيا لا مالا ولا عقاراً ، فماذا ترونى صانعاً ؟ لقد قضيت حياتى فوق ساحات الوغى ، كما عانيت الاعتقال فى محتشدات الأسرى ، وعشت طريداً فى المنافى والسجون . لقد طاردتمونى من مكان إلى آخر وأبعدتمونى من مدينة إلى أخرى ، كأنى متشرد منبوذ من المجتمع ،

ولم تتورعوا حتى من حرمانى من الاتصال بأهلى وأقاربى . ولولم يكن إيمانى واحتسابى يعصمانى من الوقوع فى وهدة اليأس ، لاستطبت الموت وفضلته على مثل هذه الحياة المنغصة ، ولكن هذه الحياة على غصصها وآلامها أتاحت لى أن أكتب (رسالة النور) التى بفضلها أتيحت السلامة من العذاب الدائم لما يزيد عن نصف مليون من الناس ، فالله أحمد ألف مرة أن وفقنى للتضحية من أجل شعبى ، إن عذاب النار أو نعيم الجنان عندى سيان إذا ما جحد القرآن فى هذه الدنيا .

* * *

ولد الشيخ بديع الزمان النورسى ١٢٩٣ هـ ، قاوم بشدة علمنة الشعب التركى المسلم وكافح بقلمه ولسانه ليحفظ للشعب التركى شخصيته الاسلامية متحكماً إلى شريعة الله وحدها ، شارك فى الحروب الروسية التركية واعتقله الروس بسيبريا سنوات طوالا كان فيها مثال المعلم المسلم المعتز بدينه .

توفى عام ١٢٧٩ هجرية بعد أن بلغ الست والثمانين ، ومات فى ليلة القدر السابع عشر من رمضان .

وما زالت جماعة النور من تلاميذه ومريديه يعملون على تربية الشباب تربية إسلامية فى ضوء القرآن الكريم .

الفصل الثالث

مصطفى صادق الرافعى : الأصالة

قال الرافعى رحمه الله :

لقد أدهشتنى الكلمه التى جرت على قلم يوسف حنا من اعتقادة إنى المختار لحراسة لغة القرآن ، فأنا لم أقل له هذا ولم أعتقدها مطلقاً ، ومن أجل ذلك أثرت فى هذه الكلمة تأثيراً عظيما وعددتها إنباء من الغيب واعتقدتها والظاهر إنها كذلك ، وكان الرافعى يرى أن عليه واجب هو عليه أقدر وبه أجدر أن يكون لدين الله تبارك وتعالى حارساً ونصيراً ، وللغة القرآن حامياً وظهيراً ينفق فيها روحاً من روحه ويرد إليها مكانتها ويذود عنها أعداءها فلم يجترىء مجترىء من أهل الزيغ والضلال على لغة القرآن أو دين الإسلام إلا وتصدى له وكشف عن خبيئة نفسه ، وفند مفترياته وأبطل ادعاءاته ببراهينه الدامغة وعباراته اللاذعة وأسلوبه العربى الرصين .

فالعربيه لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم ، وقد أجمع الاولون والآخرون على إعجازه بفصاحته إلا من لا حظ له من زنديق ، فإذا كان المعجز فى لغة من اللغات بإجماع علمائها وأدبائها هو من قديمها ، فهل يكون الجديد فيها كمالا أم نقصاً ، ثم إن فصاحة القرآن يجب أن تبقى مفهومة ولا بد من الفهم فيها بالمران والمزاولة ، ودرس الأساليب الفصحى والاحتذاء بها وإحكام اللغة والبصر بدقائقها وفنون بلاغتها والحرص على سلامة الذوق فيها ، هذا مما يجعل الترخص فى هذه اللغة وأساليبها ضرب من الفساد ، فلا تزال اللغه كلها مذهباً قديماً وإنما يكون المذهب الجديد فيها رجلا إلى حين .

إن هذه العربية بنيت على أصل سحرى يجعل شبابها خالداً عليها فلا تهرم أو تموت

لأنها أعدت منذ الأزل فلكا دائراً قنيرين الأرضيين العظيمين ، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . ومن ثم كانت فيها قوة عجيبة من الاستهواء لا يملك منها البليغ أن يأخذ أو يدع .

* * *

ويتحدث الرافعى عن الأمم وقيامها وسقوطها فيقول :

ما سقطت دولة إلا ضاعت أمة على طريق الحياة ، إلا كان وراء ذلك كأس وامرأة وترف ، وهذه هى أبواب الشر الثلاث التى حرص الإسلام فى منابعه وفى عباداته أن يسدها فى قوة وصلابة أمام الإنسان المسلم ، ولهذا كان من خصائص هذا الدين أنه صلب بما لا بد منه لحماية الإنسان من استعباد الشهوات والأخذ بشكيمته حتى لا يرتكس فى الانحلال ويتحلل فى بؤرة الترف ، والإسلام فى كل تعاليمه وعباداته إنما ينشد هذه الحماية للإنسان ويتعهده دائماً بالتربية الوجدانية التى تصب الإنسان فى قالب الخلق القويم ، والترف باب الضعف والوهن وطريق التحلل والانحلال للفرد والمجتمع والشعوب .

وما قامت امبراطوريات وانهارت ورحت تلتمس جل ما يمكن أن يكون من علل وأسباب لهذا الانهيار والبوار فلن تجد إلا شيئاً واحداً هو جماع كل العلل والأسباب وأعنى به الترف .

* * *

يقول الأب انستاسى الكرملى فى وصف أسلوب الرافعى :

لقد حل عندى (وحى القلم) محلا رفيعاً لما حوى من مختلف المقالات التى جاءت بأفصح عبارة وأبلغها بل تتحدى كل كاتب أن يأتى بضربيها ، ولا سيما لأن أغلبها لم تمر على خاطر من سبقنا فى الكلام . لهذا اعتبرت دائماً الأستاذ الرافعى جاحظ العصر وابن مقفعة أو بديع زمانه ، وقد نصحت لكثير من أبناء العراق

أن يطالعوا ما كتبه أو يكتبه إذا أرادوا الجرى فالسبق فى ميدان الفصاحة والبلاغة ورفيع الإنشاء .

ومن هنا فنحن نختلف مع الدكتور مصطفى الجوزو فى كتابه (الرافعى رائد الرمزية العربية على السريالية) حيث ربط الأديب الإسلامى بالرومانسية الأوربية مقرراً أن الأثر الرومانتيكى يتجلى عند الرافعى بقدر أو بآخر وهو يعلم (أى الدكتور الجوزو) أن الرومانسية فى بجوهرها تعنى الاستسلام للوجدان الدائم فى عالم الأحلام والدائر على محور الذات الفردية فى مواجهة الكلاسيكية التى تعنى الخضوع لسلطان العقل .

ولقد كان الرافعى أحرص بكثير من معاصريه بأن يقع فى شباك التبعية والتقليد لمفاهيم الغرب وهو القرآ فى المذاهب والمنابع .

وهى خدعة شديدة الخطر أن يوصف كتابيه بأن أحدهم كلاسيكى والآخر رومانسى دون التعرف على هذه التصنيفات ، فقد كان الرافعى مجدداً ولكنه كان أكثر أصالة فلم تخدعه كل الدعوات التى أثيرت فى عصره ، وقد قاومها بشدة وخاصة ما يتصل منها بإخضاع البيان العربى لغير القرآن الكريم .

وكان إيمانه واضحاً بالقيم والضوابط الإسلامية . فالفن عنده لا قيد فيه إلا من أجل الإطلاق لحماية المجتمع . وحتى يحمى الفرد والمجتمع جميعاً من الإنحلال والتمزق .



الفصل الرابع

عبد الحميد بن باديس

الإسلام والعربية والجزائر

لمن أعيش : أعيش للإسلام والجزائر .

قد يقول قائل : إن هذا ضيق فى النظر وتعصب للنفس وقصور فى العمل ، وتقصير فى النفع فليس الإسلام وحده ديناً للبشرية ولا الجزائر وحدها وطن الإنسان ولا لأوطان الإنسانية كلها حق على كل واحد من أبناء الإنسانية ، ولكل دين من أديانها حقه من الاحترام .

فأقول : نعم ، إن خدمة الإنسانية فى جميع شعوبها والحدب عليها فى جميع أوطانها واحترامها فى جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها ـ هو ما نقصده ونرمى إليه ، ونعمل على تربيتنا وتربية من لنا عليه حق ، ولكن هذه الدائرة الإنسانية الواسعة ليس من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة ونفعها دون واسطة ، فوجب التفكير فى الوسائل الموصلة إلى تحقيق هذه الخدمة وإيصال هذا النفع ، ونحن لما نظرنا فى الإسلام وجدناه الدين الذى يحترم الإنسانية فى جميع أجناسها فيقول (ولقد كرمنا بنى آدم) ويقرر التساوى والأخوة بين جميع تلك الأجناس ، ويبين أنهم كانوا أجناساً للتمييز لا للتفضيل ، وأن التفاضل بالأعمال الصالحة فيقول :

(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

ويدعو تلك الأجناس إلى التعاطف والالتزام بما يجمعها من وحدة الأصل

ووشائج القرابة القريبة والبعيدة ويقرر التضامن الإنساني العام بأن الإحسان إلى واحد إحسان إلى الجميع ، والإساءة إلى واحد إساءة إلى الجميع .

ويعترف بالأديان الأخرى ويخدمها ويسلم أمر التصرف فيها لأهلها ، ويقرر شرائع الأمم ويهون عليها شأن الاختلاف ويدعوها إلى التسابق في الخيرات ، ويأمر بالعدل العام مع العدو والصديق ، ويحرم الاعتداء تحريماً عاماً على البغيض والحبيب ، ويأمر بالإحسان العام وبحسن التخاطب .

فإذا عرفنا هذا وأكثر من هذا في الإسلام (وهو الدين الذي فطرنا عليه الله بفضله) علمنا أنه دين الإنسانية الذي لا نجاة لها ولا سعادة إلا به ، وأن خدمتها لا تكون إلا على أصوله وأن إيصال النفع إليها لا يكون إلا من طريقه ، فعاهدنا الله (تبارك وتعالى) على أن نقف حياتنا على خدمته ونشر هدايته وخدمة كل ما هو بسبيله ومن ناحيته ، فإذا عشت له فإنني أعيش للإنسانية ، لخيرها وسعادتها ، في جميع أجناسها ، وأوطانها ، وفي جميع مظاهر عالمها وتفكيرها ، وما كنا لنكون هكذا إلا بالإسلام الذي ندين به ونعيش له ونعمل من أجله .

فهذا معنى قولي : إنني أعيش للإسلام

أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي يربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل ، بوجه خاص ، وتفرض تلك الروابط لأهله - كجزء منه - فروضاً خاصة ، وأن أشعر بأن كل مقوماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة .

فأرى من الواجب على أن تكون خدماتي أول ما تتصل بشيء أن تتصل به مباشرة ، وكما إنني كلما أردت أن أعمل عملا وجدتني في حاجة إليه : إلى رجاله وإلى ماله وإلى آلامه وإلى آماله ، وكذلك أجدني إذا عملت قد خدمت بعملي ناحية أو أكثر ، مما كنت في حاجة إليه ، هكذا هذا الاتصال المباشر أجده بيني وبين وطني الخاص في كل حال وفي جميع الأعمال .

نعم : إن لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطاناً أخرى عزيزة علينا هي دائماً

منا على بال ، ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص نعتقد أنه لا بد أن نكون قد خدمناها وأوصلنا إليها النفع ، والخير عن طريق خدمتنا لوطننا الخاص وأقرب هذه الأوطان إلينا هى : المغرب الأدنى والمغرب الأقصى ، اللذان ما هما والمغرب الأوسط إلا وطن واحد ، لغة ودنيا وعقيدة وآداباً وأخلاقاً وتاريخاً ومصلحة ، ثم الوطن العربى الإسلامى ، ثم وطن الإنسانية العام .

ولن نستطيع أن نؤدى خدمة مثمرة لشىء من هذا كله إلا إذا خدمنا الجزائر وما مثلنا فى وطننا الخاص - وكل ذى وطن خاص - إلا كمثل جماعة ذوى بيوت من قرية واحدة ، فبخدمة كل واحد لبيته تتكون من مجموع البيوت قرية سعيدة راقية ، ومن ضيع بيته فهو لما سواه أضيع ، وبقدر قيام كل منا بأمر بيته ترتقى القرية وتسعد ، وبقدر إهمال كل واحد لبيته تشقى القرية وتنحط ، فنحن إذا كنا نخدم الجزائر فلسنا نخدمها على حساب غيرها ولا للإضرار بسواها - معاذ الله - ولكن لننفعها وننفع ما اتصل بها من الأوطان الأقرب فالأقرب . هذا مرادى بقولى : إنى أعيش للجزائر .

* * *

• هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هى فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت بل هى أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد فى لغتها وفى أخلاقها وفى عنصرها وفى دينها ، ولا تريد أن تندمج ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائرى بحدوده الحالية المعروفة .

• إنا نرى أن الأمة الجزائرية موجودة ومتكونة على مثال ما تكونت سائر أمم الأرض ، وهى لا تزال حية ولم تزل ، ولهذه الأمة تاريخها اللامع ووحدتها الدينية واللغوية ، ولها ثقافتها وتقاليدها مثل سائر أمم الدنيا .

* * *

إن الإسلام هو دين الله ويجب أن يكون أيضاً هو دين الإنسانية لما فيه

من سمو فهو دين يكبر العقل ويمجده ، ويدعو إلى تطبيق جميع أعمال الحياة على أحكام المنطق ، والإسلام يستنكر استعباد الإنسان لأخيه الإنسان ، كما يستنكر الطغيان فى جميع مظاهره واشكاله ، والإسلام دين ديمقراطى فى كل شىء ، فهو لا يقبل بالاستبداد مطلقاً ، وهو دين إحقاق الحق لكل إنسان عادل ومنصف . إن الإسلام نظام اجتماعى يستجيب لكل مقتضيات الحياة فى جميع البلاد وفى مختلف العصور وتعاليمه وحدها هى التى تستطيع أن تسمح للبشرية بإقامة سعادتها .

* * *

قمنا بالدعوة إلى ما كان عليه السلف الصالح من التمسك بالقرآن الشريف والصحيح من السنة المطهرة ، عرف القائمون بتلك الدعوة مايلاقونه من مصاعب فى طريقهم من وضع الدين ، شبوا على ما وجدوا عليه آباءهم من خلق التساهل التى ألصقها بالدين المغرضون وأعداء الإسلام .

وأقدم القائمون على الدعوة محافظة على جوهر الإسلام الذى به فحسب ، أفلح المسلمون يوم كانوا جد حريصين على تعاليم الإسلام ، كما أفلح من قبلهم الصدر الاول . وثانياً رغبة فى انتشال الشباب المثقف بالثقافة الجديدة من وهدة الشك فى كل شىء يغرى إلى الدين بسبب ما يجده من خرافات تذرى إلى دين اشتهر باتصاله بالعقل اتصالا وثيقاً .

كان الإقدام على انتشال هذه الطبقة من الشباب من أوكد الواجبات فى مثل هذه الظروف التى طغى فيها تيار المادة على كل شىء ، سيما وقد أوشك الإلحاد والمروق من الدين أن يحتوى تلك الطبقة التى هى عدتنا فى المجتمع الجزائرى الإسلامى ، وقد شجعها على ذلك ما تقرؤه وتطلع عليه من سخافات الطقوس المسيحية وغيرها .

* * *

إن هذه الامة كانت قبل الاستعمار ذات مقومات فى دينها ولسانها وذاتها

مقومات من ماضيها وحاضرها ، كانت أرقى عقلا وأسمى روحاً وأوفر علماً وأعلى فكراً من أمم البلقان لذلك العهد ، ولو سارت سيرها الطبيعي ولم يعترضها الاستعمار لانجبت المعلم الذى يعلي الحكمة ، إننا أمة علم ودين لم ينقطع سندنا فيهما إلى أبنائنا الأولين ، فلو أن العلم الذى جاءتنا به فرنسا كان علماً ناضجاً ولم يظاهره الاستعمار لظهرت آثاره الطيبة فى الأمة .

* * *

لقد حوربت فيكم يا أهل الجزائر العروبة حتى ظن أن قد مات فيكم عرقها ومسخ فيكم نطقها فجئتم بعد قرن تصدع بلابلكم بأشعارها فتثير الشعور والمشاعر ويهدر خطباؤكم بشقاشقها فتدك الحصون والمعاقل .

وحورب فيكم الإسلام حتى ظن أن قد طمست أمامكم معالمه وانتزعت منكم عقائده ومكارمه فجئتم بعد قرن ترفعون علم التوحيد وتنشرون من الاصلاح لواء التجديد وتدعون إلى الاسلام كما جاء به محمد ﷺ وكما يرضى الله لا كما حرفه الجاهلون وشوهه الدجالون .

وحورب فيكم العلم حتى ظن أن قد رضيتم بالجهالة وأخلدتم للنذالة ، ونسيتم كل علم إلا ما رشح به لكم ، أو بما يخرج بما هو أضر من الجهل عليكم ، فجئتم بعد قرن ترفعون للعلم بناء شامخاً وتشيدون له صرحاً سامقاً فأسستم على قواعد الاسلام والعروبة والعلم والفضيلة جمعيتكم هذه : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

شعب الجزائر مسلم ... وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله ... أو قال مات فقد كذب
يا نشء أنت رجاؤنا ... وبك الصباح قد اقترب
خذ للحياة سلاحها ... وخض الخطوب ولا تهب
من كان يبغى ودنا ... فله الكرامة والرحب

وكان يبغى ذلنـا فله المهـانة والحرب
هـذا نظـام حياتنـا بالنور خط وباللهب
حتى يعـود لشـعبنـا من مجده ما قد ذهب
هـذا لكم عهـدى به حتى أوسـد فى الترب
فإذا هلـكت فصيحتى يحيى الجزائر والعرب

* * *

من رام أن يحول بيننا وبين فكرتنا التى نؤمن بها ويؤمن بها المؤمنون الصادقون فقد حاول عبثاً قلب الحقائق ، ونحن لذلك لا نتزحزح عن تلك الفكرة قيد شعره مما طمى سيل الكوارث على أمة لها ما للشعب الجزائرى من الصفات المرغوب فيها الكامنة كمون النور فى الكهرباء .

إن هذا العبد له فكرة معروفة وهو لن يحيد عنها ولكنه ـ وهنا محل الشاهد ـ يبلغها بالتى هى أحسن ، فمن قبلها فهو أخ فى الله ، ومن ردها فهو أخ فى الله ، فالأخوة فى الله فوق ما تقبل وما ترد .

إننا نريد نهضة شعبية قوية ، نبنى بها شخصية الشعب الجزائرى ، ونكشف له عن مجد الماضى بما ينير له طريق الحياة من جديد ، نريد انقلاباً يرتكز على إعداد نشء صالح تتمثل فيه عبقرية الجدود فتنهض نهضة إسلامية عربية تأخذ من عظمة الماضى ويقظة الحاضر ما يعصمها من الزلل والانحراف وهى تسير فى طريق المستقبل وتتطلع إلى إشراق شمس ذلك اليوم .

* * *

على مرشدى المسلمين أن يعالجوا أدواءهم بالعلاجات النافعة ويشخصوها لهم عند الحاجة بالعبارات الرقيقة المؤثرة فى رفق وهوادة ، مجتنبين كل ما فيه تقنيط أو تثبيط ، وأن يعرفوهم بأنهم وإن ساءت نواح من أحوالهم فهناك

نواح لا تزال صالحة ، وهناك علاجات من الإسلام قريبة وناجعة وأن يعرفوهم ما فيهم من فضائل وما لهم من مجد وما لهم بهذا الإسلام قدر وعز ليثيروا فيهم النخوة ويبعوثهم على العمل والخير .

هذا أصل عظيم فى التربية المبنية على علم النفسية البشرية ، فإن النفوس عندما تشعر بحقارتها وعجزها تقعد عن العمل ، لحذار من تحقير الناس ، فإن التحقير والتقنيط وقطع حبل الرجاء قتل للنفوس ، نفوس الأفراد والجماعات وفى المثل إذا سمعت الرجل يقول : هلك الناس فهو أهلكهم .

* * *

نحن المسلمين ربينا تربية إسلامية على ألم الجوع والتقلل من الأكل والاقتصاد على قدر الحاجة ، فطعام الواحد يكفى الاثنين . بهذه التربية استطعنا أن نبقى ونعيش ، كما ربانا الإسلام هذه التربية من ناحية الغذاء فقد ربانا تربية أخرى ، من نواحى أخرى ، ربانا على حب العلم والمعرفة والرغبة فيهما والاحترام لمن له حظ منهما ، وبهذه التربية استطعنا أن نحافظ على تراثنا وخطنا وبقايا علوم لغتنا ولولا تلك التربية الإسلامية التى زرعتها القرون فاستقرت فى قرارات النفوس وصارت من الخلق الموروث لكان ما نحن فيه من ظلم وتعاسة وتقديم كل أحد علينا فى وطننا شاغلا لنا عن العلم وعن الشعور به .

* * *

أنا أحارب الاستعمار بأن أعلم وأهذب ، ومتى انتشر التعليم والتهذيب فى أرض أجدبت على الاستعمار .

ها أنذا أعاهدكم على أن أجعل حياتى وقفاً مؤبداً على الاسلام عموماً والأمة الجزائرية خصوصاً ما بقيت الروح .

الفصل الخامس

عبد الحليم محمود

الإســـلام والأزهر

درست علم النفس وتاريخ الأديان وعلم الاجتماع والفلسفة فى السربون ، وأعددت الدكتوراه عن التصوف الإسلامى من خلال شخصية الحارث بن أسد المحاسبى منهجى الاتباع ، وهو المبدأ الإسلامى الذى يدين به كل باحث صاحبه شعور صادق من المؤمنين ، لا طريق للنجاة بالنسبة للفرد ولا طريق للنجاة بالنسبة للأمة إلا إذا اتخذت من رسول الله أسوة تتبع طريقه على هدى وتلتزم سبيله فى صدق :

كان رسول الله ﷺ خلقه القرآن ، اقرأ سورة المؤمنون (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله) .

منهج الاتباع هو منهج الربانية ـ خصصت كتاب الاسلام والعقل لشرح منهج الاتباع ، أؤمن بأن الحضارة المادية الحديثة والقديمة فى دقائقها وفى عظمتها إنما هى أثر من آثار العقل ، بيد أن الدين إنما هو وحى ، والوحى يتبع ، والاتباع هو منهج التدين فى مسائل الدين إن الله اشترى (تعاقد بين الله والمؤمنين) وعهد الايمان من شروطه الجود بالمال والنفس ، أصبحت العربية بنزول القرآن لغة مقدسة .

* * *

كان الأزهر بالنسبة له كل شىء ، وعاش معنياً برفع مقداره وإعادة أوقافه وإصلاح نظمه .

لما حدث فى تركيا إلغاء الخلافة تطلعت العيون إلى الأزهر إذ كان لا بد للناس من أب روحى ، ونظروا إلى شيخ الأزهر على أنه شيخ الاسلام ، واحتلت مصر منذ ذلك الحين مركز الزعامة الدينية فى العالم الاسلامى ، لقد قام الأزهر طيلة وقته فى وجه الزحف الفكرى ليعلن للناس رسالة الله تبارك وتعالى آخر الرسالات صافية نقية .

وهذه المكانة للأزهر يعترف بها المستعمرون والمبشرون ، يقول أحدهم : إن العمامة البيضاء فى أفريقيا أخطر علينا من القنبلة الذرية .

ولقد تكاثفت عوامل كثيرة على النزول بالأزهر عن مكانه وأهمها الاستعمار والتبشير ، إذ كان لابد فى نظر أعداء الاسلام من هدم الأزهر وبدأت عوامل الهدم ، بدأت السخرية بعلماء الأزهر فى التعليم ، بدأ ذلك فى التمثيلات وفى الأفلام وفى الصحف والمجلات ، وكان المثل الصارخ تلك القصة التى كتبها أحد كبار الكتاب فى فرنسا ، واتخذ من قسيس منها مجالا لسخريته وتهكمه ، فإذا التلفزيون يخرجها أياماً متوالية متخذاً منها شيخاً مجالا لتهكمه وسخريته ، ولم يجد المخرج من يقول له :

إن هذا انحراف ولم يعاقبه أحد ولم يسىء إليه إنسان ، وهذه الأقلام المأجورة التى تكتب هنا وهناك عن التشكيك فى الدين وفى القيم الأخلاقية وفى الهجوم على التشريع الالهى إنها لا تجد من يقول لها : إنك أقلام مأجورة .

أقل ما يمكن أن يزجوا فى السجن لتخرس منهم الألسنة .

إن لكل بلد مقدسات ومن مقدسات أمريكا مثلا : النظام الرأسمالى ، ومن مقدسات روسيا النظام الشيوعى ، وهذه المقدسات لا تمس ، أليست العقيدة من المقدسات التى لا تمس .

إن المنحرفين عقدياً ، والمنحرفين أخلاقياً ، والمنحرفين اجتماعيا على اختلاف ألوانهم يسرحون ويمرحون كيفما شاءوا فى الأقطار العربية فلا يجدون

من يردعهم ، وتتكاتف الأقلام المأجورة والأقلام المستوردة أو المنحرفة ووسائل الإعلام فى العمل على التشكيك فى العقيدة والقيم الأخلاقية والتشريع الربانى ونشر التحلل الأخلاقى بكل الطرق .

وهذه الآراء المنشورة التى تتنافى مع الدين ومع الفضيلة والتى يروجها اليهود فى كل مكان هل تجد من يقف فى وجهها ، لقد رتبوا لنجاح كارل ماركس ، ولما قيل له إن الناس لا يعيشون بغير عقيدة ؟ قال : إن البديل للدين هو المسرح ، ألهوهم بالمسرح ، ونشروا المسرح فى كل مكان ليجد الناس فيه البديل عن الدين ثم إن الشيوعية عقيدة .

ومعاول الشيوعية تنال من الدين فى كل مكان تسود فيه الشيوعية ، وداروين هو صاحب نظرية التطور والارتقاء ، والإنسان أصله قرد ، وهى نظرية تتنافى مع كل الأديان التى ارتقت بالانسان معبرة عن الحقيقة الكريمة : الإنسانية أصلها آدم خلقه الله بيديه وسواه ونفخ فيه من روحه وبدأ إقامته فى الجنة .

نظرية داروين لم تثبت وهى كل يوم تزداد ضعفاً .

إن الانسانية متطورة فى العلوم المادية المكتسبة .

هذه حقيقة لا جدال فيها .

ولكن الفكر (عقيدة وشريعة وأخلاقاً) والذهن والذكاء والعقل كل ذلك لا تطور فيه .

وإذا قلت إن الانسانية متطورة عقلا وذكاء وذهناً فإنك تكون قد هدمت كل القيم الفاضلة بجرة قلم ، ذلك إنه ما دامت الانسانية متطورة ، فإن كل قيمها الفاضلة الحالية نسبية متطورة معها ، فلا يتأتى الحديث عن حق فى العقيدة والأخلاق والتشريع ونظام المجتمع ، وتنهار الأخلاق والأديان والمثل ولا يصبح للإنسانية إلا الشهوات والغرائز إذا خضعت القيم العليا للنسبية والتطور ، وثمرة نظرية داروين هدم القيم العليا ، ومن أجل ذلك رتب اليهود نجاحها .

ورتب اليهود نجاح فرويد الذى يقول : إن الغريزة الجنسيه هى كل سعى الانسان لإرضاء هذه الغريزة ، حتى الرحمة والرأفة والمروءة تقوم على الغريزة الجنسية .

ورتب اليهود نجاح نيتشه المنكر للإديان والألوهية والأخلاق ، ويجدد دعوة أبيقور للاستمتاع بأى وسيلة ، ومن ذلك مقولته : إن ما تعارف عليه الناس من أخلاق وفضائل إنما هو ضعف فى الطبيعة .

لقد رتب اليهود نجاح هؤلاء ونجاح كل مفسد .

* * *

وقد وقف الأزهر فى وجه كل ذلك ، إن الأزهر فى محنته الحالية لا يجد من يأخذ بيده من هؤلاء المؤمنين ، بينما يتكاتف المبطلون على النيل من الأزهر . ما هو الأزهر ؟ إنه الممثل للإسلام القائم على نشره ، إنه رمز الإسلام فإذا أدين فقد نيل من الاسلام نفسه ». ا . هـ

* * *

ولقد دعا الدكتور عبد الحليم محمود إلى استعادة أوقاف الأزهر . يقول : لقد كان موقوفاً على الأزهر ما لا يكاد يحصى من أموال ، وكان الأزهر يعيش فى حدود أوقافه كريم النفس رافع الرأس ، وكان صدر الحاكين يضيق أحياناً بما كان لهم فى إخضاع الأزهر من سبيل من ناحية الرزق .

لم يكن الأزهر فى ذلك الوقت عالة على الحكومة ، ذلك لأن الأزهر حفظ على الأمة لغتها وإيمانها فوقفت له الأمة من أجل ذلك بإجلالها واحترامها وبأوقاف كثيرة وقفتها عليه .

ثم أخذ الحاكون فى عصر محمد على يحتالون للأمر حتى أمكنهم بالمكر والخديعة أن يستولوا على أوقاف الأزهر ويعطوه مالا من خزينة الدولة يضيق عليه منه سنويا .

وأصبح الأزهر فى ضيق يزداد ضيقاً كل عام .

أما أوقاف الأزهر التى أخذت منه بالمكر والخديعة فإنها شرعاً ما زالت له ، لأن أوقاف البر لا تؤخذ هكذا ولا يغير مصرفها ، وكل هؤلاء الذين استولوا عليها إنما يأكلون حراماً . ومن يأكل حراماً لا يقبل الله منه عملا ، وأن الرجل ليقذف باللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً ، كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن الأوقاف الخيرة لأهلها لا تباع ولا تصرف فى غير مصارفها . وأنها لما وقفت عليه وإلا فهى تصيب المتسبب والآكل والمالك والمحيط كله . وكما اغتصبت دولة محمد على هذه الأوقاف فإنها يجب أن ترده ثانية ، اهـ .

* * *

ولقد كان من أعظم الأعمال التى أقدم عليها الدكتور عبد الحليم محمود : إنه قرر إعلان مشروع دستور إسلامى للحكم وكون لجنة لهذا الغرض من كبار رجال الأمة ومن كبار المستشارين ورجال القانون ، كما أنه قام بأول عمل فى تقنين الشريعة الإسلامية ، فأعد لجاناً لذلك على المذاهب الأربعة . لإعداد تشريع كامل مأخوذ من هذه المذاهب بما يتفق مع المصلحة والظروف وبما لا يخرج عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد انتهت هذه اللجان من تقنيناتها فى المعاملات والحدود .



الباب السادس

الأصوليون

محمد الغزالي
محمد محمد حسين
علي سامي النشار
مولود قاسم
المهدي بن عبود
محمد المجذوب
مريم جميلة

الفصل الأول

الشيخ محمد الغزالي

خدمة الإسلام

أرى أن خدمة الإسلام تعتمد على عقل ناضج وعلى دراسة عميقة وواسعة لفرعين من فروع المعرفة :

أولهما : الثقافة الإسلامية فى مدارسها المختلفة .

ثانيهما : الثقافة الإنسانية بحيث نحيط بما وصل إليه غيرنا من معرفة وكيف نسخر هذه المعرفة لخدمة مآربه .

إن المسلمين فى عالم اليوم يبلغون المليار شخص وربما بلغ عددهم مائة وألف مليون نسمة . فهم يمثلون خمس سكان البشرية فى العالم ، فكيف نكون غرباء فى عالم اليوم مع أن ديننا جاء للبشرية كلها وجاء نبينا رحمة بأهل الأرض أجمعين .

إن مقاومة الأفكار العالمية المنحرفة لا يتبغى أن يقوم بها مذهب إسلامى واحد بل تعتمد على تراث الإسلام كله فى مواجهتهم .

إن المسلمين يملكون حضارة علمية لا نظير لها ، ولكنهم يعيشون على هامشها وأنا أريد من المسلمين أن يكونوا أبناء دينهم وأن يدخلوا فى الإسلام دخولا حقيقياً . لقد فجر القرآن الكريم الطاقة الإنسانية وأنشأ حضارة كان المسلمون فيها هم العالم الأول على امتداد ألف سنة فما الذى جعل الأمة الإسلامية تتخلف على هذا النحو .

إن الحق الذى ينبغى أن يقال هو أن نفاذ الوقود فى المصباح الإسلامى

هو الذى أطفأه ونفاذ الوقود إنما جاء من داخلنا نحن لأننا لم نكن أمناء فى تبليغ رسالتنا ، ولا تزال أمتنا إلى الآن تضطرب داخل معلومات تافهة تشغلها الفروع عن الأصول والهوامش عن الصميم .

* * *

أنا أصدر فيما أعرضه من الرسالة الإسلامية عن السلفية الصحيحة ، ولكن هذه السلفية لا تنكر لعلماء الخلف جهودهم ، إنى سلفى ولله الحمد ، وأنا أستنير فيما أصدر عنه بكتاب الله وسنة رسوله ، ولا أكترث لكلام الآخرين ، لأن همى هو عرض الرسالة الإسلامية ، لا فى ميدان العقيدة وحدها بل فى ميدان الفقه ، أنتقل بين فقه الأئمة لأختار منه ما هو أوفق لعصرنا وأرعى لمصالح الدعوة خارج الحدود الإسلامية ، فإذا عوق فكر إسلامى فى فقه الفروع الدعوة عن مسارها تجاوزته وأخذت بغيره من أنواع الفقه التى تصلح فى ترغيب الآخرين فى ديننا بحيث يأنسون إليه ولا يرون حرجاً فى الدخول فيه .

إننى أنتقى من الفقه ما يصلح لخدمة الأصول ولجعل الدعوة تنطلق إلى حدود ما وراء الإسلام دون عوائق .

* * *

أخاف أن يحارب الإسلام تحت عنوان محاربة التطرف ، وأشعر بقلق حين أرى البعض وهو يحارب التطرف والاعتدال معاً ، فماذا يبقى إذن من الإسلام ؟ .

نحن نحارب التطرف ولكننا نعرض الإسلام الذى لا تطرف فيه .

لنكن على يقين من أن رب العالمين لا يسوق النصر جزافاً ولا يجعل النتائج السليمة تخرج من مقدمات مختلفة ، بل لا بد من تنظيم المقدمات حتى تعطى نتائج صحيحة ، والدين هنا واضح فى أن لله سنناً فى الكون وسنناً فى المجتمعات ، فإذا

كانت السنن الكونية لا تتخلف ، وإذا كان علماء الهندسة مثلا يقولون إن مجموع زوايا المثلث تساوى قائمتين ولا يمكن إلا تحقيق ذلك ، فهذه حقيقة رياضية أيضاً من الحقائق الاجتماعية أن الأمة التى تجمع بين التقوى والصبر لا بد أن تنتصر ، فإن فقدت التقوى وسادها الجزع والشر وطاب اللهو فإنه لا بد أن تنهزم ، وهذه القوانين تساوى فى قوتها القوانين الرياضية والله تعالى يقول : (ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

* * *

أنظر إلى الصحوة الإسلامية المعاصرة بكثير من الاشفاق وكثير من القلق . نعم هناك صحوة إسلامية ، لقد زرت سيريلانكا والتقيت هناك مع إمام أمريكى دخل فى الإسلام حديثاً ووجدته يؤم الناس بالقرآن ، فهو حافظ له ، وجلسنا سوياً أسبوعين ودار حديثنا حول أشياء كثيرة فى المؤسسات الإسلامية ، هناك نهضة إسلامية ، ووصلت على شاطىء الأطلسى وفى موريتانيا وجدت نهضة إسلامية ، وفى كل مكان زرته وجدت ما يعرف بالصحوة الإسلامية ، لكن هناك بعض المشتغلين بالنهضة ، بعضهم لا يعى حقيقة الدين الإسلامى .

هناك بعض المشتغلين فى العمل الإسلامى أخذوا الفكر الإسلامى من القراءات القديمة جداً ، وبعض الدعاة لديهم طفولة لا ترى إلا السطحيات .

الأمم الطفلة تنظر إلى مظاهر التدين وتقف عندها ولا تدرى ما بعدها ، الطفولة العقلية تجعلنا ننسى الحقائق الكبرى فى عقيدتنا ، وهؤلاء مثل الأطفال الذين أخذوا المظهر التمثيلى دون الجوهر .

إن نصرة الإسلام تتطلب جواً معيناً إذا لم نحسن التقلب فيه والتصرف فى أرجائه لن ننجح ، فلا بد من تربية نفسية وعقلية عميقة ، ولا بد من إنتاج صناعى زراعى واقتصاد مقتدر ، جدير بأن يساند الدعوة الإسلامية فى الداخل والخارج .

إن الصحوة الإسلامية لكى تكون صحوة حقيقية يجب أن تتغلغل فى الجماهير لكى تجعل تربية مكان تربية ، وعلماً مكان علم ، ولكى تجعل أخلاقاً مكان أخلاق وتقاليد مكان تقاليد .

الجهاد الآن يحتاج إلى خبرة فى البر والبحر والجو ، تعلموا من محمد ﷺ حقيقة الإسلام . ولا تتعلموا المظاهر الفارغة ، هذه طفولة عقلية ، تغلغلوا فى دراسة السيرة ، وفى دراسة القرآن ، الإسلام واسع وخصب وملىء ، ولكن يحتاج إلى دراسة .

• • •

نريد للصحوة الإسلامية المعاصرة أمرين :
أولهما : البعد عن الأخطاء التى انحرفت بالأمة وأذهبت روحها وأطمعت فيها عدوها .

والآخر : إعطاء صورة عملية للإسلام تعجب الرائين وتمحو الشبهات القديمة وتنصف الوحى الإلهى .

ويؤسفنى أن بعض المنسوبين إلى هذه الصحوة فشل فى تحقيق الأمرين جميعاً ، بل ربما نجح فى إخافة الناس من الإسلام ومكن خصومه من بسط ألسنتهم فيه .

• • •

إن أنفاس « الأم » عميقة الأثر فى إنضاج الفضائل وحماية النشء ، ويجب أن نبحث عن أى وسيلة لتقريب المرأة من وظيفتها الأولى ، وهذا ميسور لو فهمنا الدين على وجهه الصحيح وتركنا الانحراف والغلو ، أعرف أمهات فاضلات مديرات لمدارس ناجحة ، وأعرف طبيبات ماهرات شرفن أسرهن ووظائفهن وكان التدين الصحيح من وراء ذلك كله ، أكره البيوت الخالية من رباتها .

إن ربة البيت روح ينفث فيه الهناءة والمودة فى جنباته وتعين على تكوين إنسان سوى طيب ، وكل ما يشغل المرأة من هذه الوظيفة يحتاج إلى دراسة ومراجعة . والدين الصحيح يأبى تقاليد أمم تحبس النساء وتضيق عليهم الخناق وتضن عليهن بشتى الحقوق والواجبات ، كما يأبى تقاليد أمم أخرى جعلت الأعراض كلأ مباحاً وأهملت شرائع الله كلها عندما تركت الغرائز تتنفس كيف تشاء .

* * *

يجب أن ندرس التاريخ الإسلامى على أساس أننا ما هزمنا أعدائنا وإنما هو تاريخ أمة فرطت فى أمر الله فعوقبت .

ولكى يكون التاريخ صحيحاً يجب استيعاب الحقائق ، ليس التاريخ سجلا لوفيات أو حياة لبعض الناس ، أمر ثالث خطير هو محاكمة وقائع التاريخ للتوجيهات الإلهية . ولنذكر دائماً فى يقظة ووعى جهود أعداء الإسلام لينسى المسلمون تاريخهم . قال صلى الله عليه وسلم : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله » يقومون بثلاث :

— ينفون عنه تحريف الغالية .

— وانتحال المبطلين .

— وتأويل الجاهلين .

ولنذكر قول ابن كثير فى معركة سقوط بغداد :
قتل المسلمون فى بغداد والنصارى لم يصبهم شىء .

وكان لويس التاسع قد اتفق مع التتار أن يهاجموا بغداد ويتولى هو والآخرين مصر والشام ، وقد أرسل لجنة المغول يرأسها راهب من الدومينكان متزوج أميرة مسيحية ، وكان القائد كشبغا أيضاً مسيحى .

وفى حملة بيت المقدس فى الحملة الصليبية الاولى كان القتلى عشرات الالوف فى أنطاكية وبيت المقدس ، وبلغت أكوام الجثث ارتفاع بيت من أربع طوابق

أكان الصليبيون جديرين بهذا النصر الخسيس أو قادرين على إحراز شيء منه .
لقد كان المرمى خالياً من الحراس فسجلت فيه إصابات لا حصر لها .

قال التاريخ ما تحركت عاصمة إسلامية فى المشرق أو المغرب عندما وقع هذا البلاء ، كان المسلمون فى حالة مفزعة من الانقسام والفوضى والانحصار فى مآربهم الدنيا .

يجب أن يكون فى ثقافتنا علم للتاريخ يحصى الهزائم والانتصارات ويسجل الأرباح والخسائر ويروى للأخلاف ما أصاب الأسلاف .

* * *

لنكن على يقين من أن رب العالمين لا يسوق النصر جزافاً ولا يجعل النتائج السليمة تخرج من مقدمات مختلفة بل لا بد من تنظيم المقدمات حتى تعطى نتائج صحيحة .

والدين هنا واضح فى أن لله (تبارك وتعالى) سنناً فى الكون وسنناً فى المجتمعات ، فإذا كانت السنن الكونية لا تتخلف ، وإذا كان علماء الهندسة مثلا يقولون إن مجموع زوايا المثلث تساوى قائمتين ولا يمكن إلا تحقيق ذلك ، فهذه حقيقة رياضية أيضاً من الحقائق الاجتماعية ، إن الأمة التى تجمع بين التقوى والصبر لا بد أن تنتصر ، فإن فقدت التقوى وسادها الجزع والشر وطلب اللهو فإنه لا بد أن تنهزم ، وهذه القوانين تساوى فى قوتها القوانين الرياضية ، والله تعالى يقول :

(ولن تجد لسنة الله تبديلا)

الفصل الثاني

محمد محمد حسين

كشف محاذير التبعية

---

(١) الدعوة إلى تطوير قواعد اللغة العربية :

وهذه الدعوة التي يسمونها تهذيباً وتيسيراً أو إصلاحاً تعني شيئاً واحداً هو التحلل من القوانين التي صانت اللغة العربية خلال ألف عام أو يزيد .

وقد اقترنت هذه الدعوة بصعوبة قواعد اللغة العربية وتوقفها عن النمو والتطور وتخلفها عن مسايرة العصر والانتفاع بما استحدثه الدارسون .

وهي دعوة باطلة من وجهين : هي باطلة أولا لأنها تتجاهل سنة الله (تبارك وتعالى) حين خلق الناس شعوباً وقبائل ، وكان من آياته وسننه فيهم اختلاف ألسنتهم ، وطبيعي حين تختلف الألسنة أن تختلف قواعدها لأن القواعد التي تنظم كل لغة بل كل مجتمع تنبع من واقعها وتلائم طبيعتها ونظامها .

ومحاولة توحيد القواعد والنظم في اللذات أو في الجماعات البشرية على وجه العموم ومن حيث يعلم الداعون لها أو لا يعلمون فرع من محاولات متعددة تتجه كلها إلى هدف واحد هو طمس الفوارق المميزة بين الأجناس والجماعات البشرية دينية كانت هذه الفوارق أو قومية أو فنية جمالية هو مما تسعى إليه الصهيونية العالمية حتى تنحل الروابط التي تقوم عليها المجتمعات البشرية المختلفة فلا يبقى على وجه الأرض مجتمع متماسك غير المجتمع الإسرائيلي .

الوجه الآخر : إن أصحابها حين عاينوا الداء لم يصيبوا الدواء ، رأوا ضعف

الجيل الناشيء فى اللغة العربية وانصرافه عن تراثها وعجزه عن تذوق أساليبها وروائع آدابها ، فظنوا أن العلة فى قواعد هذه اللغة ، والحقيقة أن العلة فى الذين يعلمون القواعد أو ينقلونها فكلاهما مقصر ، وكلاهما مبتلى بما ابتليت به الأمة العربية فى سائر مناشطها من العجز والتفريط وضعف الهمم .

وقد ظلت هذه اللغة قروناً طوالا تزيد على ألف عام صلحت فيها لمواكبة الأجواء الحضارية التى تقلبوا فيها بين مشارق الأرض ومغاربها لم تضق بشيء منها ولم يتنبهوا إلى وجود هذا النقص فى اللغة إلا فى نصف القرن الأخير تقليداً لدعاة المستعمرين الذين أخذوا يؤلفون الكتب فى اللهجات العامية واقترحوا هذه اللهجات لغات لتحل محل العربية الموحدة فى تذوق العلم والأدب ، كما اقترحوا كتابتها بالحروف اللاتينية .

وخطر هذه الدعوات على التراث الإسلامى وعلى الأجيال التالية من أبناء المسلمين وأبناء العرب خاصة واضح لا شك فيه فكلها ترمى إلى عزل هذه الأجيال عن تراثها بتغيير رسم الخط تارة وبتطوير اللغة تارة أخرى ، وبتغيير مصطلح العلوم اللغوية من نحو وصرف وبلاغة تارة ثالثة ، وهو مصطلح يشيع استعماله فى كل كتب التراث من تفسير القرآن الكريم وشرح الحديث الشريف وشرح النصوص .

ثم جاءت بعد ذلك خطوات لتطبق أساليب جديدة منقولة من دراسات اللغات الغربية أو علم اللغة العامة ، واقترنت هذه الدعوة بالعناية باللهجات العامية وآدابها أو ما يسمونه (الأدب الشعبى) ونشأت باقتراح بعض المستشرقين من رجال الاستعمار حين جمعوا طائفة من الأغانى والموشحات والمواويل والأناشيد واتخذوا منها مما يسمى بالأدب الشعبى فى ألف ليلة موضوعاً للدراسة ، هذه الدراسات نشأت نشأة فاسدة فى حضانة الاستعمار .

لنكن صرحاء مع أنفسنا : من أين جاءتنا هذه الدراسات ؟ هل نشأت لحاجة نبعت من واقعنا ، إنها امتزجت بواسطة أجهزة الاستعمار والتبشير ، وقد كانت

أول الأمر فى الصحف ، أما الآن فقد دخلت إلى نطاق المعاهد الدراسية والجامعات حين أرسلوا بعثتين إلى انجلترا لدراسة اللهجات والأدبيات على طريقة الغربيين .

وعاد هؤلاء وكل بضاعتهم التى لا يحسنون سواها هى دراسة اللهجات ودراسات الأدب الشعبى مواكبة لهذا الاتجاه فى الوقت نفسه فى كليات الآداب ودار العلوم .

وزعم المخدوعون والمفسدون أن القصد من دراسة اللهجات تعليم المنهج ، فلأى غرض تريد أن تتعلم منهجاً فى دراسة لهجات العرب العامية ووضع قواعد لها إذا لم يكن ذلك تمهيداً لإكسابها شيئاً من الاحترام ورفع قدرها عن عامة الناس توطئة لاتخاذها لغة للأدب والتدوين أو تطعيم العربية الفصحى بها على أقل تقدير والوصول إلى ما يسميه بعضهم اللغة الثالثة واللغة الوسط .

والحقيقة أن لنا منهجنا الخاص الذى أثبتت ألف عام أو يزيد صلاحيته ، ولا حاجة لنا بهذا المنهج الوافد ، فقد صان منهجنا اللغة العربية بحمد الله ولا يزال ، وواجه احتياجاتها وما جد من شئونها طوال تلك القرون فاضطلع بها ولم يعى ولم يضق بضغط نموها وتوسعاتها من بغداد شرقاً إلى أقصى بلاد المغرب والأندلس غرباً .

وإذا استحدثنا مناهج جديدة ومصطلحات جديدة ، فقد حكمنا بالإعدام على تراثنا النحوى والصرفى واللغوى وحده بل على التراث كله الذى يستعمل هذه المصطلحات فى تفسير القرآن وفى شروح الحديث وفى شرح دواوين الشعر ومختاراته ، وهو تراث سوف يتمسك به المسلمون من غير العرب ويتفرد بمخالفة العرب .

وعلينا أن نضع السؤال الصريح الذى فيه فصل الخطاب :

هل نريد أن نظل مسلمين تحكمنا أصول الإسلام ونقدر وجوه النفع والضرر من وجهة نظر إسلامية ؟ أم إننا نخدع أنفسنا وننافق الناس ؟

ليتنا نعرف أننا لا نخرق الناموس ولا نهرب من حكم الله ويرفض أن يكون مأجوراً عند الله والناس .

وأن الذى يرفض أن يكون العمل حراً مأجوراً عند الله والناس يضطر فى آخر المطاف أن يعمل لعدوه مستعبداً دون أجر .

(٢) دعوة الاستعمار إلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام :

إن خصائص هذه الدعوة والكشف عن خطورة أهدافها التى لا تخدم إلا مطامع الغرب والتى يتوسل إليها فى البلاد العربية إلى هدم الأساس بتقطيع أوصالها وبث روح التنافر والتدابر والتقاطع بين أفرادها وجماعاتها استدامة للوضع الراهن الذليل الذى كانت فيه ، وتحاشيا لاتحادها الذى يؤدى إلى قوتها وتمردها على هذا الوضع .

ومن هنا كانت دعوة الغربيين إلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام التى ظهرت فى وقت واحد فى تركيا والشام ومصر والعراق وشمال إفريقيا والهند وأندونيسيا بمظهر واحد وأساليب متشابهة .

ومن هنا كان استخدام الفلكلور لهذا الغرض من خلال الدراسات التاريخية التى تتصل بعادات الشعوب وتقاليدهم وخرافاتهم وأساطيرهم ومعتقداتهم وفنونهم وكل ما يجرى على ألسنتهم من أغان وأمثال أو شتائم وأهازيج ، وذلك بقصد التعمق فى تحليل نفوس أصحابها وإدراك دوافعها ونوازعها وفهم ما يتفق عواطفها من منطق بغية الوصول إلى أمثل الطرق وأحذق الخطط للتمكن منهم واستغلالهم وإدامة عبوديتهم .

وقد قام على هذا دعاة العزلة والانفصال الذين يعارضون الإسلام والعروبة بالفرعونية ومن العربية إلى اللاتينية .

وفى أول أعداد مجلة المجلة تجد الفلكلور والفرعونية .

ونجد الدعوة إلى إحياء العصبية الشعوبية والفرعونية الجاهلية .

فهى تتحدث عن العرب بوصف أنهم غزاة وتقدس الفرعونية وترى التهكم

بقيم الإسلام وزعمائه وتشويه سيرتهم والإشادة بأدب الغرب وموسيقى الغرب ورقص الغرب وفنون الغرب .

كما تجد إحياء الشخصية المصرية (غير الاسلامية) .

وأصحاب هذه الدعوة من غلاة الشعوبية ، يدعون إلى اتخاذ اللهجات السوقية التي ينطق بها العامة لأنها بزعمهم أصدق تعبيراً عن روح الشعب ، ويهدف هذا إلى قطع الوشائج من أجزاء الأمة .

٣ — حصوننا مهددة من داخلها :

إن وزارات التربية والتعليم هي أهم المعاقل والحصون الساهرة على أمن الشعوب وكيانها ، وأنها هي المؤتمنة على أثمن ما تملكه الأمة من كنوز ، وهي الثروة البشرية بما تنطوي عليه من قوى مادية ومن ملكات عقلية وخلقية متمثلة في رجال الغد الذين تشرف على تربيتهم ، وهي ثروة يتضاءل إلى جانبها كل كنوز الارض ، لأن كنوز الأرض لا تساوي شيئاً بدونها ، فالعقل هو الذي يستخرجها من مكانها ويحيلها من مادة صماء جامدة إلى قوة حية منتجة .

والخلق الديني هو الذي يدفع الناس إلى إعمال هذا العقل وإلى بذل الجهد فيما وكل إليهم من أمور .

ولا ريب أن اتصال القائمين على شئون التربية والتعليم في هذه الأمة العربية بالمؤسسات الأمريكية والتعاون معها في ترويج مبادىء وأساليب ، يقال إن المقصود بها هو رفع مستوى التعليم وإصلاح شئون الجيل الجديد أمر لا يصدقه العقل ولا يتفق مع ما يبذلون من محاولات ظاهرة وخفية لابتلاع هذه الأمة والكيد لها .

إن التقدم الصناعي لا يغني شيئاً إن غفلنا عما حفظه التاريخ من دروس

وعظات ، فتفرقت بنا السبل ودب فينا دبيب الخلاف ومزقتنا الدعوات المتنافرة التى ينتقض بعضها البعض .

والدين واللغة هما أهم دواعى الألفة والتماسك فى كل مجتمع إنسانى ، والدين هو الذى يوحد العادات والأمزجة فيجتمع الناس فيما يحبون وفيما يكرهون ، وفيما يأنفون وفيما يعانون من ألوان معينة من الأساليب البيانية ، لذلك كانت المعاهد والمؤسسات التى تقوم على صيانة الدين واللغة هى بمثابة الحصون والمعامل التى تسهر على حماية أمتنا وسلامتها .

ومن هنا كان هذا المركز الدولى للتربية الأساسية فى العالم العربى لا عمل له إلا مسلخ الريف العربى من دينه وخلقه وعروبته وطبعه بالطابع الأمريكى إتماماً لما بذله الغرب من جهود فى فرنجة هذه المنطقة بعد أن تبين المستشرقون أن تأثير الفرنجة (أو التغريب) لم يتجاوز المدن .

وهو إحتيال خبيث لدخول الريف بعد أن عجز التبشير وعجزت الأساليب الاستعمارية العتيقة عن إقتحامه إلى ماقبل الحرب العالمية الثانية تحت ستار مايسمى بالتربية الأساسية التى تهدف إلى تغيير الأفكار والنزاعات والاتجاهات على أسس غربية خالصة تروج باسم العلم .

هذا التغيير لا يبالى أن يخالف الإسلام وتعاليمه ، لأن القائم على هذا التغيير هو مجموعة من الخواجات يختفون خلف الشخوص العربية التى تبدو للناظر وكأنها تتحرك بإرادتها وهى تسير وراء خطوط مرسومة .

إن أهداف المؤسسات الأجنبية المريبة معروفة ، ومن أهدافها :

١ - إفساد المرأة الريفية وفرنجتها واستئصال حياء المرأة الريفية المسلمة وأمركة الريف والاهتمام فيه بالمرأة خاصة ، وبتوجيه الحركة النسوية وإعداد برامج للنساء والأطفال .

٢ - استقاء معلومات دقيقة من مصادر موثوق بها تخدم الذين يرسمون الخطط الأساسية والحربية لهذه المنطقة .

فضلا عن عقد المؤتمرات والاتصال بالمسئولين تجمعون عودهم ويدرسونهم عن قريب ويعرفون مدى استعدادهم للتجاوب مع الأهداف الخفية للسياسة الاستعمارية ، وهى تقوم على التقليد الأعمى وتخطى أوامر الدين وتجاهل آدابه الصالحة الرشيدة حين يدعون إلى خلط الذكور بالإناث وإخراج المرأة للأسواق وامتهانها بين الرجال مما يعرض المجتمع كله للفساد والانحلال والانهيار .

ولمؤسسة فرانكلين : سلسلة عنوانها (كيف نفهم الأطفال) بإشراف عبد العزيز القوصى توجه الإباء والمدرسين إلى حياة أحسن من الناحية المادية يهدف السيطرة على توجيه المجتمع عن طريق الأصدقاء من أصحاب النفوذ والمخدوعين ومحاولة إشراك البنين والبنات فى الأعمال الممتعة والرحلات ، وهو ما تدعو إليه الماسونية فى صورة عملية .

وهى تتكلم عن المشاعر الجنسية على أنها مشاعر طبيعية ومن الضرورى إشباعها ، وليس فى الغزل الرقيق والقبلة أمر شائن .

والواقع إننا إن احتجنا إلى الاستفادة من خبرة الغرب وتفوقه فى الصناعات الآلية التى كانت سبباً فى مجده وسيادته فمن المؤكد إننا فى غير حاجة إلى استيراد قواعد السلوك والتربية والأخلاق التى تدل الأمارات والبوادر على أنها ستؤدى إلى تدمير حضارته والقضاء عليها قضاء تاماً فى التريب العاجل .

٤ — قضية المرأة المسلمة :

إن فرنجة المرأة الشرقية وحملها على أساليب الغرب فى شتى شئونها : فى الزواج والطلاق وفى المشاركة فى العمل والاندماج فى شتى الميادين ، وفى الزى وفى المحافل والمواقف : هذا الاتجاه هو بدوره جزء من اتجاه أكبر يراد به سلخنا من أدب إسلامنا وتشريعه وإلحاقنا بالغرب فى التشريع والأدب والموسيقى والرسم وسائر شئون الحياة من جد ولهو ، وأبرز جوانب الخطر هو اختلاط النساء بالرجال واشتغال النساء بأعمال الرجال .

واجب أن أضع بين يديكم مقتطفات من خطط الصهيونية الكبرى للسيطرة على العالم عن طريق هدم كل ما فيه من قوى الشر التى اكتشفت مخطوطتها وذاع سرها المرة الأولى فى أواخر القرن التاسع عشر (البروتوكولات) .

إن لفظة الحرية تجعل المجتمع فى صراع مع القوى بل مع قوة الطبيعة وقوة الله (جل جلاله) نفسها .

يقولون : نحن الذين هيأنا لنجاح داروين وماركس ونيتشه .

إن ما ينادى به على أنه حقوق المرأة لا يهدف إلا إلى مخالفة عرف راسخ وتحطيم قاعدة مقررة وإقامة عرف جديد فى الدين والأخلاق والذوق وخلق المبررات والمعوقات التى تجعل انسلاخنا عن إسلامنا وعروبتنا وشرقيتنا أمراً واقعاً ، كما يجعل دخولنا فى دين الغرب ومذاهب الغرب وفسق الغرب أمراً واقعاً كذلك .

وأخطر ما فى هذه الدعوة وأمثالها ما يراد به حملنا على كل فاسد من مذاهب الغرب . إن أصحابها يعرضون انتحالها على أسلافنا زاعمين إنها لا تعارضه ، وقد كان قاسم أمين هو أول من جرأ الناس على تحريف النصوص حين طلع علينا بطائفة من المزاعم التى تقوم على المجازفة ومن النصوص المحرفة عن مواضعها والمخلوعة عن سياقها خلعاً يخرجها عن مدلولها وحين تصيد من كتب التاريخ ورواياته على اختلاف درجاتها ودرجات مؤلفيها كل شاذ غريب ، فحشدها فى حيز واحد وضم بعض أشتاتها إلى بعض حتى خيل إلى قارئها على أنها شىء مألوف كثير الوقوع .

إن كثيراً من النصوص التاريخية والفقهية التى اقتطعها ناقصة الدلالة غامضة العبارة . وقد استطاع أن يروج لذلك كله بين الناس بمرور الأيام بفضل قوة حزبه الذى كان ينوه به اللورد كرومر فى تقريره .

إنه حزب كرومر الذى علق عليه الآمال فى رعاية المصالح الإنجليزية عن

طريق إنشاء علاقات الود والتفاهم بين الإنجليز والمسلمين فى مصر ، وقد عبر شوقى فى قصيدته فى رثاء قاسم أمين عن هذا المعنى حين قال :

ولك البيان الجذل فى أثنائه العلم الغزير
من مطلب حسن كثير فى مزالقه العثور
ما بالكتاب ولا الحديث إذا ذكرتهما تكبر
حتى لنسأل : هل تغار على العقائد أم تغير

٥ — طه حسين :

الذى تشهد كتبه إنه لم يكن إلا بوقاً من أبواق الغرب وواحداً من عملائه الذين أقامهم على حراسة السجن الكبير . يروج لثقافاته ويعظمها ، ويؤلف قلوب العبيد ليجمعهم على عبادة جلادهم .

طه حسين : الذى لم يمل الكلام عن جامعة البحر المتوسط التى دعت إليها فرنسا بالأمس والتى تدعو إليها أمريكا اليوم .

طه حسين : الذى زعم لمصر إنها جزء من البحر الأبيض المتوسط فى مقومات شخصيتها وليست جزءاً من عرب نجد واليمن والبحرين والعراق والسودان .

طه حسين : الذى لم يبد العرب فى وهمه أمة ، لأن قوام الدول فى زعمه هى المنافع المادية ، ولأن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا يصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا يكونان أساساً لتكوين الدول .

طه حسين : هذا لايقر معنا هذه الحقيقة لأنه يزعم للعرب أن السبيل إلى نهضتهم ليس هو ترجمة العلوم لكن السبيل إلى نهضتهم أن يذوبوا فى الغرب وأن يخلصوا من أنسابهم ويقلعوا من تربتهم ليغرسوا فى تربة الغرب . ولذلك فهو يهلك أموالهم فى ترجمة شكسبير الذى ترجمت رواياته قبل أكثر من مرة ليحابى بها بطانته

ويغدق عليهم مما تحت يده ، بل هو يهلك أموالهم فى ترجمة ما لعن به أجدادهم وما سب فيه أسلافهم وسفه دينهم وافترى على نبيهم .

ولو أنصفوا لجعلوا همهم مصروفاً إلى نقل العلوم التجريبية والرياضية وحدها لا يشتغلون بترجمة غيرها ، لأن الاشتغال بنقل كتب الأدب والفلسفة والتاريخ والتربية والأخلاق وما شاءوا من الثقافات الإنسانية على هذا النحو الذى يسوده سوء القصد يضر مرتين : يضر بإفساد أذواق شبابنا وتدمير كيانهم وتحويل شخصيتهم بحيث يصبحون غرباء فى قومهم ثم يصبح قومهم بعد قليل هم الغرباء حين يكثر عددهم ويكثف جمعهم .

ويضر مرة ثانية بتبديد الجهد والمال من غير وجهه وصرف العرب عن الطريق الصحيح إلى تحررهم ثم سيادتهم .

٦ - تطوير الشريعة الإسلامية :

من أخطر أعمال المستشرقين ، تلك الجهود المبذولة لتطوير الشريعة الإسلامية حتى تصبح أداة لتبرير القيم الغربية وتقريب ما بين الشعوب الإسلامية والغرب فهى الغاية الأخيرة والهدف المقصود .

ومن أساليبهم فى هذا التطوير أن يستدرجوا المسلمين (فى مؤتمراتهم) للكلام فى نقاط معينة من نظم الشريعة التى تخالف ما استقر عليه عرف الغربيين مما يجرى باسم المدنية ، وذلك لكى يلجئوهم إلى تحريف نصوص القرآن والحديث والميل بهما إلى ما يوافق العادات الغربية السائدة .

وأكبر ما تجد هذا التحريف فى (المرأة) وما يتصل بشئونها . ومن أساليبهم فى التطوير بعث التاريخ السابق على الإسلام فى كل بلد من البلاد الإسلامية .

ويرمى هذا إلى تلوين الحياة الاجتماعية فى كل بلد من البلاد الإسلامية بلون خاص يسبب ردة إلى أصول الجاهلية الأولى ، وبذلك تعود الحياة الاجتماعية التى

وحد الإسلام مظاهرها إلى الفرقة والإنشعاب برجوعها إلى أصولها القديمة السابقة على الإسلام ، وذلك حتى تكون هذه المدنيات الحديثة أكثر قبولا لأصول المدنية الغربية .

ومن هنا تركزت جهود الأمريكيين فى تطوير الشريعة الإسلامية واتخاذ هذا التطوير وسيلة لتطوير المسلمين أنفسهم .

وهذه الجهود ليست إلا امتداد لجهود الدول الأوربية وعلى رأسها انجلترا . ووقعت الخطة التى سلبت التعليم من قبضة الجامعة الأزهرية التى كانت شديدة التمسك بالدين مما يقف حاجزا على طريق أى إصلاح تعليمى وعبارة اللورد لويد فى كتابه مصر منذ كرومر قوله :

(لو أمكن تطوير الأزهر عن طريق حركة تنبعث من داخله هو لكانت هذه خطوة جليلة الخطر) .



الفصل الثالث

علي سامي النشار

منهج الإسلام في البحث

في دراستي لنشأة الفكر الفلسفي للإسلام دعوت إلى أننا لم نكن عالة على اليونان، وأن فكرنا الفلسفي لم يكن موصول الوشائج بفكرهم، وإننا لم نكن أبداً صورة من صور اليونان، حقيقية أو مشوهة، بل كان لنا على العكس تماماً الكيان المستقل والينبوع الذي تفجر منه النور المشرق الذي سطع في أوروبا - عبر أسبانيا وصقلية - وهناك تلألأ نورها وأنار أوروبا الكالحة، فأقام الحياة فيها، وخبا النور هنا أو كاد، وأتى رجال من الغرب يحاولون القضاء على بقايا النور نهائياً، بقايا النور المنبعث من هذا الأصل الإلهي العظيم: القرآن ومحمد ﷺ.

• • •

ويعرض أحد الباحثين ملخصاً لكتاب (مناهج البحث عند مفكري الإسلام) للأستاذ علي سامي النشار على هذا النحو:

(الكتاب في الحقيقة محاولة جادة للدفاع عن أصالة الفكر الإسلامي، وهو رد عميق على مقولات بعض المستشرقين - بل بعض الدارسين العرب - الذين يزعمون أن هذا الفكر لم يكن إلا ذيلا لحضارة اليونان وترديداً لها.

ويبين الكتاب كيف احتضنت الجماعة الإسلامية (منطق أرسطو) بالدراسة على أنها سرعان ما مزقته تمزيقاً وأنشأت بدلا منه منهجاً يعبر عن خصائصها هو (المنهج التجريبي).

هناك طائفة يطلق عليها الدكتور النشار إسم (الشراح) وهم يقبلون منطق أرسطو

كوحدة فكرية كاملة ، ويعتبرونه قانوناً أساسياً للعقل ، وهناك طائفة أخرى من المتكلمين قبلوا جوانب من هذا المنطق ورفضوا جوانب أخرى منه ، وهناك طائفة من المتكلمين وعلماء الأصول يرفضون المنطق الأرسطى رفضاً قاطعاً ويحاولون إقامة منطق جديد ومع هذه الطائفة تقف طائفة أخرى هم رجال التصوف والإشراق ثم هناك طائفة أخرى هى طائفة العلماء الذين خرجوا بممارسة التجربة العملية وخاصة فى أمور الطب والرياضة والبصريات من حدود الاستدلال الشكلى لذلك المنطق .

وينتهى الدكتور النشار إلى التمييز بين موقفين داخل المواقف التى ترفض هذا المنطق : موقف التحريم والتجريم لهذا المنطق ويتبلور هذا الموقف فى فتوى ابن الصلاح المشهورة (من تمنطق فقد تزندق) .

وفى قوله : إن المنطق مدخل إلى الفلسفة ومدخل الشر شر ، وموقف آخر هو موقف النقد والتفنيد والرفض القائم على أن منطق الاستدلال قاصر على إستيعاب حركة الواقع : حركة التجربة ، حركة النفس ، قاصر عن إستيعاب أسرار الذات الإلهية وتفسير قدراتها .

وعقد فصلا لعرض نظرية (ابن تيمية) وفى هذه النظرية ينقد ابن تيمية الأسس العقلية المجردة لمنطق أرسطو فيرفض القول بالكليات بالمفاهيم العامة المجردة ، ويجعل من المحسوسات والجزئيات أساساً للمعرفة ، بل يتخذ من التحديد الكمى مقياساً لها كذلك ، وينتهى إلى تحديد ملامح (لمنطق إسلامى خاص) .

ويخلص الدكتور النشار الى القول بأن الفكر الإسلامى قد رفض المنطق الارسطى الذى يقوم على القياس والاستدلال النظرى وأمامه منطقاً جديداً أكثر تعبيراً عن خصائصه وهو (المنهج الحسى التجريبى) .

وبهذا يفسر الدكتور النشار عداوة الإسلام — كما يقول — للفلسفة ، (لأنه إذا كان الإسلام يتطلب المنهج الاستقرائى التجريبى وينكر أشد الإنكار المنهج

البرهانى القياسى استطعنا أن نفسر بسهولة عدم نجاح الفلسفة فى الإسلام واعتبار من يدعونهم (فلاسفة الإسلام) كالكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد وغيرهم مجرد امتداد للروح الهلينية فى العالم الإسلامى) .

* * *

هذا العمل الذى قدمه الدكتور النشار يمثل مفهوم الاصالة فى دراسة الفلسفة وهو متصل إلى حد كبير بالمنهج الذى رسمه الشيخ مصطفى عبد الرازق والذى وجه إليه تلاميذه وفى مقدمتهم : الخضيرى والنشار .

ويقول الدكتور النشار : إن كرومر قد أتى إلى مصر وكان إليه جماع الحروب الصليبية وفيه حقيقتها أضغان الصليبين القدامى وأحقادهم وسخائمهم القديمة وأنه عمل مع حلقة معينة لهدم الإسلام وأنه أعلن حتى جاء أنه سيهدم فى مصر ثلاثاً : القرآن والكعبة والأسرة الإسلامية .

عمل كرومر لهذا ولكن القرآن العظيم باق ساطع خلال الأزمان والأماكن ولن ينتهى أبداً ينبوعه العظيم .

أما البحث العلمى فى الفكر الإسلامى فى الجامعات فى مصر فقد اتجه وجهته الصحيحة وأساتذة هذا الفكر الإسلامى قد تخلصوا من كل سيطرة أجنبية كما تخلصوا من سيطرة المدرسة الأوروبية الحديثة فى مصر واستطاعوا اللهم إلا فئة ضئيلة أن يوجهو الدراسات الفكرية الإسلامية وجهتها الصحيحة وأن يكتشفوا حقائق الفكر الإسلامى خالصاً من كل شائبة وكانت كل دراسة الفكر الإسلامى من قبل فى نطاق واحد ، .

إننا كنا أسرى الفكر اليونانى وينبغى اليوم أن نكون أسرى الفكر الأوروبى .

ولا شيء أكثر ولا أقل ، عشنا من قبل بالفتنة اليونانية ونحيا اليوم بالروح الأوروبي ولكن الأبحاث قد كشفت اليوم عن أصالة الفكر الإسلامي وأنه سار بمقوماته الخاصة والأصيلة بعيداً عن تأثير اليونان وأن هذا الفكر إنما هو تعبير عن دورة حضارية كبرى » .

ويقول :

إن مصطفى عبد الرازق كان يرى عبقرية المسلمين الأصيلة أولا في أبحاث أهل السنة والجماعة من الخلف والسلف في الكلام والفقه ثم لدى المعتزلة والشيعة ثانياً

أما طه حسين فهو تلميذ عبقرى لمستشرقى أوروبا غير أنه يمتاز عنهم بمعرفته العميقة بالعربية . نادت مدرسة طه حسين بأن العقلية عقلية (بحر أبيض) وأنها يونانية في حقيقتها ، وأنه إذا كانت الحضارة الأوروبية المعاصرة إنما هي امتداد للحضارة اليونانية فلا معدى إذن لمصر أن تأخذ بهذه الحضارة الأوروبية حلوها ومرها خيرها وشرها .

بشر رأس هذه المدرسة بهذا الرأى وانتشر في مصر وخارج حدودها وحين تكونت الجامعة المصرية الأولى كانت شخصية الأستاذ القوية ونفوذه الواسع أكبر عامل على فرض آرائه على مناهج الجامعة وبدأت دراسة (اليونانية) و (اللاتينية) في صفوف كلية الآداب المختلفة ، وخضعت الأحزاب السياسية جمعاء لسيطرة الأستاذ وآرائه ، وكانت الوطنية الاقليمية نتاجاً لآراء الأستاذ وتفكيره وكانت (طريقة الحياة) في البيوت وفي المجامع العامة والخاصة أثراً من آثار دعوة طه حسين ، وكان النقد العلمى والأدبى وطريقة التفكير الحديثة هما الصدى المحتم لكتاباته القوية ، وشعر كثير من الناس مخدوعين براحة عقلية وأن الدعوة إلى الإتجاه لأوروبا إنما أتت الآن من رجل منهم وقد حجبت شخصية الأستاذ القوية وأسلوبه النفاذ شخصيات غيره من كبار المؤلفين والأدباء والشعراء الذين تابعوا منهجه وإذا قدر التاريخ هذه المدرسة أن يكتب جانبه المنهجي فلن تجد كاتب تاريخها غير (رأسها) أما الآخرون فكانوا همجا كما أنه

لم يظهر من تلامذته من يستطيع أن يحل على أستاذه أو أن يشغل مركزه الممتاز وظن الناس أن قد قضى الأمر وأن دعوة أوروبا من مستشرقين وغيرهم قد نجحت في تحطيم الحياة الإسلامية ، ولكن مدرسة طه حسين ما لبثت أن تلاشت شيئاً فشيئاً ، إن السبب هو ظهور مدرسة معارضة قضت على هذه المدرسة القضاء المبرم وأشاعت تصوراً جديداً سيطرت به نهائياً وإلى الأبد على الروح الفكرية المصريين وبالتالي على الروح الفكرية للعرب والمسلمين ، بل ويبدو أن أستاذ المدرسة الأولى بدا يتراجع شيئاً فشيئاً ببراعة نادرة عن جوهر فكرته وأن يتوافق مع التيار العام أو الآتي الجارف الذي أحدثته المدرسة الثانية .

نشأت هذه المدرسة على يد عالم يختلف عن أستاذ المدرسة الأولى اختلافاً بيناً (سواء في أسلوبه أو في مادته) كان هادىء الطبع يخلو من العنف العقلي الذي تميز به الأول وكان قليل الإنتاج الفكري .

هذا العالم هو (مصطفى عبد الرازق) أول أستاذ للفلسفة الإسلامية في الشرق عرض هذا الأستاذ الممتاز منهجه في دراسة التفكير العقلي وأدرك ببصيرة نفاذة أنه كان للمسلمين منهج خاص وحضارة خاصة أصيلة بهم ، غير أنه اعتبر ، وقد كان إلى حد ما تحت تأثير شخصية أستاذ المدرسة الأولى ، إن المسلمين قبلوا كثيراً من جوانب الفكر والحضارة اليونانية في كثير أو في بعض عناصر حضارتهم الإسلامية .

وبالرغم من هذا فقد كان لهذا الأستاذ السبق في فهم كنه الحضارة الإسلامية الأصيلة والفكر الإسلامي الحقيق .

واستطاع أن يضع أصول المدرسة الإسلامية الخالصة : المدرسة التي أرادت أن تكشف كشفاً حقيقياً عن عبقرية الحضارة والفكر الإسلامي في مصادره الأصلية قبل وبعد أن يتصل المسلمون وأن يعرفوا التراث اليوناني .

وقد نفر عدد من تلامذته وقد اعتنقوا آراءه عن يقين وهؤلاء هم :

محمود الخضيرى وعثمان أمين ومحمد عبد الهادى أبو ريده وعلى سامى النشار ، وهذا التلميذ الأخير قد اختلف مع أستاذه اختلافاً بيناً فى المنهج ذاته ، فبينما يرى الاستاذ أنه كان لفلاسفة الإسلام أصالة فكرية تجعل لهم طابعاً خاصاً يتميزون به عن فلاسفة اليونان .

يرى التلميذ أن هؤلاء الفلاسفة كانوا امتداداً فكرياً لا تختلف عن فلاسفة اليونان - فى الكليات وفى الجزئيات - وأنهم كانوا دوائر منفصلة عن تيار الفكر الإسلامى الأصيل ، لفظهم المجتمع الإسلامى وأعلن أنهم لا يمثلونه فى شىء .

ورأى التلميذ أن الفلسفة الإسلامية الحقيقية إنما تتمثل فى كتابات علماء أصول الدين (المتكلمين) وعلماء أصول الفقه (الاصوليين) ثم اتجه إلى دراسة مناهج البحث الإسلامية باعتبار أن هذه الدراسة ستحسم المسألة حسماً كاملا فأثبت فى كتابه (مناهج البحث عن مفكرى الإسلام ونقد المسلمين المنطق الأرسطاليسى) إن المسلمين لم يقبلوا المنطق اليونانى على الإطلاق وأنه كان لهم منهج خاص فى جميع علومهم العقلية والأدبية واللغوية ، بل وفى علومهم العملية .

وكشف خلال أبحاثه (المنهج التجريبى) الإسلامى فى صورته الكاملة عند المسلمين وسبق المسلمين للأوربيين فى معرفة هذا المنهج وفى تطبيقه فى شتى علومهم نظرية وعملية وفى ضوء هذا فسر الروح الحضارى للأمة الإسلامية وتوصل إلى أصالتها الكاملة .

وبشر بهذا الرأى خلال دراسته فى انجلترا كما أعلنه أيضاً فى كتاباته أثناء عمله فى أسبانيا .

غير أن أهم عمل قام به فى إشاعة آرائه هو نقل تلك الآراء خلال الهيئات الإسلامية القوية فى مصر - إلى جمهرة المسلمين وإلهام تلك الهيئات كثيراً من عناصر فكرته : إذ كان كاتبها ومفكرها فى بدء جهادها العنيف لتحرير العقلية المصرية من سيطرة المدرسة الأولى فانبعثت الدعوة الإسلامية قوية فياضة تنادى

بالعودة إلى (الكتاب والسنة) والأخذ بالأصول الإسلامية فى جميع وجهات الحياة (سياسية واقتصادية وثقافية ، وأن تتلبس الفكرة الحضارية بمعناها الواسع فى أصولنا القديمة التى ذخرت بها حياة أسلافنا والتى ارتفعت بهم إلى مصاف القوة والمجد حتى رسخ فى عقول المصريين وقلوبهم كل (المعنويات القديمة) ولكن على أساس واضح قوى .

وتنوسيت تصورات مريضة أشاعتها المدرسة الأولى : تصورات (الوطنية الإقليمية ، والمثل الفكرية الأوربية، والأدب الأوربى، والحضارة الأوربية) وسرى فى الناس احتقار (أوربا) عامة : أوربا ، حضارتها وفكرها ، أما منهج أوربا العلمى فكان هو منهجنا وكنا نحن أساتذته الأولين ، واتضح للناس مؤامرة أوربا القذرة فى تحطيم المعنويات القديمة (أى الإسلامية) أو تحطيم الصرح الأشم الذى أقام حياتنا ، وهو القوام والمظهر والجوهر : الإسلام .

وقد انتشرت آراء المدرسة الإسلامية فى الشرق : سوريا والعراق ، ثم لامناص من الاعتراف بأن مصر (عقل النسر القوى وجسده) أخذت أفكار المدرسة الإسلامية وانقدحت منها أعظم انقداح ، ومن هنا يسرى إلى جناح النسر الأيمن (العراق) وجناحه الأيسر . شمال إفريقيا والنشوة تسرى شيئاً فشيئاً ، ثم يكون الانقضاض ثم الوثبة الكبرى .

الفصل الرابع

مولود قاسم

أنية وأصالة

كيف نكون أبناء عصرنا مع البقاء على أديم مصرنا دون أن نصبح نسخة من غيرنا ، إن الاصالة تتضمن بحكم الحد والمضمون : التفتح والعالمية والتطور والتقدم ، إذ أن الأصالة ليست الانغلاق والتجمد بل هي بقاء الإنسان هو هو مع الاستفادة من احتكاكه بالغير ومسايرته الركب الإنساني فيما ينسجم مع عناصر ذاتيته ويتناغم من مكونات شخصيته إذ بتميزه ذلك فقط يكون عنصراً يقدم مساهمة للفكر الإنساني والحضارة العالمية وبدونه لا يثريهما بشيء .

إنه بقدر بروز أنيتنا وقوة أصالتنا ، إذن تكون لنا شخصيتنا بين الامم ، ويتضح تميزنا في المجال الدولي وتبرز مساهمتنا في المجهود البشري العام ، إن التفتح والعالمية إذا لم يقوما على الانية والاصالة يكون صاحبهما ضائعاً معلقاً في الهواء مجتثاً مستأصلا بدون جذور عميقة ولا شخصية مميزة وعارياً من أساس متين يقوم عليه مجرداً من متكأ أمين يستند إليه ، ومن سقف حصين يحتمى به ، بل يصبح معرضاً للزوابع كريشة في مهب الرياح ينحرف في اتجاه التيار الأقوى . ومصيره التبعية العمياء حتى العدم أو اللاوجود ، وفي أحسن الاحوال حتى الشحوب والعوز كما هو مصير كل أمة ضعيفة هزيلة عزلاء .

إن الامم بأصلها وأصالتها وإنه لا ينكر أصله وأصالته إلا من لا أصل له ولا أصالة .

* * *

هناك مؤامرة ضد لغتنا العربية اليوم .

لابد من تعريب الامخاخ والقلوب قبل تعريب الألسنة الآن الشيطان ساكن في القلوب ومستقر في الإمخاخ .

ليس في الجزائر فقط بل حتى في المشرق العربي .

لقد وجدنا هناك أناساً لا يزالون يدعون إلى العامية أولا مما سيؤدى إلى الجهل بكتاب الله (تبارك وتعالى) الذى يجمع المسلمين كلهم وقد حفظه مسيحيون مثل مكرم عبيد في مصر وفارس الخورى في سوريا لبلاغته أو لشيء آخر ، واعترف مكرم عبيد علانية أن فصاحته أتت من القرآن ، سألوه لماذا وأنت مسيحى حفظت القرآن قال لأنه قمة صرح ، قمة في الفصاحة وأنا أحاول أن أقترب منها بقدر الإمكان .

والذين يدعوننا إلى العامية يريدون أن يبعدونا عن هذا الصرح ، هذه القمة عن هذا المصب الحى الدائم ، بل يريدون أن يشتتوا ما بقى من هذه الأمة المشفقة ، يريدون أن يمزقونا تمزيقاً .

إن الدعاة إلى العامية (الكارثة) يقولون : إن المهم هو المحتوى واللغة ليست إلا إذاء ومن هنا يدعون إلى الإبقاء على اللغات الأجنبية كلغات للتعليم وفى أحسن الأحوال إلى استعمال العامية محل الفصحى ، بحيث تتقوقع العربية ويصبح عدد لغاتها بعدد لهجاتها العامية .

وفى ألمانيا أسقطوا الصالحة في الإمتحان لضعفها في اللغة رغم تفوقها في جميع المواد الأخرى وصادقت المحكمة الفدرالية على قرار الأكاديمية وعللت الحكم بأن اللغة هى هياكل الفكر ولابد أن يكون الإنسان لديه مستوى أولى في اللغة وعلومها ليعبر بصدق عن العلوم والرياضيات أما إذا ضعبنا في اللغة فقد يسىء الفهم .

وأنتم أيها الشباب ينبغى أن تتنبهوا كثيراً جداً إلى هذه النقطة، ينبغى أن لا تكونوا غفلا بسطاء بلهاء سطحيين سذجاً، وألا تجروا وراء أى داع ولا تنساقوا وراء أى ناعق، من الذين يدعون إلى هذا أو ذاك، قولوا لهم: أعطونا المثل فى بلادكم، عندما يسبقون إلى هذا تدبهكم ولكن عندما تعملون كل شيء فى بلادكم لحماية مقدساتكم، لحماية تراثكم الروحى، لحماية مجدكم الثقافى، وفى الوقت نفسه تأتون إلينا وتقولون لنا أن اللغة ليست إلا أداة، وأن المهم هو المحتوى أن أية لغة تؤدى الغرض تغنيكم عن التعلق بلغتكم فهذا ما لا تقبله سواء كان ذلك من المشرقين الأوروبيين أو المستغربين المسلمين.

* * *

لماذا نهتم بالتاريخ القديم ونرجع إلى الماضى السحيق.

فنقول: لابد أن نهتم به أولا لأن الاستعمار قد ادعى منذ مدة طويلة بأنه جاء ليسترد الارث لان فرنسا عندما احتلت بلادنا أتت لتأخذ الارث، الميراث الذى صنعته روما، إن فرنسا جاءت فقط لتسترجع هذا الارث؟ لماذا لأن كل ما جرى منذ انتهاء الاستعمار الرومانى حتى الغزو الفرنسى لم يكن فى نظرهم إلا ظلماً وعدواناً.

أما الوضع الشرعى فهو دور فرنسا هنا لأنها جاءت لتستأنف إرث أمها روما وتبرز هذا مع الأسف حتى فى برامج التعليم حيث يدرسون:

(العصر الرومانى - الغزو الغربى - التسلط التركى، وصول الفرنسيين) لهذا لابد من إبراز حضارة أجدادنا، هذه الحضارة القديمة، هذا التراث العظيم الذى كان لأسلافنا حتى فى العهد القديم مثل روما، لقد اهتموا فى حركتهم الوطنية بإبراز هذا الجانب من التاريخ القديم لكى يردوا على تلك الدعاية التى تقول إن فرنسا جاءت لترث روما، جاءت لتسترجع إرث جدتها فقط.

نحن نقول لها : لا : هذا غير صحيح لأنه حتى فى ذلك القرن القديم ، عصر روما لم يكن شمال أفريقيا بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة مزرعة لروما ، بل كانت ثورات متصلة ، مقاومة عنيفة عنده حتى آخر رمق بالنسبة للرومان والوندال والبيزنطيين حتى جاء الفتح الإسلامى ، جاء بآراء جديدة ووجهة جديدة) . فكانت المقاومة فى الاول ثم تمازج الشعبان ، الشعب الموجود هنا مع العنصر الفاتح لأن هناك أشياء مشتركة ، السلوك الذى يسلكونه ، الرأى أتوا به ، الطبيعة الشرقية المشتركة ، هذه الأشياء كلها أدت دوراً فى التماسك .

هذا الذى كون الوحدة وخلق المنطق لهذه الحضارة . لقد لعبت الجزائر دورها الكامل فى إطار الحضارة الإسلامية وخاصة فى العلوم الطبيعية .

فالأخضرى فى القرن التاسع وهو من قسطنطينية كان كتابه فى العلوم الطبيعية يدرس بجامعة مونبيليه حتى القرن السابع عشر .

وأبو حمزة الجزائرى فى القرن السادس عشر كان له كتاب فى الجبر والمقابلة والمثلثات ترجم وكان منطلقاً من منطلقات النهضة الحديثة فى أوروبا بالنسبة للجبر لمع أبو حمزة فى العصر الحديث فى القرن السادس عشر ، قريب جداً منا وقد كان المنطلق لأوروبا مثل فرانسيس بيكون وكبلر وديكارت ونيوتن وكانت، هؤلاء سبقهم الإسلام بأعلام علماء .

• • •

تتعرض الأنية والأصالة اليوم لإمتحان شديد .

كنا نقاوم جميع الآفات المستوردة إلينا الغريبة عنا بدافع الذود عن هذه الأنية وتلك الأصالة رافضين كل ما يقصينا عن محيطنا الطبيعي ، ولجميع مظاهر الإدماج والمسخ وسائر محاولات الأذابة والسلخ .

ولكن يجب علينا أن نعرف أنه بعد زوال الخصم واختفائه من سطح أرضنا فقد بدأت تلك الحضانة تضعف وأخذ ذلك الشعور بالأنية والأصالة يتضاءل وأصبح الفكر يتساءل فيما لا ينبغي أن يتساءل فيه إطلاقاً وبأي صورة من الصور إذا لم نرد الإمحاء والذوبان .

لقد نجح أعداؤنا عندما عقدوا بعض قادة العالم الثالث وكونوا لديهم انهزاماً في الشخصية ، يتمثل في ازدواج النقائص والسلبيات وانعدام كلي للمزايا والفضائل إذ تجردوا من مزاياهم ولم يكتسبوا مزايا أسيادهم بدون أن يتخلصوا من عيوبهم التي ضموا إليها عيوب المجتمعات الغربية عنهم والتي حاولوا أن يتقمصوا شخصيتها عبثاً وسدى وبقوا في تخلفهم يعمهون .

* * *

إن الشعب المتأثر بلغة أجنبية يبتلع بدون شعور حتى الشتائم الموجهة إليه ويتبناها ويوجهها إلى نفسه رغم أنها ضده ، وعندما يفيق من ذلك فكل ما يبقى له هو محاولة التجرد من نفسه وتقمص شخصية الأمة الغالبة مادياً أو روحياً أو كليهما معاً حتى يتم اندماجه فيها كلية ولا تنطبق عليه كلمات التمييز المخصصة لبني قومه .

إن الذي يفقد لغته يمزق الخيط الذي يصله بالأجداد ويفقد معها خلفيات ماضيه ويشعر بفجوة عميقة حقيقية في تطوره ، ينقطع عن أصله كجلمود صخر انفصل عن الصخرة الأم وحطه السيل من علٍ فجرفه وقذف به بعيداً إلى أعماق الذوبان والإمحاء واللاوجود ويرى فخته صاحب فلسفة الأنية أو الذاتية :

(إن وجود أمة من الأمم بوجود أنيتها التي هي شخصيتها وأن هذه الشخصية تتكون من عناصر ثلاث :

(الدين ، اللغـــة ، حب الوطن)

* * *

من بين المسلمين مستشرقين ، أي إن من بيننا أناساً تجنوا على تاريخنا وتجنوا على لغتنا ، وتجنوا على ديننا ولا يزالون موجودين وهم كثيرون وكثيرون جداً .

هناك زعيم من زعمائنا قام بدور كبير فى تاريخنا التحررى الحديث ، ولكنه أخطأ فى وقت من الأوقات وقال إن الجزائر ليست أمة وإنما هى سكان لأن هذا كان استعمال الفرنسيين .

كانوا يقولون إن الجزائر ليست أمة ، وهى مجموعة من الأشتات ، مجموعة من العشائر لم يكن لهم تاريخ فى الماضى وهم الآن فى طريق التطور نحو الأمة ، ليصبحوا أمة ، إذن فليس لهم أن يستعجلوا ، فليس لهم أن يطالبون باستعادة الاستقلال ،كتب هيكل فى الأهرام ١٩٦٥ : إن الجزائر لم تكن فى فترة ما من تاريخها أبداً أمة ، بل ليس لها وجود تاريخى على الإطلاق ، هؤلاء المخرابشون أسوأ من أسوأ المستشرقين .

لقد أصبح التركيز من لورنس على بعض الشعارات :

(أمة عربية وعرب وعروبة) بمناسبة وبدون مناسبة ، شنشنة تسمعها اليوم وموجهة من أوساط يسارية ودينية فى المشرق العربى تدعونا إلى التمجيد لكلمة عرب ، عروبة وأمة عربية ووطن عربى ، لعزلنا عن الشىء الذى يجمعنا مع الآخرين ، الذين هم ليسوا عرباً فى آسيا وفى إفريقيا التى تسمى إفريقيا السوداء ، لعب العقيد لورنس بدعوى العروبة من جهة والطورانية من جهة أخرى ، ولعبت الصهيونية بواسطة الدونمة بالعقول الضعيفة .

إن أحسن حل لهذه الأمة المشتتة الممزقة المفرقة المبعثرة المعذبة الفقيرة الجاهلة المتأخرة المتخلفة هى الوحدة الإسلامية .

الأمة الإسلامية تحت راية الإسلام ، فبه ازدهرت بالأمس وبه تعود أمة .

* * *

أما الذين يسمون أنفسهم اليساريين ، التقدميين ، الثوريين ، التصحيحيين ، التطوريين ، هؤلاء اليساريون ماذا كانوا يدعوننا إليه ، وماذا كانوا يعملون منذ اليوم الأول لاسترجاع الجزائر واستقلالها ، استغلوا فرصتين :

أولها : انعدام الهياكل عندنا إذ ذاك ، وثانياً معرفتهم بكثير من المسئولين

فى ظروف الكفاح التحريرى ، وانبثوا هنا وهناك فى جميع الأجهزة ، وبدأوا يوجهون ويقدحون ويضعون خططاً وخططاً لتوجيه السياسة الجزائرية باسم التقدم والعالمية والثورية لإبعادنا عن الإسلام وسلخنا عن شخصيتنا وأصالتنا حتى نظهر فى أعين الصحفيين الفرنسيين التقدميين ثوريين حقاً متحررين من رجعية الدين والقرون الوسطى وبدأوا يبثون دعايتهم وسمومهم ومع الأسف نجحوا لدى نفر من إخواننا الذين يهمهم أن يكتب عنهم فى هذه الجريدة أو تلك .

ماذا كتب هذه الغاريطة أو تلك ، هى جميعها أو أغلبها بأيدى الصهيونية ..

* * *

الأمة الإسلامية كلها مهددة بالخطر الصهيونى وتستطيع إذا استمرت بهذه الطريقة ان تفكر بهذه الشعوبيات الضعيفة .

* * *

قال بينو وزير خارجية فرنسا : لماذا تطرح قصة الجزائر على هيئة الأمم مع أنها جزء لا يتجزأ من فرنسا .

وفى هذا إنكار للمراجع الفرنسية نفسها التى تعترف بأن الجزائر كانت من أولى الدول التى اعترفت باستقلال أمريكا، بل أول دولة اعترفت بالثورة الفرنسية وأقرضت الدولة الفرنسية مالا وزودتها بالقمح ، وبين عام ١٥٣٤ إلى ١٩١٢ عقدت خمس وستون معاهدة واتفاقية بين الجزائر وفرنسا .

* * *

قال ابن حزم : إذا مات شخص فى المجتمع فى أمة من الأمم جوعاً فالأمة كلها مسئولة عن ديته وعائلته من حقها أن تطالب الدولة والأمة بدمه ، ذلك الشخص هو النظام الاجتماعى الإسلامى فى روعته .

وقد أنشأ صلاح الدين ميزاباً فى مدينة دمشق للحليب ، وبذلك أقام نظاماً اجتماعياً لتوزيع قطرة الحليب على جميع الأطفال المحتاجين ، فتأتى الأمهات وتطلب الحليب المسكر المحلى بالسكر ، وبنظام تحافظ عليه أجهزة الأمن وذلك قبل أن تقول فرنسا (قطرة الحليب) .

وتنهار الحضارات إذا لم يسهر عليها باستمرار .

هذا من طبيعتها فحضارات الإنسان كائن حي يموت ويحيا ويزدهر ولكن القيم الروحية لا تموت .

أقام عمر بن الخطاب الضمان الاجتماعي .

أقام عمر بن عبد العزيز الزكاة ولا يوجد فقير .

أقام صلاح الدين قطرة الحليب .

وفي القرآن ستمائة آية تدعو إلى العمل والفعل .

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

كثير من الناس يقولون : الأخلاق موضوع فاته الوقت .

لقد قويت الأمم بالأخلاق واندثرت وماتت بالتفريط في الأخلاق :
بابل ، أشور ، الفراعنة ، اليونان ، الرومان وغيرهم وغيرهم ، الدول الإسلامية التي أشار إليها ابن خلدون وركز على تسامحها (تفريطها) في الأخلاق انهارت وماتت .

ولا ينبغي للإنسان أن يترك الأمور حتى تستشري وتتعفن ، ولكن ينبغي أن يكافحها في أولها .

إن قيام الحضارات والعلوم والفنون مرتبط بالدول التي تسهر عليها ، وزوالها مرهون بزوال تلك الدول ، وإن ما قيل عن بابل وفارس ويونان يقال عن روما واندلس ، وأن تلك سنة الله (تبارك وتعالى) ولن تجد لسنة الله تبديلا .

هذا ما قرره فلاسفة التاريخ وعلماء الإجماع بالأمس ويكررونه اليوم .

[illegible] القدر :

تبين أدبار الأمور إذا مضت ونقبل أشباها عليك صدورها

الفصل الخامس

المهدى بن عبود

عقيدة المستقبل تضمن انتصار الحق على الباطل ، وإن انتصر الباطل فى أولى جولاته مع الحق ، والإيمان هو الضمانة الأولى لنصرة الحق على الباطل . نجد الآن اعترافاً بأن الإسلام هو العقيدة التى يمكن أن تسق الإنسان وتشفيه من أمراضه ولم يجدوا عقيدة وحيدة على وجه الأرض تحل محله أو تماثل مكانته .

كثير من أصحاب المذاهب الغربية ماتوا حتى لعدم وجود التكامل بين أفكارهم واحتياجات أرواحهم أو طغيان إحداهما على الأخرى .

• • •

يظن بعض الناس أن التاريخ مستهل الحركة تلقائى الأحداث يقود نفسه بنفسه بمعزل عن قضاء الله وقدره ، وما هذا الحكم إلا نتيجة لوقت الغفلة عند العقول الناقصة الرشد والقلوب التى عليها أقفالها بحسب تعبير القرآن الكريم ، هذا المؤتمر ما هو إلا لبنة إضافية تنضم إلى عقد الأحداث ى حركة مقدرة هى انتقال الحضارة من مكان وهو الغرب إلى مكان آخر وهو الشرق مهد الرسالات ومحض الحضارات .

استمر وجه التاريخ فى العالم بأسره فى التغيير بعدما استفحل طغيان المال والجاه واستغلال ثروات الأمم الصغيرة والضعيفة خصوصاً بعدما انتشر فسوق المترفين وعبادة العجل الذهبى وتعدى حدود الله (تبارك وتعالى) بتشويه الأعلام وإشاعة الأكاذيب والافتراءات على الله وعلى الأبرياء من خلقه وتحريف المعارف وقلب الحقائق ، وضاع مربو العلم الإنسانى الربانى الذى كان ينير السبيل إلى سعادة

الدارين ، وأصبحنا نشاهد بأسف أن شموخ الحضارة الغربية آذنت بالتدهور والأفول ، فاندهشت الإنسانية لما صارت إليه الأشياء حتى أصبح أرقى الأمم أشقاهم .

كان ذلك ناتج عن تناقض فى السلوك إذ تقدمت الآلات التكنيلوجية وتأخرت النفوس البشرية وامتلأت الجيوب والمصارف وباتت القلوب فارغة من نور الحق ، تائهة فى ظلمات الوجود المنحرف .

أخذوا يتساءلون لا عن إمكان انهيار الحضارة الغربية التى أصبح أمراً لا يحاول فيه أحد أبداً ولكن عن انتقال الحضارة فى المستقبل إما إلى الصين أو إلى الأمة الإسلامية كما يرجحه كثير من المفكرين الغربيين .

ومفتاح الرسالة الحضارية المقبلة هو فى رفع هذا التناقض الذى يتخبط البشر فى كلمات بحر اللجى حيث ضاع الأمن والطمأنينة وتكاثر الفتن والأزمات والحروب والاغتيالات والانحلالات الجنسية .

والشرط الأساسى فى تحمل الرسالة المتجددة على رأس كل مائة سنة بحسب تعبير الحديث الشريف هو قيام رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه لأداء الأمانة وتبليغ دعوة الحق علماً وعملا بجمع شتات مقومات الإنسان الأربعة فى وقت واحد وهى :

الجسم فى مجال الاقتصاد
والنفس فى مجال السلوك
والعقل فى مجال التفكير
والروح فى مجال الإيمان

والأمة الإسلامية لا ينتظر منها تلبية الحاجات المعيشية ولكن الرسالة الإسلامية سترجع النفوس الضائعة إلى ذويها والقلوب الحائرة إلى طمأنينتها والأرواح إلى حياتها المشرقة فينضم الازدهار المادى إلى الازدهار المعنوى ويجمع شمل الإنسان ويشتت الحياة برجوع الناس وخصوصاً أهل الكتاب إلى كلمة سواء بيننا وبينهم .

المعنويات باقية ، والماديات فانية والإسلام يجمع بين الوقت والخلود ولا يمكن أن نتصور رسالة أخرى يتقبلها البشر بصدر رحب إلا الإسلام الحنيف ، لأنه مبنى على الحب أى على العلم الربانى الذى هو على صراط مستقيم ،

الشرط الثانى : إيمان صاحب الرسالة برسالته التى تحضه على الطهارة النفسية فى الوسائل والغايات على السواء فلا يبحث إلا عن الحق ولا يناضل إلا من أجله ولا يقول إلا الحق ولا يحرف الكلم عن مواضعه مثلما يفعل المغضوب عليهم ، وتكون مقومات الحياة من مال وإعلام وأدب وفنون وترفيه وتسلية قائمة على الحق والعلم والذوق السليم فى الكتاب والمجلة والصحيفة . إن جميع تعاليم الإسلام وهديه وسلوكه فى كلمة واحدة : هى الجهاد فى سبيل الحق لا تأخذ المؤمن فيه لومة لائم .

* * *

جفت بساتين الروح العربية وتنتظر من يرويها بالقرآن والسنة .

أرى مشكلة المثقف العربى فى الوطن العربى اليوم على وجهين :

الوجه الأول : وهو تائه فى صحراء الفكر بتجاذبه تيارات كثيرة ، فالتيار الإسلامى الخالص يأخذ نفسه محاطاً بالأعداء حتى فى عقر بيته خلاف لما يكون فى المعتقدات الأخرى والمذاهب الأخرى التى يتعادل فيها الأنصار والخصوم وهذه نكبة الإسلام فى العصر الحاضر ، فإذا هو تائه فى الصحراء وخصوصاً المتفرجون منهم .

المسلم يعيش فى حضانة القرآن والحديث وخصوصاً الإنسان ، والخوف من الشطط والخروج عن جادة الطريق ، ولذلك يتشبث بالسلف الصالح لأنه قدوة ، واليوم المتفرنجون يضربون السلف الصالح ، والغاية من ذلك ضرب الإسلام عن طريق السلف الصالح ، فيقولون إن السلف الصالح طبعاً أسدى معروفاً وقام بواجبه ولكن كان زمانه غير هذا الزمان فإن سلوكه وصورته وقدوته لا تليق بهذا الزمان ولا يريدون الكشف عن مكنونات صدورهم .

وهناك الخلف الصالح وهو يتنكر لهذا ويريد أن يغير قوانين الله (تبارك وتعالى) فيساوى فى الأرض بين الرجل والمرأة .

وكأنه سلف صالح عندما يتطاول الإنسان حتى على القرآن نفسه وعلى السنة وغير ذلك .

الأغلبية الساحقة من الشباب أبرياء ومسئوليتهم على كاهلنا لا على كاهلهم لأنه كلما عرفوا الحقيقة إبتغوها ، هؤلاء الناس أبرياء يريدون طلب الحقيقة .

إن من سنة التاريخ تأتى : كلما كان الزمن فاسداً يأتى فذ من الأفذاذ ويطبع التفكير بكيفية عميقة ويكون انقلاب فكرى ، وأنتم تعلمون أن سنة الله فى خلقه بعد كل انقلاب جذرى عميق تأتى نكسة ، ففى أيام الباطنية قام أبو حامد الغزالى وأشهر الحرب على فلاسفة اليونانية ثم على الفلسفة بصفة عامة ثم على الباطنية ، وفى أيام ابن تيمية أيضاً واجه الحركات المنحرفة .

وكانت الحروب الصليبية ، فانتصب كمجاهد فكرى ومجاهد عسكرى فى نفس الوقت ، وطبع عصره كمحافظ على الكتاب والسنة ، لأن المؤمنين المتقين العلماء يرحم الله تبارك وتعالى بهم الأمم كمحافظين ، وأسميهم أنا حراس الكتاب والسنة .

وفى الأيام التى يعم فيها الفساد يكثر التذمر من الفساد والانعزال عن الناس ويظهر بعض الناس مثل أبى حامد الغزالى كالبستانى يسقى أرضاً كانت جافة قاحلة فيسقيها بنوع من العرض على أسرار القرآن وأسرار الحديث وأسرار الوجود ، وهذا من رحمة (تبارك وتعالى) فيما يتعلق بالتدافع .

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)

هذا التدافع يكون فى ميدان الفكر كما يكون فى غيره فتتدافع المذاهب وفى مجموعها رحمة ، ولذلك قيل اختلاف العلماء رحمة .

* * *

الإنفجار السكانى فتنة يهودية ومؤامرة يهودية .

إن أرض العرب تتسع لعشرة أمثالهم الآن .

التشاؤم فى الغرب ، أما فى الإسلام فهو من قبيل المحرمات ،
المسلم لا ييأس (قال : ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) .
بديل التشاؤم اتباع الحق .

* * *

قال القرآن : يتفكرون ، كلمة تفكر فى القرآن ولكن كلمة الفكر لا وجود لها ـ كلمة يعولون كوظيفة موجودة ، ولكن كمصدر لا وجود لها لأنها وظيفة يشترك فيها الدماغ والغدد والجسم بأكمله ، فالإنسان يفكر بجسده كله ،
عقل كسول يريد الإدراك الحسى ، أما الروح فلها إدراك معنوى .

(٢)

نحن طلبة الجامعة نرى أن المناهج الدراسية فى جامعتنا تعتمد فى أفكارها ومصادرها على الغرب ونظرياته ، فكيف يقولون إن هذه الحضارة مفلسة ، ونحن نأخذ منها كل يوم ، أم أن العيب فى أساتذتنا فقد أصبحوا اليوم مقلدين لا مبتدعين للأفكار .

الإجابة :

العيب مستتر فى كتب الغيب وحاكى الكفر ليس بكافر وتعلم الأشياء أفضل من جهلها ولو كانت حراماً وليس كل ما فى الغرب فاسد .

هذا المنهج العلمى التطبيقى جاء ثورة ضد المنهاج الاستنباطى الأرسطاطالى القياسى الارسطاطالى ، تنبه بعض الناس إلى أنه إخبار بمعلوم لأنه لا يفيد ولا يجدى نفعاً ، هذه الأشياء نجدها فى مؤخرة كتاب (منهج البحث عند المسلمين) النشار ، وكذلك ابن تيميه فى رده على المنطقيين ، وكتاب نقد المنطق وكتابه رسالة فى الفتاوى .

وابن تيميه أخذ المذهب الاستقرائى (المنطق) من المفكر أولاً ثم من المشاهدة ثم الفرضية ثم التجربة ثم تكرار التجربة ثم جمع المعلومات واستقرائها ثم بعد ذلك (الاستنباط) هذه أشياء عامة وأصلها قرآنى .

إذن هذه الأشياء نأخذها وكذلك الصناعات ، ثم مناهج التدبير الإدارى ، عندهم أشياء جديدة ولكن عندنا أشياء أجود فيما يتعلق بالحسبة .

ليس كل ما فى الغرب فاسد ولكن ما يأتى ونخاف منه هو التسلية وهنا المصيبة ، هو أن عندنا معياراً لا يلتفت إليه ، أنظر الدعاية الصهيونية وراء من تكون .

حاول عبد الرحمن العوضى وزير الصحة فى الكويت أن يتقدم بإطروحة فى الطب بالعنوان الآتى (عزل فرويد عن عرشه) فى جامعة برندايس فقالوا له مستحيل أن يقبل لا العنوان ولا المضمون .

« إن ربك لبالمرصاد» فقد جاء من ينتقده من اليهود (حوس بال بيلى) وهو من أقطاب علماء الجراحة فى الجهاز العصبى ومن علماء النفس أطلق على فرويد « فرويد المضطرب » .

وكذلك كتب دورى درن كيت، كتاباً باسم (الشقشقة الفرويدية) .

والغاية من ذلك هو أن لا يؤمن الإنسان بالإطلاق فانتقلوا من الميدان الفزيائى إلى الميدان النفسانى فى الحرب النفسية وأن لا يؤمن إلا بالنسبية ، هذا ما يقوله الماديون : ليس هناك مطلق إلا النسبى أى ليس هناك أسود إلا الأبيض وليس هناك طويل إلا القصير وهذا هو التناقض فى الكلام ، ليس هناك مطلق إلا النسبى ، إذ هناك مطلق وهو النسبى ، هذا هو طمس البصيرة من هذه الناحية يجب أن نحترس ، هذا يحتاج إلى عمق فى التفكير والعمق فى التفكير بسيط جداً ، إذا تفتح القلب مع العقل ، ولا تغيرن العقل والقلب إلا فى القرآن وما رأيت هذا فى كتاب فلسفة (لهم قلوب يعقلون بها) أنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

العقل وظيفة ، والقلب من نفحات الله تبارك وتعالى .

(٣)

فكرة التثليث والماركسية: هل الماركسية صورة نصرانية .

إن فكرة التثليث ضغطت على كل العصور إلى اليوم بدون أدنى استثناء)مرة في شكل وقفة دينية ، مرة على شكل فلسفة ، وقفة سائر الديانات : انطلقت من التوحيد كاملة . غيرها القياصرة والرهبان والكهان وجاء الثالوث من أيام الفراعنة ، وزاد الثالوث ثالوثاً فأصبحت تسعة ، أما شيا كريشيا إلى غير ذلك الآب والابن والروح المقدسة ، عزير ابن الله ، شعب الله المختار ، رب خاص ، هذه عنصرية لا مثيل لها رب خاص باليهود لأنهم يقولون البشر هم الذين نفخ الله من روحه فيهم ولم ينفخ إلا في روح اليهود والباقي مزابل . فدخل التثليث .

وقد تناول هذا فردريك نيتشه في فصل رائع وصدر كتاب جديد اسمه (السم في الدسم) لشخص اسمه جلادر ، يقول القديس بولس العملاق بساقين من طين يعني ماديه فالانتقادات أصبحت واضحة على إدخال التثليث حتى في المسيحية لأن المسيحية في البداية كانت موحدة .

وجاء التثليث في الفلسفة دفيسكو،ثم د أوغست كونت ثم د هيجل،وهذا العصر أصبح منذ القرن ١٨ يسمى عصر الاكتئاب والهم والغم المسرحيات والأفكار الوجدانية والروايات تنم من صورة مبلبلة نفسية قائمة تخشى على أجيالها الصاعدة أن تغرهم وتجرفهم إلى ماديات يصعب الخروج منها بعد الوقوع فيها .

إن مرض الغرب أنه يعترف بعالم الشهادة وينكر عالم الغيب ومن هنا وصل إلى الهم والغم .

أما الإسلام فهو يدعونا إلى الإعتراف بالواقع الحسي والمعنوي على السواء وضرورة تجاوب الحواس السليمة والعقل السليم في نقل الإدراكات الحسية أعلى الدرجات حين يقترن العقل والعاطفة ويتاخيان في محبة الله تبارك وتعالى السعادة

قائمة على مجاهدة نفسية لرياضة العقل وتدريب الفكر على الصواب والمال إذا أنفق فى الحلال كان صدقه وفى الحرام كان معصية ، أما ما هو مذموم فى القرآن فهو الترف لأنه مقترن بالفسوق . الترف هو الكسب بغير حلال .

لابد من الثقة بالنفس ، وحسن الظن بالله تبارك وتعالى ولا يجب أن يتشرب الشك إطلاقاً للنفس فهو هدم للشخصية .

تصرف بأسم العليم متفتح صدرك للعلم وبأسم الحكيم متفتح صدرك للحكمة .

لماذا تكون أرقى الأمم أشقاهم .

الإنتحار فى تعاطى المسكرات والفسق والفجور لإطفاء لهيب الفراغ المعنوى .

(٤)

القصة الغربية لها أغراض مرضية خمسة :

١ - فقدان وجود الله تبارك وتعالى وذكره هذه القصة .

٢ - تحطيم اللغة .

٣ - تحطيم الأسرة وتفككها .

٤ - تؤدى إلى الإباحية .

٥ - الرجوع إلى نوع من البربرية والهمجية .

الاقتصاد معبود اليوم وعجله الذهبى والبنوك مساجده وأجهزة الوعظ والإرشاد هى ما يسمى بالإشهار .

كلما فرغ القلب من الإيمان القوى ملأه الشيطان بخداع العناوين (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين) الرأسمالية والماركسية من منبع واحد .

إن اسم «تروتسكى» يعنى أقصى اليسار واسم «روتشلد» يعنى الرأسمالية المتطرفة وهما يمثلان تموجات العقلية اليهودية .

والتيار الرأسمالى والتيار الشيوعى أبوهما التيار الصهيونى .

الفصل السادس

رجال عرفتهم : العلامة محمد المجذوب

ما انشرح صدرى لرؤية عالم من علماء المسلمين الذين سبقوا جيلنا أكثر سماحة وجه وسلامة بادرة من شيخنا المجذوب المجاهد الذى شق طريقه فى الصخر بعد سن الستين ونقل مركز عمله إلى جوار الحرم الشريف ، باحثاً ومعلماً وكاتباً له أسلوب غاية فى البراعة والبلاغة ، كأنما يجرى القلم بين يديه كالنغم الموسيقى يحمل أعذب الألحان ، ولقد تجاورنا فى مؤتمر السنة والسيرة فى قطر ، فكنت أصابحه وأماسيه ويجدد فى نفسى صورة الوالد رحمة الله عليه فأحس بدفء القلب بالقرب منه ، حتى اختارنى جزاه الله من بين الرجال الكرام الذين عرّف بهم وكتب عنه ، وما أعتقد إننى أبالغ مبلغهم ولكنها عاطفته الكريمة ، ويعنينى فى شخصية هذا الرجل أمران .

أولهما أنه جاء من المناطق التى حمت ظهر الدولة الإسلامية أكثر من ثلاثة قرون فكانت فى رباط مع العدو ، هكذا ترد صورة (طرطوس) على ذهنى نتيجة قراءاتى لجهاد أهلها فى مقارعة السلاح وحماية الزمار ، فهو من نسل هؤلاء الأشاوش الكرام الذين دافعوا عن بيضة الإسلام وحموها ، وأنت حين تتحدث معه فى شأن من شئون الفكر تجد عنده تلك الصلابة المؤمنة التى تقاوم ولا تتردد فى إنزال الهزيمة بالمخربين ودعاة العلمانية .

ثانيهما : تلك القدرة العجيبة على الرحلة والذهاب إلى أقصى الأرض أياماً

وشهوراً ، يبحث وينقب ويجمع ملاحظات دقيقة عن عالم الإسلام ، كتلك التي تراها واضحة في كتاباته عن أندونيسيا والهند وتركيا ، في هذا السن المرتفع ، تجده جلداً على الرحلة وعلى العمل ، وهو فوق الثمانين الآن لا تفارقه بشاشة وجهه وسماحة خلقه .

ثالثاً : تلك القدرة القادرة على التعبير في مجال القصة والشعر ، والمقالة والنقد والخطابة ، وتلك خصيصة لم تعرف في عصرنا كثيراً ، وهي بقية تلك الأصالة النادرة التي ورثها من أجداده المجاهدين بالسيف ، فأصبح هو في عصرنا هذا مجاهداً بالكلمة .

وحين نقل رحله إلى المدينة المنورة وعمل في الجامعة الإسلامية تجده مدرساً ومشرفاً صحفياً على المجلة وخطيباً وإماماً ومنسقاً لتجمعات الطلاب ، لا يكل ولا يمل .

ومن هذا النوع الكريم عرفت أحمد مظهر العظمة رحمه الله ، الذي ظل يصدر مجلة التمدن الإسلامي خمسين عاماً ، و مهدي الاسلامبولي ، الذي عكف على تصحيح كتب التاريخ الإسلامي وتنقيتها من الزيف ، وهو لا يتوقف عن مراسلتي ليوجه نظري إلى هذا الموضوع أو ذاك في خبرة عميقة وإيمان عميق بحق الدعوة الإسلامية علينا .

وإذا كان العلامة محمد المجذوب يسعده أن يذكر ماضيه الحافل فإنه يذكر منه هذا الجانب التربوي والتأليفي فيقول :

أعتقد إني أسهمت خلال عملي في التعليم والنشر ولله الحمد في إبراز المعالم الإسلامية سواء في أذهان الأجيال التي شاركت في تعليمها ، وهي الآن منتشرة في مختلف أرجاء الوطن الإسلامي من أقصى الفلبين إلى أقصى حدود تركيا ، أو في أذهان القراء الذين أشعر من خلال رسائلهم أنهم يحبون أن يقرؤوا ما أقدم لهم من أعمال فكرية وأدبية ، وقد بلغت حتى اليوم قرابة الخمسين كتاباً ، ولله الفضل والمنة .

ولعلي لا أحيف على أحد من الأخوة العاملين في نطاق الأدب الإسلامي إذا قلت إنني أول الداعين إليه ، وتشهد بذلك مقالاتي التحليلية في مجلة (حضارة الإسلام) الدمشقية في أوائل عهدها بالصدور ، نشرت في كتابي (مشكلات الجيل في ضوء الإسلام) ١٢٩٠ هـ .

وأضيف إلى ذلك إنني كنت السبب الأول لإقامة (ندوة الأدب الإسلامي) التي عقدت في لكنؤ بالهند عام ١٤٠١ وذلك أثناء زيارتي مندوباً من قبل الجامعة الإسلامية المحاضرة في دار العلوم ، فعرضت الفكرة على فضيلة الأخ الداعية الكبير الشيخ أبي الحسن الندوي فاستحسنها ، وما لبست إلا قليلا حتى عهد إلي بتنفيذها ، وقد حضرناها في وفد الجامعة والوفود الكثيرة الأخرى التي طارت إليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي .

وبين كتبي الخمسين (وهي متعددة المضمون ما بين سفر وقصة وتمثيلية ومذكرات) في الثقافة الإسلامية كتاب (علماء ومفكرون عرفتهم) وقد أعيد طبعه هذا العام ١٤٠١ وهو يترجم لعشرين من العاملين في خدمة الإسلام على مستوى العالم الإسلامي ، ثم تلاه المجلد الثاني . . وفيه مثل هذا العدد ، ولقد فرغت أو أوشكت من إعداد المجلد الثالث في هذه السلسلة ، وما أعرف كتاب لي في الثقافة الإسلامية أو التراجم أو القصة أو الشعر أو الخواطر منحرفاً عن الخط الإسلامي أو لا يتصل بالدعوة إلى الله » .

* * *

وهكذا نجد شخصية عريضة لها تجاربها خلال خمسين عاماً في ميادين ثلاث : التعليم ، الصحافة ، الرحلة في سبيل الله .

هذا رجل يكتب عن أكثر من ستين علماً من أعلام الإسلام في العصر الحديث ويقدمهم للناس من خلال أعمالهم ، ويبقى هو في الظل مع أنه لا يمكن تجاهل دوره وفضله ، لعقد جمعيتنا معركة الغزو الفكري والتغريب :

يقول : إن حملاتكم المركزة على عملاء الغزو الفكري والتغريب وتتبعكم

حثالبهم وفضحكم مؤامراتهم في مقابل إبرازكم لخصائص الحضارة الإسلامية المتفوقة هي التي جمعت بيني وبينكم في نطاق الرؤية والفكر وهي التي حدثتني لكتابة ترجمتكم في المجلد الثاني » .

والحقيقة إنني أعتقد أن هذا جيل سبق جيلنا بعشر سنين وله حق الريادة ، وما زال يمتلك كل أدوات البيان وقوة العارضة ، فقد نشأ في أحضان محمد عبده ورشيد رضا والجسر ، والآلوسي وظاهر الجزائري والقاسمي ، أولئك الأبرار الرواد الذين جددوا الفكر الإسلامي استمداداً من دعوة التوحيد في الجزيرة العربية التي قادها الشيخ محمد بن الوهاب .

ما أجدر شيخنا المجذوب أن يكتب فصولا عن حياته تعرف به ، وما منا من أحد يبالغ في هذا الأمر ما يبلغه هو ، وإن كان يرى أن الوقت لم يحن بعد لذلك فلا أقل من أن يطلعنا ويطلع الشادين في مدرسة الدعوة الإسلامية على عصارات تجاربه الذكية ، فاستمع إليه يروي تجربة التعليم الضروري فيوجزها في سطور :

لقد كان يرى إن التعليم هو مهمة الأنبياء وهي أشق المهن وأسعدها ، فالمعلم يتعامل مع عالم من المتغيرات والثوابت ، فلكل تلميذ خصائصه التي يتفرد بها والتي يشارك فيها سواه ولا سبيل لنجاح العملية التعليمية إلا بملاحظة هذه الفروق وإعطاء كل منها حقه ، وإلا تحول التعلم إلى حركة آلية لا تزيد التلميذ إلا تعقيداً والمدرس إلا عناءاً . ثم يأتي التفاوت العقلي والنفسي بين المعلم وطالب العلم ، وكثيراً مايكون مدعاة لإثارة المشكلات وبخاصة في المجتمعات غير المستقرة ، ومن هنا يكون شعر المدرس بالرهق والألم من غربته في هذا الجو ، وهومايشكل الجانب الشق من حياته .

والمدرس الناجح هو الذي يدرك أهمية التجربة فيعالج مشكلاته مع طلابه بروح الأبوة التي تقدر واقع الولد فتمنحه وضعه الطبيعي من الرعاية والحكمة وما أقل هذا النوع من المدرسين » .

أرأيت أعلى من هذا قدراً في فهم نفسية الطلاب ومسئولية المربين .

ومن هنا يجيء ذلك الإحساس الغامر بالسعادة عندما ينجح المربى المسلم فى كسب ثقة طلابه ونشوء روح المودة الخالصة فى صدور أبنائه حين يلقاهم من بعد فى طريق الحياة .

يقول : ومن فضل الله عليّ إننى تذوقت ولا أزال أتذوق من هذه الثمرات أثناء تجوالى فى أنحاء العالم مالوصورها بصورة المعلم المرهق لايقن إنها نعمة تستحق أن يدفع ثمنها الكثير من التعب والعرق .

« إن المعلم الصالح هو الركيزة الأساسيه فى بناء المجتمع ، فما لم يع هذه الحقيقه ، ويبذل كل إمكانياته لتحقيق واجبه فى تكوين الأجيال السليمة فلا سبيل إلى أى أمل فى مستقبل أفضل » ،

وماذا بعد يا شيخنا المجذوب :

« إن الصحافة بعد المدرسه هى من أهم العوامل المكونة للرأى العام صلاحاً وفساداً ، ومن هنا كتب المجذوب بقلمه فى مختلف الصحف الإسلاميه على امتداد العالم الإسلامى .

ما أجلها حياة خصبة عريضة تحتاج إلى فصول مطولة ، وما هذا إلا تحية أريد أن أسعد بها هذا القلب الكبير الذى أسعد قلوباً وأحيا نفوساً ، أطال الله عمره وأعطاه الحياة العريضة الحافلة بالعطاء ،

(وتحية للعلامة المجذوب فى مطلع العام الحادى والثمانين من عمره المديد ، فهو من مواليد ١٩٠٧) .



الفصل التاسع

مريم جميلة

سقوط حضارة الغرب

العلمانية فى أوروبا إتخذت من العلم الحديث أنفذ وأحد سلاح الغرب لغزو البلاد وقهر الأذهان وتسخير القلوب وقد استخدمت أوروبا هذا السلاح على الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ثم أبطلت بها سائر الأديان والمعتقدات بوصفها خرافات وأوهاماً فصارت (المادية) دينا جديدا ينسخ سائر الأديان السابقة .

ونالت نظريات هذا الدين الجديد قدسية بحيث أنها تقبل دون نقد أو أعمال رأى أو معالجة فكر ، كما كانت العقائد الدينيه القديمة تقبل الماضى وتمكنت المادية من الاستيلاء الكامل والقول الفصل فى كل أمور الحياة إلى أن فسدت الكنيسة الرومانية نفسها فساداً كاملا شاملا .

وكانت الدولة العلمانية القومية التى حطمت طلب الدولة المسيحية ثم ألحقت الثورة الفرنسية بالكنيسة الرومانية ضربة قاضية وتمخضت الفلسفات المحادثة الخالصة التى دفعت إلى الثورة الفرنسية من ثورة صناعية ومن الثورة الصناعية نبعت الشيوعية .

وقد تغيرت نظرة الإنسان إلى الطبيعة .

فأصبحت نظرة إستغلال واندفاع دون تحفظ ودون قيد ، تعدى استغلال الطبيعة إلى حد تدمير البيئة الطبيعية التى نستمد فيها حياتنا وتعتمد عليها معيشتنا فنشأت إخطار جديدة كالتلوث وتدفق السكان وفساد البيئة وتدنسها .

ومن هنا اتجه العالم إلى تدمير الجنس البشرى إذا بقيت الحياة على صفحة

الحياة . لقد كان تلوث الأرض نتيجة حتمية لتلوث الروح الذى كان نتيجة عاجلة للتصور المادى الملحد ودراسة العلم بدون الرجوع إلى الخالق فيجرى استنفاد المصادر واستنزافها على وجه الأرض لأن العلماء لا يشعرون بواجبهم ومسئولياتهم .

هذا التصور العلمى التقليدى الذى يسود العالم منذ ثلاثة قرون فالواجب فى تحرير أنفسنا أن نحرر العلم من فلسفة المادية ومقاومة تأثير هاثير الإنسانى وان نوجد تصوراً موحداً للعلم فى سبيل إيجاد علم إسلامى جديد بجهود أنفسنا وتفكيرنا الخالص ويجب التخلى عن التصور الخاطىء للتقدم المادى والرفاهية كهدف للحياة الإنسانية .

إن المجتمعات التى حاولت سد متطلباتها الخارجية كلها لم تنجح إلا فى إيجاد فقر روحى داخلى يحل محل الثراء الخارجى لها فتعانى المجتمعات الغنية نتيجة لذلك من الفقر الروحى معاناة سافرة لا تساويها معاناة .

لقد كانت هذه المرحلة المفزعة للتطور مسئولة عن تحويل أمريكا إلى عبودية الآلات والماكينات .

فأمريكا تستعبد العالم كله بطريقة حياتها ، تستعبدها الآلات والماكينات ، عبر نمط خاص للحياة ، للتقدم المادى ، تأسرها المصانع والمختبرات .

وقد ذابت شخصية الإنسان فى بوتقة الحياة الآلية والتكنولوجية بحيث إن أفكاره وعواطفه ومشاعره قد صهرت فيها وصارت ميكانيكية فلا يحمل فى صدره قلباً إنسانياً وإنما يحمل صفات الصخر والفولاذ فأصبح ضيق الفكر ومقرضاً شحيحاً بارداً لا تثور فيه العاطفة ولا تتحرك المشاعر وقد فقد قلبه الحرارة وعيونه الندى .

ومن هنا يحق لكل مسلم أن يحارب للدفاع عن نفسه وعن أسرته عن الوطن والملة .

وبالإشارة إلى الاتجاه الخطر الضال فى ظل الحركات القومية للتحرر وإنما

يجب على المسلمين أن يعارضوا القومية وأن يوحدوا كلمتهم ويضموا صفوفهم بصرف النظر عن القوميات وعن العناصر .

* * *

وتقوم علمانية القرن العشرين على أسس متعددة :

(١) إعلاء شأن الوطنية والقومية والشعوبية (وهذا يتعارض مع الوحدة الإسلامية والأخوة الإسلامية) .

(٢) تحطيم الخلافة الإسلامية .

(٣) رفض الشريعة الإسلامية (لتحل محلها قوانين وضعية) .

(٤) ترجمة القرآن إلى اللغات الأخرى لصرف المسلمين عن النص العربي واللغة العربية التي هي لغة جميع المسلمين في أرجاء المعمورة .

(٥) إحـــلال الحرف اللاتيني محل الحرف العربي في اللغات التركية

(٦) جعلت المثل الأعلى هو رفع مستوى المعيشة (بدلا من مثل العليا الإسلامية) .

(٧) سفور المرأة واختلاطها بالرجال دون ضابط وتحللها من العفة (واغرائها على ترك البيت والأولاد للعمل في الميادين العامة) .

(٨) محاكاة المسيحيين الأوربيين والأمريكيين مع نبذ الزي الإسلامي المتميز .

(٩) محاولة التوفيق بين العلمانية والإسلام على حساب الإسلام .

ونرى أن التوافق مع العالم الحديث لا يكون بترك التراث أو الماضي أو التاريخ وعلى المجتمع العلماني أن يساير الإسلام ويصلح نفسه ليوافق منهج الله .

* * *

زعم الزاعمون أن الخلافة ليست في الحقيقة جزء من الإسلام لأن رسالة النبي كانت محدودة بالدعوة فهو لم يشأ مطلقاً أن يحكم . وأن إلغائها إنما جاء

بسبب كل الشرور التى وقعت على امتداد تاريخنا كله (أليست البابوية أيضاً كذلك).

وليس هذا صحيحاً على الإطلاق.

والإسلام لا يمكن أن يحيا دون تجمع إسلامى، والمجتمع الإسلامى لا يستطيع أن يبقى على قيد الحياة دون قيادة منظمة.

* * *

كذلك فإن النخبة المثقفة قد اعتبرت الشريعة الإسلامية شيئاً عفا عليه الزمن واعتبرت مفهومها للعدالة أتى من النظم القانونية الغربية، وقد هوجمت النظريات التى شرعها القرآن والسنة، كما هوجمت العقوبات على الزنا ومعاقرة الخمر والميسر والربا بوصفها عقوبات قاسية ولا إنسانية.

وهذه دعاوى باطلة.

* * *

ويحاول النفوذ الغربى معارضة الإخوة الإسلامية بدعوى أن الإخوة الإسلامية التى تتخطى اللغة والجنس والحدود الجغرافية لا يمكن أن تتوافق مع غلبة السيادة القومية.

وهدف ذلك من الغرب العمل لعزلة الشعوب الإسلامية وفصلها عن بعضها البعض.

وقد تبنت تركيا وماليزيا وأندونيسيا الأبجدية اللاتينية وغلبت اللغة الإنجليزية واهملت اللغة العربية والنظم التربوية الإسلامية.

وقد أدى إحلال اللهجات العامية محل الفصحى إلى هذا التدهور المتصل فى فهم الأجيال الصاعدة للغة القرآن.

أما بالنسبة لتطبيقات العلم الحديث والتكنولوجيا فإننا نقبل كل القوانين الإيجابية ونرفض النواحى التى تتعارض مع التعاليم الإسلامية، والذين يصرون

على أن بوسعنا أن نتقبل الخير ونرفض الشر فى الحضارة الحديثة ألا ينسوا أن لكل حضارة كيانها المتحد المتماسك ، وليس بوسع جانب منفرد من أى ثقافة أن يقوم منعزلا عن الجوانب الأخرى .

* * *

تلك هى أفكار المهدية (مريم جميله) وقد شرحت للأستاذ المودودى تصورها للعلمانية والإسلام فأرسل إليها يقول :

إننى لفى دهشة كيف وسع فتاة مثلك ولدت وتعلمت فى أمريكا أن تبلغ هذه البصيرة النافذة فى هذه المسألة ، فإن ما قلتيه فى خطابك حاز إعجابى العميق .



الباب السابع

المناضلون

---

(١) أحمد السكندرى

(٢) طارق البشرى

(٣) اللواء جمال الدين محفوظ

(٤) عبد المجيد الزندانى

(٥) رشدى فكار

(٦) فؤاد سزكين

(٧) أحمد ديدات

(٨) حامد ربيع

الفصل الأول

الشيخ أحمد السكندرى

علامة اللغة العربية

كان أحمد السكندرى أحد المفكرين الذين عاشوا مرحلة اليقظة الفكرية والعلمية التى شهدها العالم العربى فى مطالع القرن العشرين ، وممن فطنوا إلى خطورة الغزو الحضارى الذى بدأ يفد من البلاد الأوربية ويطرق أبواب الشرق وينفذ إلى حياة العرب بوسائل مختلفة .

وقد برز دوره فى خدمة قضايا اللغة العربية ومحاربة الدخيل وتضييق الخناق أمام تغلغله فى نفوس تلاميذه وأبنائه لاعتقاده أن الأمة إذا فقدت أصالتها وخرجت على موروثها فإنها تفقد بالتالى شخصيتها وتذوب فى غيرها ولغة العرب فى نظره إحدى الدعامات الرئيسية التى حفظت لهم حضارتهم وهو لا يغلق الباب أمام التطور .

ولقد كانت حياة أحمد السكندرى خصبة عريضة فهو منذ تخرج من دار العلوم بمصر ١٨٩٨ وعمل أستاذاً للأدب بها عام ١٩٠٧ وحتى وفاته فى إبريل ١٩٣٨ وهو يعمل فى هذا المجال فى سبيل حماية اللغة العربية وتأصيل دراسة الأدب العربى ، وليس غريباً أن تكون السنوات الاولى فى حياة أحمد السكندرى مرتبطة بالأحداث التى صاحبت الاستعمار البريطانى والتى حاولت تدمير اللغة العربية وإعلاء العامية واللغة الإنجليزية ، وفى هذه المرحلة ظهر بعض العاملين فى هذا المجال وفى مقدمتهم ولكوكس وويلمور وسبيتا ، وكل هؤلاء حاولوا الدعوة للعامية والانتقاص من الفصحى ، ومن هذا كان ذلك الدور الضخم لدار العلوم عام ١٩٠٧ فى مواجهة هذه المؤامرة ، وقد عمل أحمد السكندرى فى جميع التنظيمات التى قامت من أجل

الدفاع عن اللغة العربية سواء فى مؤتمر دار العلوم أو المجمع اللغوى المصرى الذى أسس سنة ١٩١٦ ثم كان واحداً من أبرز أعضاء المجمع اللغوى الذى أنشىء عام ١٩٣٢ فى القاهرة كما كان واحداً من الذين اختارهم المرحوم محمد كرد على فى المجمع العلمى العربى الذى أنشأ فى دمشق عام ١٩٢٢ .

وكان خلال هذه المراحل كلها يشارك فى العمل من أجل خدمة القرآن الكريم واللغة العربية والأدب العربى ، وكان لثقافته الإسلامية العميقة فى مطالع حياته أثرها الكبير على تكوينه حيث حفظ القرآن وتعرف إلى كنوز السنة وأصول الحديث النبوى الى مذاكرته لأيام العرب وتاريخهم وإعجابه بالشعر القديم وحفظه وميله لدارسة القضايا اللغوية ،كان ذلك كله من العوامل التى أعطته رسوخ القدم والقوة على تحقيق بعض ما كان يحاول الوصول إليه .

(٢)

وقد فصل الأستاذ إبراهيم عبد الرزاق الحديث عن نضال الشيخ السكندرى فى مجال اللغة العربية والأدب ، فتناول المجالات الكبرى التى عمل فيها وفى مقدمتها الاشتقاق اللغوى ، ويعد هذا العمل بمثابة حجر الرحى فى جهاد السكندرى فى سبيل حماية اللغة من الغريب والتقليل من التعريب ، وكان الهدف أساساً هو تمكين العاملين فى حقل اللغة من إيجاد أفعال وصفات من غير المصادر كأسماء الأعيان والجواهر المحسوسة فى عالم الطبيعة والكيمياء والطب والصناعات المختلفة ، فلو لم يجز ذلك لتخلفت اللغة أمام دراسة هذه الأشياء ، وكان أئمة اللغة العربية فى ذلك الوقت قد منعوا الاشتقاق من هـذه الأعيان وحصروه فى المصادر والأفعال مع وروود الكثير من مشتقات الأعيان فى اللغة بحيث تعد بالمئات بل بالألوف .

وفى سبيل الدفاع عن الفكرة وحمايتها ودفعها قرأ السكندرى قاموس الفيروزبادى جميعه واستخرج منه أكثر من مائتى فعل تكون هى ومشتقاتها ألوفاً ، ومن حيث إن الكثرة عليها مدار القياس فقد اعتبر المجمع هذه الكثرة النسبية كافية لجعل الاشتقاق من الأعيان قياساً فى لغة العلم فقط لا فى لغة الأدب إذ لا حاجة للأدب بها .

وكان هذا العمل من أكبر أعماله التى ظلت تتزايد وتنمو حتى صدر قرار المجمع مؤيداً لها .

(ثانياً) إدخاله كثيراً من مصطلحات الحضارة الحديثة فى فقه اللغة .

وقد تميزت بحوثه فى فقه اللغة بأنه ضم إليها الكثير من هذه المصطلحات مع التعليل وذكر سبب تفضيله لها .

ومن ذلك بحثه فى كلمة البرلمان ومجلس الشيوخ ومجلس النواب وغيرها ، ويرى السكندرى أن يسمى البرلمان : دار الندوة ، وهو إسم قديم يذكر أن كتاب الصحف قد استعملوه فى هذا المعنى منذ نصف قرن ثم هجروه لغير ما سبب معقول ، ويرجح عنده استعمال هذا الإسم ، إنه استعمل فى الجاهلية فيما يقرب منه .

ويقول إبراهيم عبد الرازق أن السكندرى قدم كثيراً من الألفاظ التى يفوق حصرها ، وهو مبثوثة فى تضاعيف كتبه ومذكراته وبحوثه مستشهداً لها من القديم والحديث على السواء ، مسترشداً بما حوته المعاجم اللغوية من معان وما فى القرآن الكريم من آيات تدل على نص فى المراد ، بل إنه لم يتوقف عن عرض فكره على الأحاديث النبوية الشريفة وعلى مواضع الاستشهاد ومن أشعار العرب القدماء ومأثوراتهم .

(ثالثاً) استطاع السكندرى ربط علم فقه اللغة بغيره من العلوم العصرية خاصة العملية منها كعلم تشريح الأعضاء وعلم الكيمياء وعلم الطبيعة وعلم الإحصاء وعلم النبات ، وقد نشر عديداً من البحوث فى فقه اللغة بمجلة المعلمين والزهراء والمجمع العلمى العربى فى دمشق ، وهو أول من اقترح تدريس فقه اللغة بمدرسة دار العلوم بعد أن أهملت دراسته ولم يجد من يعمل على بعثه وإحيائه .

ويحقق الباحث دور السكندرى فى علم فقه اللغة ويعزو إليه الدور الفعال فى هذا المجال ، ويقول إن الشيخ المرصفى هو أول من بعث فقه اللغة بعد ألف سنة مرت على آخر مؤلف فيه ، وقد تبين أن المرصفى لم يدرس هذه المادة ولم يقرأ له كتب خاصة به ، وأن أول كتاب عن فقه اللغة فى العصر الحديث هو الذى ألفه

السكندرى (طبع عام ١٣٤٥ — ١٩٢٦) وأنه انتفع بخصائص ابن جنى الذى لم يظهر إلا بعد وفاة المرصفى وأنه تابع فى بحوث فقه اللغة ما انقطع ألف سنة بعد كتابات الخليل والاصمعى والكسائى والفراء وأبى زيد وأبى عبيدة وأبى الاعرابى وابن دريد وغيرهم .

وكان فقه اللغة قبل السكندرى يدرس فى بعض أروقة الأزهر من هذه الكتب التى ألفها القدماء .

(٣)

كما قرأت فى أطروحة عنه فى معهد الدراسات العربية : أن السكندرى كان من طلائع العاملين فى ميدان اللغة فى مجمع القاهرة مع حسين والى والخضر حسين والعوادى ومنصور فهمى وأطلق عليهم إسم الرعيل الأول فى مجمع اللغة ، وأن جهده كان مباركاً ، فقد اشترك فى كثير من اللجان (الأصول ، الرياضيات ، علوم الحياة والطب ، لجنة المجلة ، لجنة بحث المصطلحات العسكرية ، لجنة دارسة المقاطع الأخيرة لبعض الكلمات الأجنبية ، لجنة المعجم الوسيط) .

ويقول إبراهيم عبد الرازق أن من يراجع محاضرات جلسات المجمع فى سنيه الخمس الأولى يجد أنه كان المحور الذى تدور حوله المقترحات والمناقشات فكان بحق كما وصفه بعض العارفين « مخ المجمع » .

وكان له عمل آخر فى خدمة القرآن الكريم ، فقد اشترك فى تصحيح النسخة الرسمية من المصحف الشريف وله ميزة فريدة فى معرفة المخطوطات وكشف زيفها وله جهود معروفة فى استجلاء كثير من مخطوطات عهود متقدمة ، وعنا النسيان عن لآلىء ودرر كثيرة منها بعد أن كانت تطوى فى عالم الفناء .

(٤)

ويقرر الباحث ان مذهب أحمد السكندرى فى اللغة قوامه التوفيق بين ماضى اللغة وحاجات العصر الذى يعيش فيه الناس ، وقد تمسك بهذا المذهب وما فرط فيه يوماً ولاسمح لأحد أن ينال منه منالا ولا فترت له فى الدفاع عنه همة .

حيث يؤمن السكندرى أن اللغة كالكائن الحى يمكن أن تنمو وتربو بوسائلها الذاتية من غير لقاح أو غذاء خارجى، ومن هنا تعلق بفكره أن اللغة العربية لغة اشتقاق لا غير، ثم قصر أجازة الاشتقاق على الصيغ القياسية التى ورد منها كثير من الكلمات المصوغة على أوزانها .

أما الصيغ الأخرى فكان يقول على مذهب قدامى اللغويين إنها صيغ سماعية أى تسمع من العرب فقط ولا يقاس عليها ، وبذلك تحصر الدائرة ويصبح وضع المصطلحات العلمية وأسماء الشئون العامة مقتصراً على استخدام وسيلة واحدة هى الاشتقاق من الصيغ القياسية فى اللغة ، هذا إلى جانب المجاز اللغوى وهو أن يوضع لفظ استعمل لمعنى قديم ليؤدى معنى جديداً تجوزاً لعلاقة بين المعنيين سواء أكانت العلاقة كبيرة أم صغيرة . وكان من مذهبه فى اللغة أن الفصيح من كلام العرب وحده هو الذى يحق له البقاء ، أما دون ذلك فدخيل لا حق له فى الحياة أو البقاء .

يقول إبراهيم عبد الرازق :

كان السكندرى يحب اللغة العربية ويتعصب لها ويدافع عنها ، وقد جاهد جهاداً كبيراً حتى جعل مجمع اللغة العربية يوافق على عدم اللجوء إلى التعريب إلا لضرورة قصوى ، وكان يعجب من القوم الذين يعيبون على المجمع استعمال ألفاظ غريبة لمسميات حديثة ، لأنه كان يرى أن هذه الألفاظ وإن بدت غريبة الآن فإنها بالاستعمال والمران تسهل على السمع وتجرى على اللسان . وهى أصون للغة من الدخيل ، لقد كان يؤمن كل الإيمان بمبدأ لا يتزعزع ، : ذلك أن اللغة العربية تكونت من عناصر تمت للأبدية والخلود بصلة ، وعنده أن عناصر هذه اللغة تنسحب إلى ماض لا أول له ، وفى طاقتها أن تمتد إلى مستقبل لا آخر له ، فاللغة فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها وحدة قوية تتسع لكل المصطلحات ولن تضطر إلى أن تنقطع عن ماضيها الشامل الممدود » .

ولعل من أهم ما وصل إليه السكندرى نتيجة تتبعه التراث العربى إن وجد ألفاظاً

وتعابير قوت يقينه بأن أكثر المعانى العلمية الحديثة ـ سواء أكانت فى الطبيعيات أو فى الكيمائيات أو فى علوم الحياة ، قد تؤدى بألفاظ عربية صحيحة ، وقد جاء ذلك نتيجة كثرة معايشته لقواميس اللغة ومعاجمها القديمة وحفظه لبعضها عن ظهر قلب كما يقول هو عن نفسه ، ومن هنا استطاع أن يضع شروطاً ميسرة لدخول كثير من ألفاظ الحضارة ومستحدثاتها إلى معاجمنا ، وله الفضل فى إحياء العديد من الألفاظ العربية المهجورة وتحرير المدارس المصرية فى عهده من كل أثر للاستعمار الأجنبى بوضعه نظاماً لتنقية اللغة العربية فى المراحل الابتدائية وآخر للمراحل الثانوية ووضع المعاجم الميسرة للطلبة .

ومن الحق أن يقال إن السكندرى كان واحداً من أقطاب اللغة العربية فى العصر الحديث وحماتها ، وهو جدير بأن توضع عنه أكثر من أطروحة فى بيان عمله فى مجال اللغة العربية وفقهها بالإضافة إلى العمل الذى قدمه صاحب هذه الرسالة الطيبة التى اقتطفنا منها هذه المعلومات .



الفصل الثانى

المستشار طارق البشرى

العودة إلى الحق

فى منتصف السبعينات شعرت أن هناك انقساماً فى الأمة شبه طائفى بين العلمانية والتيار الإسلامى، وكان لا بد من معالجة هذا الصدع، ومن خلال الاستطراد فى البحث أدركت النسبية التاريخية لوجود المقررات العلمانية فى الفكر السياسى وظهر لى أن الصراعات السياسية التى تخوضها على مدى التاريخ الحديث كانت صراعات تتعلق (أولا) بمواجهة الاستعمار والتبعية السياسية للغرب (ثانياً) التبعية الاقتصادية للغرب أيضاً، وهذا العامل أو الفهم تقدت به الحركة الوطنية .

ولكن هناك جانباً آخر لهذا الصراع قد يحلو للبعض تجاهله ولكنى توصلت لمدى أهميته، وهو الجانب العقائدى وما يتبعه من تكوين حضارى، وإن غفلة بعض التيارات عن هذا الجانب من جوانب الصراع هو المسئول عن الصراع الداخلى بيننا .

أكثر من هذا فقد سعت العلمانية فى أطروحاتها الحديثة التى تقول لنا إن تصاعد المد الإسلامى مؤخراً ليس إلا رد فعل لهزيمة الواقع فقط، ولكن ما أراه الآن أن حركات التحرر الوطنى فى بلادنا على مدى القرن ١٩ كان يندمج فيها العنصر الإسلامى مع العنصر الوطنى وتجارب المهدية والوهابية والسنوسية وعبد القادر الجزائرى وجمال الدين الأفغانى والحزب الوطنى فى مصر قبل الحرب الأولى كلها تقوم دليلا على ذلك .

ثم بعد ذلك طرح المشروع الليبرالى فى إطار حركة الاستقلال الوطنى بشكل فطرى . وعندما تبين بعد عدد من السنين أنه ليس بالانبهار من الناحية الواقعية عادت الحركة الإسلامية تنمو ، وفى الأربعينات خرج مشروع علمانى آخر ، ومع طرحه ونشوء حكومات الاستقلال الوطنى فى بلادنا العربية أصيب التيار الإسلامى بالضعف . ولكنه عاد فى السبعينات لينمو على مستوى العالمين العربى والإسلامى ومع ذلك يمكن القول إنه فى ظرف ما من انهيار المشروع القومى الوطنى تظهر دعوة لم يكن لها أصل وجود ولا استمرار فى التاريخ المعاصر كالدعوة الفرعونية مثلا ، وتلك يمكن القول فى أنها رد فعل ، لأن سياق الحوادث لم يكن يعبر عنها أما وجود تيار كالتيار الإسلامى قوى ثم ضعف ، ثم ضعف وعاد قوياً مرة أخرى فلا يمكن تفسير وجوده على أنه رد فعل ، وإن قلنا ذلك نكون قد تجافينا مع الحقيقة ولا نريد أن نفهم الواقع ، فالتيار الإسلامى ليس رد فعل ولكنه أصيل .

* * *

إن تفسير تاريخ مصر بصورة علمانية غير صحيح ولا بد من إعادة كتابة الكثير من الحقائق بمنظور جديد . محمد على لم يسع لإنشاء امبراطورية مصرية كما يقول البعض ، بل كان فى حقيقة الأمر يمثل ثورة على الحكم العثمانى فى إطار نفس الدولة وتحت مظلة الفكرية الإسلامية ، عرابى وثورته نفس المنطق ، ويكفى أن نفهم مغزى إعلان الخديو لعصيان عرابى امرى المدلول الدينى نفس الشىء بالنسبة لثورة ١٩١٩ وأيضاً حركة يوليو ، ويكفى أن نعى كيف كان قادتها جزءاً من قيادة الإخوان المسلمين ، والصدام الذى حدث ليس صداماً بين العلمانية والإسلام ، بل صراع قوى على السلطة .

يجب أن نحرر تاريخنا من التفسير العلمانى ، من ناحية أخرى لا توجد دولة دينية حسب تصورى فى الإسلام ، وإنما يوجد مجمع يصدر فى نشاطه وتنظيمه لشئون الحياة عن الشرعية الدينية ، ويحتكم لهذه الشرعية بمراعاة أن الاجتهاد قائم ومتاح متى توافرت وسائله .

أما ما يقال من أنه في ظل الفكرية الإسلامية يسود القمع ، فذلك خطأ لأن القمع لسوء الحظ قدر شائع بالنسبة لكافة النظم السياسية فباسم القومية وباسم العلمانية قمع الكثيرون وباسم الاشتراكية مورس القمع أيضاً .

* * *

أما أخطر ما يواجه قضايا التحرر الوطني في العالم العربي الآن هو الانفصام والانقسام بين الحركة الإسلامية وحركات التحرر الوطني التي تبنت منهجاً علمانياً غير إسلامي ، سواء في تحريك قضية التحرير أو رسم مشروعات النهضة .

إن المنظور العلماني متعارض ومتناقض مع المنظور الإسلامي في أصل تكوينه وهو يقصي الإسلام كدين وعقيدة عن كل ما يتعلق بشئون الحياة ونظامها ولا يمكن التوفيق بين النظرة الإسلامية وبين العلمانية في هذا الشأن .

ولا يوجد بديل عن الإسلام لتثبيت أساس الانتماء للجماعة السياسية .

إن كل الحلول والمشروعات التي تصدر عن تصور إمكان المعايشة بيننا وبين الكيان الصهيوني محكوم عليها بالفشل ليس فقط من جانب إنها لا تحقق آمالنا الوطنية ولكن أيضاً من جانب أن الصهيونية لن تكف عن العنف وسياسة الاستعمار الاستيطاني .

فالإسلام لدينا لا بد أن نعود إلى القدس وفلسطين ، ولا بد أن نعود لا إلى الانتماء الإسلامي العام فقط ، ولكن إلى الانتماء العربي أيضاً باعتبار أن العرب وحدة شعبية من وحدات الجماعة الإسلامية الكبرى .

* * *

قبل الحرب العالمية الأولى كانت الحركة الوطنية مندمجة اندماجاً كلياً تقريباً في الحركة الإسلامية ، والآن إنقسمت لتبنى حركة التحرر الوطني منهجاً علمانياً غير إسلامي ، وقد أدى هذا الانقسام إلى أن كثير من الشباب والمهنيين والفنيين الذين تربوا في المؤسسات التعليمية والفكرية المغربة قد انفصلوا عن الحركة الإسلامية واتخذوا مواقف تميز بعضها بقدر كبير من الخصومة للحركة الإسلامية

وظهر ذلك بشكل واضح فى نظم دول التحرر الوطنى المستقلة التى ظهرت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية فى منطقتنا ، إذ خاضت هذه النظم معارك عنيفة ضد الحركة الإسلامية وصار الموقف منها الآن شديد التعقيد وبالغ الحساسية .

* * *

الحركة الشيوعية فى مصر غرس أجنبى ، طبقاً للمصادر الشيوعية المصرية نفسها ، وبقليل من الترتيب وإعادة تركيب الصورة تعطى لأى باحث مدقق انطباعاً مؤكداً أن الحركة الشيوعية فى مصر ظهرت لسببين :

الأول : هو ظهور الكيان الصهيونى فى فلسطين فى بدايات هذا القرن .

الثانى : هو حركة تمصير القوانين التى نشطت فى الثلاثينات باتجاه إلغاء الامتيازات الأجنبية ، وبالطبع فإن الحركة الشيوعية جاءت لتخدم مخططات الأجانب فى هاتان القضيتان تحديداً .

* * *

الحديث عن فشل العلمانية هو أحد القضايا الهامة التى يناقشها المفكرون الآن ومعظم الحركات الوطنية التى ظهرت فى السنوات الأخيرة تبنت منهجاً علمانياً ، وقد بدأت هذه الدول الآن بعد أن فشلت العلمانية رحلة العودة إلى الأصول الدينية لتبنى النظرة الإسلامية فى شئون الحياة ونظامها ، ذلك المنظور العلمانى لا يصلح فى تقييم الحركة الإسلامية لأنه يتعارض ويتناقض مع المنظور الإسلامى فى أصل تكوينه . ويتضى الإسلام كدين وعقيدة عن كل ما يتعلق بشئون الحياة ونظامها ، ولذلك لا أتصور أنه يمكن التوفيق بين النظرية الإسلامية والنظرية العلمانية فى هذا الشق .

ولكن تبقى قضايا أخرى مثلا : عندما تنظر فى موضوع القومية العربية مثلا وعلاقتها بالجامعة الإسلامية .

أتصور إن وجه التعارض والتضاد الشديد يكمن أساساً فى علمانية القومية العربية ، وإن الحركة العربية إذا تخلت عن جانبها العلمانى يمكن أن يتعايش ضمن

أطروحة الحركة الإسلامية لأنها ستصير بهذا الشكل حركة الوحدة العربية وهي بهذا حركة غير مانعة من قيام إتحاد أعم يشمل المسلمين جميعاً ويكون الفرق بينهما هو الذى يمكن أن نسميه بين الخصوص والعموم .

* * *

إن أهم المسائل المفروضة على الساحة والتى ينبغى أن نلقى اهتماماً بالغاً هى السعى لبناء الجسور من جديد لإنهاء القطيعة التى كانت دموية أحياناً والتى استمرت عشرات السنين بين الاتجاهين ، وبناء هذه الجسور من شأنه أن يرأب الصدع الذى حدث بين القوى السياسية التى تستهدف تحرير أوطاننا من الاستعمار الأجنبى وأن تضاف قواتنا بعضها إلى بعض بدلا من أن نبقى متصارعين .

ومن هنا فإن على الاتجاه العلمانى فى حركة الوطن دوراً كبيراً لتخطى ذاتيته ولإدراك أنه يخطىء خطأ جسيماً حين يتصور أنه يحتكر إمكانات النهوض بمجتمعاتنا العربية الإسلامية ، كما يتعين عليه الاعتراف بأنه أقام عدداً من تجارب التحرر ومشروعات النهوض والاستقلال التى أدت إلى الانتكاس والفشل ، وعليه أيضاً أن يعى أن التيار الإسلامى تيار أصيل سواء بالمعنى التاريخى العام أو بمعنى قيامه بالعديد من حركات المقاومة منذ الاستعمار فى القرنين الأخيرين أو بمعنى إمكان وجوده الشعبى الكثيف فى هذه الأيام .

* * *

أما من جانب الحركة الإسلامية فأنا أتصور أن عليها جهوداً تتناسب مع ما تتمتع به من منزلة شعبية ومن قدرة على تأصيل هذه المجتمعات وترسيخ جذورها فعليها أن تقدر أنه أياً كانت الأسباب فإن قسماً كبيراً من الفنيين والمهنيين والمتخصصين فى الشئون المختلفة سواء التقنية أو العلوم أو الجوانب التنظيمية أو الإدارية قد تم استيعابه عبر عشرات السنين السابقة من الفريق الآخر ، وأن عليها أن تجذب هؤلاء إلى روادها ليس فقط من أجل الكثرة العددية بل من أجل مساعدتهم على توظيف خبراتهم الفنية المهمة فى إطار المشروع الإسلامى الموحد .

وهذا لا يعنى إننا فى أى مشروع للنهوض الاجتماعى المستقل، سنقلد الغرب فى تجاربه وإنما تعنى إننا نستفيد من الخبرات الفنية المختلفة فى الفروع المختلفة فى بناء مشروع للنهضة والاستقلال على أن يكون المشروع إسلامياً صرفاً .

* * *

يحاول البعض تصوير القضية الفلسطينية على أنها قضية خارجية تتعلق ببلد تربطنا به روابط وأواصر، ولكن ليست قضية التراث بالنسبة لكل من الدول العربية، وهذا تصوير مضلل لأن الجماعة العربية تشكل وعاء واحداً واحتلال فلسطين من قبل الصهيونية يمثل على سبيل المثال تمركز القوات البريطانية فى قناة السويس بعيداً عن المدن .

وما كان لأحد أن يقول إنها لا تشكل احتلالا للإرادة الوطنية، وكذلك فإن الاحتلال الصهيونى لفلسطين يشكل تحدياً للإرادة المستقلة بالنسبة لنا ،

وهى ليست تهديداً وإنما هى خطر حاصل وواقع، وليس أمامنا إلا أن نواجهه . أما عن الطموح الصحيح للمواجهة مع الكيان الصهيونى، فماذا يمكن أن يكون أسلوبنا لمواجهة استعمار يتخذ أبشع أنواع العنف لا لاحتلال الأرض فقط وليس للسيطرة على سياسات الدول فقط، ولكن لطرد الوطنيين من بلادهم والسعى لإفنائهم واحتلال غيرهم محلهم، كل هذا العنف كيف يمكن أن يواجه إلا بالقوة .

وأتصور أن كل الحلول أو المشروعات التى تصدر عن تصور إمكان المعايشة بيننا وبين الكيان الصهيونى محكوم عليها بالفشل، ليس من جانب أنها لا تحقق آمالنا الوطنية ولكن من جانب أن الصهيونية لن تكف عن العنف .

* * *

الوافد والموروث، ما طبيعة العلاقة بينهما .

نحن لا نختار بين وافد وموروث وكأننى خارج منهما معاً، نحن الموروث ونريد أن نتجدد، وأن نواجه أمور الحياة ونستوعب معضلاتها ونحاول وضع

الحلول لها ، نجدد بحذر مادتنا الفكرية وكمسلمين تستفيد من النماذج الموجودة فى العالم كله . وليس من العلوم الطبيعية فقط ، ولكن فى التنظيمات أيضاً ، وفى أنماط العلاقات .

* * *

القائمون على الأمر فى الإذاعة والبث التلفزيونى يسهمون بالنصيب الأكبر فى عملية سلب الذات ذاتها وعملية التلوث الحضارى والثقافى الوارد إلينا ليل نهار فى الحديث عما إذا كانت هناك أزمة فى الأصل أم لا .

نريد أن نغير ونضع بديلنا الذاتى النابع من تراثنا وحضارتنا وروحنا العربية الإسلامية .

أولا : أن يكون للغتنا العربية مكانتها اللائقة بها فى الإبداع الثقافى ولا تسود الركاكة كما هو حادث الآن مع التخلص من الرطانة الأجنبية .

ثانياً : أن تحوى ثقافتنا تقاليد حضارتنا فى إعلاء شأن العقل .

ثالثاً : أن نواجه تحديات الغرب وأن وجدان الأمة ميدان من ميادين نضالها فعلينا أن نحشد فى هذا الميدان الأسلحة الفعالة فى المقاومة والارتقاء .

وهذه الأسلحة والأدوات لن تجدها فى فنون الحضارة الغربية ذات الطابع العدوانى والاستغلالى ، وإنما توجد فى موروثاتنا ، وأن تكون وثيقة الصلة بقيمنا الدينية والإسلامية .

إن الغرب يتخذ من الثقافة والإعلام أسلحة فتاكة تصيب مقاومة الأمم بالتحلل والانهيار ، هذه الأفلام التى تحتل الساعات الطوال وأفلام الجنس والعنف والتعيم المدمرة التى تفرض على شبابنا والتى تستهدف روح الأمة .

الإسلام هو الحل فلا يمكن إصلاح شىء فى إطار خاطئ .

إن الفكر الموروث لديه عقيدة حية فى العقول والقلوب بمعنى إنها واقع حاضر وهى جزء من حاضرنا يتعين على من يتعاملون معه أن يتعاملوا من موقف الاعتراف به وإقراره واحترامه .

ومن هذه العقيدة قامت تجربة حضارية منذ قرون وخلقت لنا إرثاً هائلا من الخبرات والنظم والمؤسسات والفكر والأدب والتجارب الوجدانية كالصوفية. كل هذا يشكل جزءاً من وطننا الفكرى والثقافى يمكن أن تطوره وأن تنظر فى مدى تفاعله مع الواقع وأن ننمى جوانب منه وأن نضمر جوانب وأن نبدل فى الأشكال والمؤسسات دون أن نستبدل به كله كيان آخر، فهذا نوع من افتقاد الذات ذاتها وإرهاق للروح، وعندما أتكلم عن العقيدة فأنا أقصد إسلامية المسلم وقبطية القبطى.

وهناك جوانب من الفكر الوافد علينا أن نستوعبها ونتمثلها فى تكويننا الثقافى والحضارى.

* * *

المفهوم العلمانى مفهوم مخاصم للحركة الإسلامية.

وهو مفهوم لا يدرك المشكلة الحقيقية التى تقوم بالنسبة للموقف الإسلامى ورؤيته لأوضاع المجتمع الذى نعيش فيه.

ولأنه المنظور العلمانى فى أفضل صوره الوطنية فهو يقصر دعوته الوطنية على الاستقلال السياسى والسياسى دون أن يهتم بالبعد الثالث (السياسى - الاقتصادى - الدينى والحضارى) وهو البعد الدينى والحضارى الذى به تتحدد الهوية للجماعة.

إن هناك أصولا لشرعيتين متعارضتين فى المجتمع، شرعية وضعية علمانية. وشرعية إسلامية، والحل فى المتصور هو أن تستعيد الشرعية الإسلامية هيمنتها على أوضاع المجتمع بحكم الانتماء الغالب للإسلام لا كعقيدة فقط ولكن كعقيدة ونمط حضارى، وفى ظنى أن ذلك لا يعوق التقدم المرغوب فيه، ولكنه على العكس سيسرع بخطاه ويؤكد على ترابط حركة المجتمع ونظمه الشرعية من عقيدية وتكوينية للحضارة وسعياً للاستقلال والنهوض.

(٢) التناقض بين العروبة والإسلام:

لا أجد تناقضاً بين العروبة والإسلام، فالعروبة فى مصر ظهرت فى أحضان التيار الإسلامى العام فى العشرينات، وتبناها المفكرون والساسة من كانوا داخل التيار الإسلامى فى ذلك الوقت، وأن هذا هو شأن كل الدول العربية فى إفريقيا حيث ارتبطت العروبة مع الإسلام فى المنشأ والمسار وكانت ذات مضمون تحررى وتجميعى وتوحيدى فى ذلك الوقت.

المشكلة ظهرت فى المسلك العلمانى الذى اتخذته العروبة فى بعض الفترات اللاحقة لسبب تأثر الأوضاع المصرية بالحركات العربية فى الشام.

والمشكلة ليست بين العروبة والإسلام وإنما بين الإسلام والعلمانية.

* * *

الحركات الإسلامية لها جذورها وامتدادها القديم، وهى تقوى وتضعف حسب موجات الصراع فى مجتمعاتها.

* * *

الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط فى مصر أمر مسلم به ولكننى أقول إنها كأى عنصر من العناصر الأساسية المكونة للجماعة المصرية يتعين علينا ألا نستنيم إلى قوتها ورسوخها، وإنما يجب أن نبقى على المحافظة عليها ودعمها وإبعاد أى أخطار تقترب منها.



الفصل الثالث

اللواء جمال الدين محفوظ

التاريخ العسكرى الإسلامى

دراسة التاريخ العسكرى الإسلامى واجب حضارى ، فقد حث الإسلام على النظر فى آثار السابقين ، وماذا كان نتيجة ما صنعوا وما كسبت أيديهم ، وذلك لاستخلاص الدروس والعبر والله تبارك وتعالى يسمى علم التاريخ :

(العلم بأيام الله) فى الشدة والرخاء ، فى البأساء والضراء ، فى الهزيمة والنصر والعلم بأسباب ذلك كله لنستفيد منه ، وذلك ما نفهم من قوله تعالى : (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)

« آل عمران »

(وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى المؤمنين (هود)

(وكذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا (طه)

وهكذا يوجه الإسلام إلى دراسة التاريخ واستخلاص الدروس المفيدة ، ويقرب فى ذلك ما وصل إليه فكر رجال الاستراتيجية حيث يقول «ونتجمرى (إن القيمة الحقيقية للحرب الطويلة فى الماضى هى الخروج بالحقائق واستخلاص العبر والدروس المفيدة) ذلك أن هناك قدر كبير من الخبرة العظيمة والتجارب الكثيرة مدفون تحت أنقاض الماضى السحيق ولن نستطيع الاستفادة منه إلا بوجود المؤرخين العسكريين الذين يخرجونه من تحت أنقاض الماضى » .

وقد حرص أجدادنا من المسلمين الأوائل على دراسة التاريخ وتعليمه لأبنائهم

وللاجيال الجديدة فقال زين العابدين بن الحسين بن على رضى الله عنه : كنا نعلم مغازى رسول الله ﷺ كما نعلم السور من القرآن) .

وقال اسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاصة لابنائه (أنها شرف أبائكم فلا تضيعوا ذكرها) ولا جدال فى أن دراسة النشء للتاريخ الإسلامى لها أثر قوى فى بناء شخصيته وغرس الصفات الحربية والإنضباط والروح الجهادية فيه لانه يتأثر بهما فى تاريخه من مواقف الشجاعة والبطولة والفداء والقيادة الرشيدة ومن صور القدوة الصالحة التى قدمها الرسول القائد ﷺ وصحابته ومن تبعهم . وقد قامت فى المدينة عقب الهجرة أول مدرسة عسكرية فى تاريخ المسلمين على أساس القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وكان الرسول ﷺ هو قائد هذه المدرسة ومعلمها الاول وهو المثل الكامل والقدوة المثلى (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) .

وإذا كان القادة يتعلمون فنون القيادة والحرب على يد غيرهم من القادة والخبراء والمعلمين فى المعاهد العسكرية فإن الرسول ﷺ لم يأخذ من غيره وإنما أخذ عن الله جل شأنه (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) .

فلا عجب أن يظهر عليه الصلاة والسلام فى الأمور الحربية ما لايتسامى إليه قادة الحروب الذين تعلموا فنونها واتخذوها صناعة من عبقرية فذة فى القيادة والإدارة والتخطيط وقد تعلم على يديه أجدادنا المسلمون الأوائل من قادة وجنود جيش الإسلام الأول .

وطبقوا تعاليم المدرسة العسكرية الإسلامية ونظرياتها ومبادئها عمليا فى ميادين القتال فى سبيل الله فكانوا مضرب الامثال فى الكفاءة القتالية وفى الشجاعة والعبقرية الحربية وجاءت النتائج بما يبرهن على أن هذه المبادىء أثبتت عملياً فى المعارك — وهى المحك الحقيقى للنظريات الحربية — صحتها وكمالها .

وقد حققت العسكرية الإسلامية نتائج أصبحت من الحقائق التاريخية التى لاتنازع .

أولا : فى عصر الرسول : حققت العسكرية الإسلامية أهم وأخطر إنجازاتها وهو (تأمين الدعوة وقيام الدولة الإسلامية وتوفير الأمن والاستقرار لها لكى تؤدى رسالتها السامية لخير البشرية ، حققت مايطلقون عليه (الهدف الاستراتيجى وهوالهدف الذى يؤدى تحقيقه إلى إحداث تغيرات أساسية وجادة فى الموقف السياسى والعسكرى ويؤثر تأثيراً بالغاً فى تطور الصراع وهو ماحدث فعلا ففى ختام عصر النبوة توحدت شبه الجزيرة العربية تحت راية الإسلام وتحولت إتجاهات أهلها إلى الجهاد فى سبيل الله) .

وأبلغ تعبير عن تحديد هذا الهدف الاستراتيجى قول الرسول ﷺ فى يوم بدر: (اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لاتعبد فى الأرض) .

ثانياً : فى عصر الفتوحات :

لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى وقد أعد جيش الإسلام وهيأه لمواجهة القوتين العظميين فى عصره ، وهما فارس والروم وخلال هذه المواجهة أثبتت القيادة الإسلامية كفاءة لانظير لها فى إدارة دفة الحرب فى جبهتين استراتيجيتين فى وقت واحد وذلك مثل فريد فى التاريخ لم تبلغه أقوى الأمم وأوسعها خبرة فى الحرب .

وخاض المسلمون بنجاح أشكالا جديدة من العمليات الحربية لم يألفوها فى عصر النبوة مثل عمليات عبور الأنهار والمواقع المائية وعمليات الحصار الطويلة والسير الطويل وتأمين خطوط المواصلات والإمداد الطويلة وإقامة المعسكرات الثغور والقواعد الحربية والإدارية كما مارسوا بكفاءة إدارة شئون البلاد المفتوحة وقد امتدت فتوحاتهم فى أقل من مائة عام من حدود الصين شرقا إلى شاطىء الأطلسى غرباً .

وأخذ المسلمون بأسباب التقدم والتطور فى الكفاءة القتالية فأدخلوا على أسلحة الحصار مثلا كثيراً من التحسين والتهذيب وكثر حصارهم بها المدن المحصنة ذات الأسوار العالية فى حروب العراق والشام وفتح مصر ، كما تطور الجيش الإسلامى فى التركيب التنظيمى وتشكيلات القتال وإدارة المعارك وقد أدهش المسلمون بملاحقة عصرهم الفرس والروم وهكذا انتصرت العسكرية الإسلامية على كل من العسكرية الفارسية والعسكرية البيزنطية بكل ماوراءهما من تاريخ حربى طويل وخبرة واسعة لفنون الحرب والقتال .

ثالثاً : إنشاء الأسطول الحربى الإسلامى لأول مرة فى التاريخ .

ودخل السلاح البحرى فى الاستراتيجية العسكرية الإسلامية لأول مرة فى التاريخ وأقام المسلمون دور الصناعة لبناء السفن واتقنوا فنون الحرب فى البحار وعمليات الابرار البحرى (الإبرار البحرى هو إنزال القوات من السفن الحربية إلى البر لقتال العدو) حتى انتصروا على أسطول بيزنطة أقوى أساطيل زمانه .

رابعاً : فتح الطريق لتأسيس الحضارة الإسلامية :

ولولا جهاد المسلمين واسترخاصهم المال والنفس والولد فى سبيل الله لتغير وجه التاريخ ولتخلفت مواكب الحضارة الحديثة عن الظهور فقد كان لأجدادنا فضل تأسيس هذه الحضارة وشق الطريق لهذه الفتوحات العبقرية فى ميادين العلوم الطبيعية والاجتماعية وكان فضلهم هذا من بعض ثمرات الجهاد فى الإسلام .

غير أن من أخطر الأمور اليوم أن أصبح المسلمون يؤسسون دراساتهم العسكرية على النظريات والعقائد العسكرية والتاريخ الحربى نقلا عن الشرق أو الغرب مما يرسخ الاعتقاد بأنه ليس للاسلام نظريات عسكرية ولا أعمال قادة ولا تاريخ حربى يستحق الدراسة ومن ثم تطمس بذلك معالم العسكرية الإسلامية التى هى بحق جانب رائد من جوانب الحضارة الإسلامية ويؤدى هذا إلى أمرين : ترسيخ الاعتقاد بأن الأمة العربية الإسلامية لاتستطيع إلا أن تكون تابعة لغيرها وقطع أبناء الأمة عن مقوماتهم وكل ماهو أصيل فى حياتهم وتحويل اتجاهاتهم بعيداً

عن الدين والقيم والأخلاق والكيان النفسى الذاتى الذى بناه الإسلام والقرآن .

* * *

هكذا يصور اللواء جمال الدين محفوظ محاذير التبعية التى تحاول احتواء المفاهيم الأصيلة والذاتية والمتميزة للعسكرية الإسلامية ، وتلك هى قضية عمره التى يلح عليها فى كل كتاباته ودراساته فى سبيل إخراج المسلمين من هذا الاحتواء الخطير فى ميدان من أجل ميادين حياتهم .

لذلك فنحن مطالبون بإحياء العسكرية الإسلامية والتاريخ الحربى الإسلامى وهو مطلب حيوى لإقامة نهضتنا الحضارية الشاملة فما تزال نظرياتها الأساسية ودروسها النافعة قادرة على أداء دورها فى هذه النهضة فئلما أدت دورها فى إقامة الحضارة الإسلامية فى الماضى والطريق الى ذلك هو أن تأخذ العسكرية الاسلامية والتاريخ الاسلامى مكانهما اللائق بهما فى مناهج الدراسة فى جميع كلياتنا ومعاهدنا العسكرية ليشكلا القاعدة الراسخة التى تنطلق منها وتنفتح على علوم عصرنا ومنجزاته بكل فكر مفتوح لاينفصل عن دائرة التطور أو الحركة الحية .

كما ينبغى أن يدرس أبناؤنا تاريخهم الاسلامى فى جميع مراحل التعليم حتى مستوى الجامعة .

وقد كان اللواء محفوظ حريصاً على أن يعلن ذلك ويدعو له فى كل مؤتمر عالمى حضره وأهمها مؤتمر لندن (ربيع الأول ١٣٩٩) ابريل ١٩٧٩ الذى اختص بأمور الدفاع عن العالم الإسلامى وكذلك المؤتمر العالمى الثالث للسيرة والسنة السنة الذى عقد فى الدوحة المحرم ١٤٠٠ - نوفمبر ١٩٧٩ .



(٣)

اللواء جمال الدين محفوظ

المدرسة العسكرية الإسلامية

قال لى والدى عندما إلتحقت بالكلية الحربية عام ١٩٤٠ —

سوف تتخصص فى العلوم العسكرية وعليك أن توظف هذا العلم فى خدمة الإسلام فتعلقت نفسى منذ تلك اللحظة بفكرة العسكرية الإسلامية فأخذت استجمع قراءاتى وملاحظاتى واطلاعاتى للخروج منها بشىء عن المدرسة الإسلامية وتطويرها .

وتقدمت عام ١٩٤٠ ببحث عن الجندية فى صدر الإسلام واستمر هذا الإتجاه حتى عام ١٩٧٥ حينما أنهيت خدمتى العسكرية وتفرغت بصورة كاملة للبحث والتأليف فى المدرسة العسكرية الإسلامية وكان أول عمل هو :

١ ـ المدخل إلى العقيدة والإستراتيجية العسكرية الإسلامية .

٢ ـ دراسة عن غزوات الرسول بصورة تحليلية لإستنباط الدروس المستفادة منها والقوانين العسكريه التى ظهرت فيها وقد مزجت بين العلوم العسكرية التى درستها فى الكلية الحربية والمعاهد العسكرية وبين الجانب الإسلامى الذى تشربته من والدى الشيخ على محفوظ أستاذ الوعظ بكلية أصول الدين .

• • •

يقول : إن القضية الأولى هى دراسة العسكرية الإسلامية لمحاولة تعريف

المسلم مبادىء تاريخ إسلامية كما إنها ليست أمراً انتهى إنما هى دراسة لشئ قائم وقادر على صنع حضارة جديدة وقوية وهى فى نفس الوقت تدعو القادة للتفوق فى عالمهم فالمطلوب تدريس العسكرية الإسلامية مع النظريات الأخرى .

فالمدرسة العسكرية الإسلامية مدرسة عسكرية متكاملة تحتوى على كل أركان المدرسة العسكرية من إعداد الجندى إلى إعداد الجيوش إلى إعداد الدولة للدفاع والهجوم ، وفيما بين ذلك ترى أساليب التدريب والحرب النفسية ومقاومتها وأساليب القتال وإعداد الشعب للمعركة ، فالحرب فى العالم صراع بين المدارس العسكرية ، ولكل دولة قوانين ونظم تحكم مدرستها والإسلام له مدرسته العسكرية المستقلة الكاملة ذات القوانين والمبادىء التى فاقت كل النظريات فى العالم وأبرز ما تتميز به المدرسة الإسلامية أنها صالحة لكل زمان ومكان فالنظرية الأساسية لنظرة الإسلام للحرب ونسميها فى العالم العسكرى بالنظرية الإستراتيجية للحرب فى (الردع) المتمثل فى قوله تعالى :

[وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم] .

فالهدف من أمر الإسلام بإعداد القوة هو إيقاع الرهبة فى قلب العدو بمعنى إخافة العدو من عاقبة عدوانه على الأمة الإسلامية حيث تكون القوة الإسلامية على نحو من التفوق والقدرة الحربية والكفاءة القتالية بحيث تقنع العدو بأنه سيكون هو الخاسر لو اعتدى ، ولفظ (قوة) جاء غير محلى به (ال) فهو إذاً مطلق غير محدود بشكل أو هيئة ومعنى ذلك أنه يمكن أن يستمر مدى الحياة ومع كل تطور ، فكانت القوة فى عصر الرسول هى السيف والرمح والحربة والسهم وفى عصرنا القنبلة الذرية ، كما أن المقصود برباط الخيل من المنطلق العسكرى هو القوة السريعة المتحركة فكان يعبر عنها فى زمن الرسول بالخيل ويمكن أن يعبر عنها الآن بالسيارة والمدفع والطائرة وإنما يقصد الإسلام إلقاء الرعب فى قلب العدو .

وتنفرد المدرسة العسكرية الإسلامية بميزات متعددة :

أولا : نظرية الردع التى هى مفتاح الإستراتيجية فى القرن العشرين وأساسها وسر ظهورها هو ظهور السلاح النوى وهو امتلاك القوة التى تقنع العدو بألا يعتدى ، والإسلام له نظريته الرادعة لكنها تختلف عن سواها من النظريات التى تحكم العالم ، فإذا امتلكت الأمة الإسلامية القوة الحربية المتفوقة على خصومها وأعدائها فهى لا تستطيع أن تستخدمها طالما لا يعتدون عليها لأن الإسلام فى سموه التشريعى يأمر بعدم الاعتداء .

يقول الله تبارك وتعالى : (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) .

فالأمر بإعداد القوة والتفوق فيها إنما هو إيقاع الرهبة فى قلب العدو إذا لم يعتد ، وهذا يعد تفوقا للنظرية الإسلامية فى الردع لأنها تنطوى على نوايا سلمية رائعة فهى نظرية حربية إلا أنها تنطوى على السلام .

* * *

والواقع الآن أن مجال البحث فى العسكرية الإسلامية يعانى من قلة الباحثين منه لأننا نعيش حرباً حضارية موجهة ضد الإسلام والمسلمين لمحاولة طمس معالم الحضارة الإسلامية من أساسها ومن خلالها يمكن طمس معالم العسكرية الإسلامية التى هى وراء ذيوع الحضارة الإسلامية فأعداء الاسلام يعلمون علم اليقين أن العسكرية الاسلامية لو ظلت مادتها فى أذهان المسلمين فلن تقوم لهم قائمة ولذلك كانت الهجمة ضد الاسلام .

ومنها الادعاء بأن الاسلام انتصر بالسيف وبهذا أثاروا حساسية لدى المسلمين حول تناول الموضوعات العسكرية حتى لايتهم الاسلام بأنه انتشر بالسيف فهم يضعون الاسلام موضع المتهم لكى يؤثر الكتاب العسكريون المسلمون تجنب الحديث فى هذا الموضوع وسبب آخر ، هو أن أبناء الاسلام

عاشوا بعد عصور الانكسار يتعلمون الشئون العسكرية من معاهد الشرق أو الغرب وبطبيعة الحال لا يقبل أن تدرس تلك المدارس أى شىء عن العسكرية الإسلامية فالإسلام غائب .

إن الذين أرخوا للاسلام من الأجانب تعمدوا عند الحديث عن الغزوات أن ركزوا على الجوانب المعنوية وقوة العقيدة متناسين الجوانب الفنية فى المعارك .

وآية قدرة الجيش الإسلامى على السيطرة وضبط النفس واستعمال القوة وسيلة لكسب المعركة دون إراقة دماء موقف الرسول ﷺ فى فتح مكة إذ أراد أن يتم الفتح دون قتال وهو يملك التفوق القتالى فقد كان لديه ٦٠ ألف مقاتل ، لدرجة أن الجيش كان يقف على ضواحى مكة دون أن يعلم أهل مكة هوية هذا الجيش الذى يملك التفوق والمباغتة .

ولو تخيلنا قائداً عسكرياً أمامه تفوق عسكرى ويمتلك عنصر المفاجأة فان يتوانى لحظة واحدة عن دخول مكة لتحقيق نصر عسكرى ساحق ولكن الرسول القائد العظيم أراد يدخل مكة سلما دون استخدام قوته المتفوقة .

هذه هى عبرة الفارق بين التصور الإسلامى للحرب والتصور المخالف .

• • •

ويقرر اللواء جمال الدين محفوظ : إن العالم الإسلامى يضم مساحة من الأرض متسعة جداً تختلف فيها مصادر التهديد والظروف وليس من الحكمة أن يكون هناك جيش إسلامى موحد فالعسكرية تعتمد أساساً على عدة عوامل منها الجغرافية والبشرية والمالية وطبيعة العدو ولكن من الأفضل أن تكون الأمة موحدة تحت ظل عقيدة الجهاد التى تجعل المقاتل يقاتل لهدف واحد وأن تكون هناك جيوش إسلامية متكاملة تعمل فى ظل الجهاد الإسلامى بحيث يتم التنسيق بينها .

والقنبلة الذرية الإسلامية فريضة دينية على المسلمين وإن ديننا يأمرنا بأن نمتلك هذا السلاح الذرى بل وأكثر منه انطلاقا من قوله تعالى (وأعدوا) فهى قاعدة عامة للمسلمين ألا يسمحوا لأعدائهم بالتفوق العسكرى عليهم وأنى أحذر من حرب حضارية ضدنا لطمس معالم الإسلام .

* * *

ويتساءل اللواء محفوظ : لماذا لم يدون التاريخ الحربى الإسلامى حتى الآن وقد مضى على المسلمين أربعة عشر قرنا وما زال تاريخهم الحربى مبعثراً لم يدون بعد ويقول . إن تدوين التاريخ الحربى لأى أمة حية عمل كبير يتجاوز طاقة الأفراد ويتطلب جهازاً متخصصاً يتفرغ له ، فقبل أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها كانت (إدارة التاريخ) فى الجيش الأمريكى قد جمعت أكثر من مائتين من الضباط والعلماء وكلفتهم كفاية تاريخها الحربى وقد استغرق إنجاز هذا العمل الكبير أربعة عشر عاماً أتموا خلالها تأليف سبعة وعشرين مجلداً .

هذا مثل على عناية الأمم بتاريخها الحربى .

وقد أدى بكتاب التاريخ الحربى المدون للمسلمين إلى أمرين :

الأول : إن رجال العسكرية فى كثير من الدول العربية الإسلامية لايدرسون إلا التاريخ الحربى للدول الأجنبية ونظرياتها الحربية وأعمال قادتها وكأنه ليس للعرب والمسلمين تاريخ حربى أو نظريات حربية أو أعمال قائمة تستحق الدراسة .

ولعل أهم مايلاحظه الباحث المتخصص إن مؤرخى السيرة تناولوا المعارك الحربية بأسلوب السرد التاريخى لوقائع بحيث لا يجد مايشفى غليله من بيانات ومخططات وخرائط ، وتحليل ومقارنة ، واستخلاص الدروس المستفادة ، إلى غير ذلك مما تعارف عليه العسكريون فى تسجيل التاريخ الحربى .

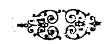
ولقد حارب المسلمون فوق مختلف أنواع الأراضى من صحراوية وجبلية وزراعية وحاربوا داخل القرى والمدن واقتحموا أسوار الحصون وعبروا

الأنهار وركبوا الأساطيل وحاربوا فى البحار ومارسوا كل أشكال العمليات الحربية من دفاع وهجوم ، وانسحاب وإغارة ، ومطاردة وحصار ، وحاربوا الجيوش المنظمة وغير المنظمة وأداروا شئون البلاد المفتوحة ولم ينته القرن الأول حتى كان التاريخ قد سجل إنتصار الاستراتيجية الإسلامية على الاستراتيجيات العالمية المعاصرة لها وهى فارس وبيزنطة كما دون فى سجل الشرف أسماء العديد من قادة العسكرية الإسلامية .

أليس كل ذلك مما يستحق التسجيل والدراسة على النحو الذى يتكافأ وقدر هذه الأمة وبطولاتها الخالدة .

لقد حث الإسلام على النظر فى آثار السابقين لاستخلاص الدروس التى يسترشد بها والتجارب التى ينتفع بها لقول الله تبارك وتعالى : (فاعتبروا يا أولى الأبصار) .

ومازلت أدعو إلى اعتماد العقيدة العسكرية الإسلامية دون غيرها فى الجيوش الإسلامية والعمل على إصدار كتب فيها وتطبيق أصولها على التدريب والتعليم والسلوك العسكرى مع الاهتمام بانتقاء الضباط من العناصر المؤمنة حرصاً على القدوة الطيبة والحرص على بناء المساجد فى التشكيلات العسكرية » ا . هـ



الفصل الرابع

عبد المجيد الزندانى

الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة

القرآن الكريم فضلا عن أنه كتاب هدايه فإنه يمكن أن تقرأ فيه آيات الكون بكل حقائقه العلمية ، وقد سبق بذلك الكشوف العلمية الحديثة .

فنى القرن الثامن عشر اكتشف العلماء أن القارات والأرض والشمس والسماء كلها لم تكن هكذا كحالها اليوم بل مرت بأطوار ومن ثم بدأ القول بالتطور ، والتطور حقيقة يقررها القرآن والسنة وأكثر تفسيرهم للتطور يرفضه ويرفضه العقل والعلم معاً . قالوا أن الأرض والسماء والنجوم والكواكب كانت شيئاً واحداً وكانت ملتصقة ببعضها البعض وكان القرآن الكريم قبل ذلك بأربعة عشر قرناً قبل أشار إلى هذه الحقيقة فى قوله تبارك وتعالى .

(أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما) ثم ظهر عندهم نيوتن ليقرر بأن هناك حرارة طردت الأشياء فالقمر قد انفصل عن الارض بقوة الطرد المركزية ولكن الجاذبية أمسكته ليدور حول الارض فى حركة لولبية ،كذلك الشمس وهى تسير فى خطها المستقيم نحو هذا الهدف .

وهكذا وضع الحق سبحانه وتعالى هذه المعجزة فى هاتين الآيتين لأن الشمس لو اقتربت نصف المسافة لاحترق كل شىء ولو اقترب القمر كذلك لاغرق المد فى البحار الارض ثلاث مرات وأن جميع مواد الارض وكل النجوم والكواكب منذ انفصالها كان مقدر لها هذا الانفصال بأحجامها المعروفة الآن للسير فى مدارها وبسرعة مقدرة .

قال تعالى : (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عادكالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) .

هل كل هذه الدقة والحساب والمقادير بمجرد صدفة ، وهل كل تلك الاشياء تنظمها المادة كما يقولون وتسيرها تفاعلات كيمائية ، صحيح أن الاشياء انفصلت عن بعضها البعض ، ولكن الإنفصال كان بميزان كما يقول تبارك وتعالى :

(والسماء رفعها ووضع الميزان) .

إن التطور فى الخلق الذى بدأت فكرته فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر فى أوروبا رفضته الكنيسة ونقبله نحن المسلمين تفسيراً لإحكام الكون وبأنه من صنع الله تبارك وتعالى وفعله لأن التطور حقيقة يقررها القرآن وتقررها السنة .

قالوا إن الأرض كانت جزءاً من السماء والنجوم دخاناً وهذا حق وجاء أحدث البحوث فى أمريكا فيؤكد بأن السموات والنجوم أصلها دخان وهذه حقيقة مقررة عندنا منذ أربعة عشر قرناً .

(ثم استوى إلى السماء وهى دخان) .

وقالوا فى كشوفهم الجديدة أن الارض لم يكن لها سطحها وهذه أيضاً حقيقة يقررها لنا القرآن الكريم : (وإلى الأرض كيف سطحت) .

ومعناها أنها لم يكن لها سطحاً وسطحت ، وقالوا لم يكن فى الارض بحار ولا جبال ولا نبات قلنا هذا حق لأن الله تبارك وتعالى يقول (والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم) .

إن الذى تكتشفه العلوم المعاصرة ليس متناقضاً مع ما ورد فى القرآن بل مطابق لما جاء فيه من آيات .

وعلى عكس ذلك جاء مناقضاً لما قرره الذين حرفوا الكلم عن مواضعه وكتبوا الكتب بأيديهم .

وجاءت الكشوف فى معظم اتجاهات العلم مصدقة لما جاء فى القرآن والسنة الشريفة تحقيقاً لقوله تعالى :
(سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) .

ونحن لانخشى البتة من تقدم العلم والقرآن يحمل علم الله (تبارك وتعالى) وعلم الأولين والآخرين وعلم ماسيكون إلى يوم الدين .

ولقد كان من البداهة أن تعود أدوات العلم بالحث ومعرفة الخالق ولكن الجحود يقود أهله إلى إنكار البديهيات فإن أوربا الحاقدة على الإسلام أرادت أن تفر من أى شىء يمكن أن يوصلها إلى الله تبارك وتعالى .

فهم يحقدون على الدين الحق ولا يعترفون إلا بالمادة وينكرون كل شىء وراء المادة وتمادوا فى غيهم حتى جاء من ينقض تلك النظرية ويقول إن العقل الذى يفطن ويميز ليس فى المخ وإنما هو فى مكان آخر غير معروف وكان لابد لهم أن يدركوا ويعترفوا بأن العقل فى القلب كما يقرر ذلك القرآن الكريم :
(لهم قلوب يعقلون بها) .

كما ظهرت أبحاث قبل خمس سنوات تقول بأن القلب قوة عاقلة وليس مجرد مضخة الدم وكلما مرت الأيام يتقدم العلم ويثبت لهم أنهم كانوا على شطط بالغ فيما ذهبوا إليه من أمر الدين وخاصة الإسلام .

• • •

يقول الشيخ الزندانى تعليقا على ذلك كله ، (لم أجد تناقضاً بين الدين والعلم وقد وفقنا الله تبارك وتعالى لمنهج استنبطناه من كتاب الله وهو يعتمد على الحقائق المشاهدة وذلك فى قوله تعالى :
سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) (الآية) .

(وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها) .

وقد اقتنع كثير من علماء الغرب بهذه المفاهيم فأضاف البروفسور كينث المور فى جامعة تورنتو بكندا إلى كتابه الذى يدرس بثمان لغات عالمية الآيات القرآنية والأحاديث النبويه التى تتحدث فى هذا الموضوع وظهرت لأول مرة وهى تشكل جزءاً من مرجع علمى أجنبى .

وقد اقنعنا البروفسور ألمور نفسه أن يستعمل المصطلحات القرآنية فى وصف مراحل نمو الجنين فقدم بحثاً فى هذا الموضوع يثبت أن المصطلحات القرآنية أنفع من المصطلحات القائمة الآن .

* * *

ويعرض الشيخ الزندانى لآية (والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم) فيقول : دحا فى لغة العرب مد الشىء وبسطه والقارات لم تكن هكذا فى بداية تكوين الأرض حيث كانت صغيرة فأضيفت إليها موادو اتسعت القارات فمدت بواسطة براكين خرجت من باطن الأرض وألقت هذه المادة إلى أعلى ومدتها على السطح .

وإلى ماقبل الخمسينات كان الظن أن ماء الأرض نزل من السماء فى بداية تكوينها ولكن بعد ذلك تأكد العلماء أن جميع البحار والمحيطات كانت فى باطن الأرض فخرجت على صورة أبخرة مع البراكين ثم تكثفت ونزلت مطراً ، فماء الأرض كله كان فى باطن الأرض والجبال لم تكن ثابتة كهذا حيث كانت غير مستقرة ولا يثبت الجبل إلا إذا تصلب جذره ، وبسبب حرارة الأرض يكون هذا الجذر فيه شىء من عدم الصلابة ويستغرق زمناً طويلا حتى يستقر بعدأن تتصلب من حوله القشرة فيستقر فانظر كيف أشارت الآية إلى ذلك فأرسيت الجبال ولها دور فى إرساء الأرض ، وكذلك فقرة (متاع لكم) فكم حوت هذه الألفاظ البسيطة السهلة ، كم حوت من الحقائق والعلوم .

* * *

ومن الإعجاز فى السنة النبوية قوله ﷺ :

(لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً) .

يقول البروفسور بالمر وغيره : إن هذه حقيقة علمية حيث أن بلاد العرب كانت بساتين وأنهاراً وهناك أدلة جيولوجية على ذلك لأن الرمال فى بلاد العرب لو رفعتها لوجدت تحتها الأرض الزراعية ومجارى الأنهار وبقايا عظام الحيوانات وقد وقع هذا فى العصر الجليدى وهى فترة زمنية تأتى فيسود فيها الجليد الأرض. وسبب ذلك أن ٢ ٪ من مياه المحيطات والبحار تتحول إلى ثلج وتتراكم فى القطب المتجمد الشمالى ثم تزحف نحو الجنوب وتسود فإذا زحفت نحو الجنوب قربت من بلاد العرب مما يؤدى إلى تغير اليابس ومعها الأمطار والأنهار فتكون بلاد العرب أكثر البلاد أمطاراً وأنهاراً .

وحول عودة بلاد العرب مروجاً وأنهاراً يقول البرفسور بازو الألمانى الفريد كرونر إن هذه حقيقة علمية لأن العصر الجليدى الجديد قد بدأ بالفعل وما تعانى منه شمال أوربا وأمريكا من أعاصير ثلجية فى الشتاء هى واحدة من الأدلة على تقدم هذا الجليد واتجاهه نحو الجنوب ولذلك فنحن قبلون على عصر جليدى جديد .

* * *

وحول الحد الفاصل بين البحار والمحيطات كما جاء فى القرآن الكريم يقول الشيخ عبد المجيد الزندانى ما يلى :

هناك بحث للبروفسور باز وهو أحد أساتذة علم البحار فى الهند يقول :

فى عام ١٨٧٣ خرجت مجموعة من علماء البحار البريطانيين فى سفن شالنجر وطافت جميع بحار العالم ومكثت ثلاثة أعوام ودرست مواقع متعددة من المحيطات فكانت نتيجة دراسة هذه الرحلة أن وجد إن هناك اختلافا بين المياه فى كل بحر من حيث الحرارة والكثافة والملوحه والحيوانات التى تعيش فمه ، ويلتقى هذا

البحر المالح مع الآخر مثل حالة البحر الأحمر والمحيط الهندى فهما يلتقيان وهما مختلفان فى العوامل السابقة .

وبقى هذا الأمر محل عجب عند العلماء لأنهم يعلمون أن المد والجزر من شأنه أن يخرج بحركته اليومية بين هذه الكتل المائية ويجعلها متجانسة فى الحرارة والكثافة والملوحة وعندئذ تكون وسطاً واحداً تعيش فيه الكائنات ولا تكون بيئات مختلفة تتخصص فى كائنات مختلفة فرغم هذا المد والجزر والأمواج والأعاصير التى تمتزج بين المحيطات والبحار ورغم التيارات التى تأتى من قاع المحيط فإن الامتزاج لا يحدث ،

ومن ثم قرر العلماء الذهاب إلى منطقة يلتقى فيها بحران فوقع الاختيار على منطقة باب المندب ووصلوا إلى البحر الأحمر ثم رصدوا محطات الدراسة فإذا تحركت الباخرة إلى المحيط الهندى وجدوا إن الصفات قد تغيرت فتعود نحو البحر الأحمر حتى تصل إلى نقطة تعلم أن هذه هى صفات البحر الأحمر فتذبذب هذه السفينة ذهاباً وإياباً حتى وصلت إلى نقطة وسط ووصلوا إلى الحد الفاصل وبدراسة هذا الحد الفاصل بين البحرين وجدوه ماءاً ثالثاً يختلف فى صفاته عن كل من ماء البحر الأحمر والمحيط الهندى وهذا الحد عبارة عن جدار من الماء فإذا حدث المد والجزر يتحرك هذا الحد بين البحرين فيحافظ على الحد الفاصل: سبحان الله .

وهكذا يمضى الشيخ الزندانى فى أبحاثه لا يكف عن إثبات الإعجاز القرآنى وإعجاز السنة المطهرة فى ميداو العلم .



الفصل الخامس

الدكتور رشدى فكار

الإسلام طوق نجاة للبشرية لا منقذ سواه

القرآن الكريم قبل « وو سو » قال بطبيعة الإنسان الفطرية ، وكذلك الأحاديث النبوية ، قالت بتكريم بنى آدم واختياره الرسالات وفضله على العالمين وقد ركز الإسلام على إيجابية الإنسان :

فالإنسان يتحرك من مكونات ثلاثة هى :

الغرائز وبها يولد ، العواطف وتتكيف مع الإنسان ، والمصالح وهى من معطيات البيئة . وإن ارتقاء الإنسان بإنسانيته مرتبط بسمو عواطفه على غرائزه وتكييف مصالحه فى ضوء ذلك .

إن إنسان القرن العشرين زيفته الحضارة وأبعدته عن إنسانيته فالغرائز مرتبطة بالبيئة البيولوجية والعواطف مرتبطة بالبيئة النفسية والمصالح مرتبطة بالبيئة الاجتماعية .

والإسلام هو الذى جسد سيطرة القيم والالتزام بالمثل العليا والتعالى بالمشاعر على الرغبات والأهواء الشخصية .

هذه هى المعادلة الأولى الإيجابية التى جاهد من اجلها الكثير من عباقرة الإنسانية كامتداد للأنبياء والرسل .

أما مجتمعات اليوم فهى مجتمعات الاستهلاك وإشباع الغرائز والرفاهية .

وهى المجسدة لحضارة الأشياء لا حضارة الإنسان . إننا نجد اليوم غيبة إطار الأصالة للإنسان بعد أن تخلى عن روحانيته ومعنوياته وتضحياته السامية فى معاملة أخيه الإنسان ، لم يعد للإنسان إلا إشباع بطنه وما فوقها وما تحتها .

والمصالح لم تعد واضحة المعالم لعدم القناعة واهتزاز مفهوم المصلحة والرغبة فى الإشباع بلا حدود ، وكل هذا خلق فى الإنسان نوع من الشراسة وعدم القناعة بشىء .

* * *

الحضارة الغربية حضارة متكاملة فى النهاية بشقيها (اليمين واليسار) وهى حضارة كونية .

إن الغرب وقد انتصر فى معركة العلوم التجريبية يريد أن يملى انتصاراً فى علوم الإنسان ويحاول أن يلزم الإنسان فى كل مكان أن يكون صورة من الإنسان الغربى : إنسان حضارة الغرب ، وهذا هو الاحتكار فى العلوم الإنسانية الغربية .

والواقع إنه ليس من حق الحضارة الغربية التحكم فى النفس المسلمة ، ذلك أن الحضارة الغربية وصلت اليوم إلى مرحلة المأزق ، وبدأت تبحث عن بديل البديل . بمعنى أن البدائل التى طرحت فى القرن ١٩ لإنقاذ الإنسان بفلسفة الإنسان بعد أن تنكرت للميتافيزيقيا وللفكر التجريدى لم تعد كافية .

البدائل التطورية والداروينية وكونت والماركسية وصلت فى النصف الأخير من القرن العشرين إلى المأزق . ومن هنا فإن البسطاء يتجهون إلى الإسلام فى كل القارات ، أما فى القرن الهجرى الجديد فقد رأيت عباقرة الفكر وفلاسفة الاستكبار والتحدى بدورهم بدأوا يقولون : الإسلام إلى أين وما هو الإسلام ؟ الإسلام يتجاوز اليوم مع أقدر العقول فى الوقت الذى يتراجع فيه المسلمون . لسر لا يعلمه إلا الله (تبارك وتعالى) إن الإسلام يتقدم فى عصر تراجع المسلمين ، وهذا شىء لافت للنظر ، حال المسلمين كما يشاهد الآن ، ومع ذلك فالإسلام يتقدم بثبات .

مؤسسوا المدارس الوضعية فى القرن ١٩ تصدوا للإسلام بعنف وشراسة

وجاء كبير المتمردين (أوجست كونت) وقيل له : كيف تتكلم عن الإسلام وأنت جاهل به ؟ قال سأحاول شخصياً أن أتعرف على الإسلام ، وبدا ينبش فى بعض كتب المستشرقين الألمان وقال : لا أعتقد أن هناك ديناً مؤهلا ونبوءاته بدأت تظهر الآن ، لا أعتقد أن هناك ديناً كونياً مؤهلا يتعامل به الإنسان فى الحالة الوضعية غير الإسلام ، لأن الإسلام لا يصادر العقل ويشجع العلم والابتكار والفنون والمعرفة .

الإسلام هو الدين الذى لم ولا يمكن أن يلاحظ فيه شكلية الإله ، لأن الإله كامل ، الإله شامل ، الإله إله كل الأديان ،

نحن فى حاجة إلى أن نصدر إلى الغرب المسلم القدوة .

المفروض بالنسبة للغرب أن تتكيف الدعوة الإسلامية مع معطيات الغرب ، الغرب متعب بعقليته لدرجة أن برتراند رسل تنبأ بها حين قال : العقل والعقلية دفعت الغرب إلى اللامعقول ونحن نحتاج إلى قدرة عقلانية .

وقد أشارت المجلة العلمية أن هناك زحفاً غريباً للإسلام جارودى يعتبر من عمالقة فلاسفة العصر ، كان متربعاً على كرسى الريادة الكونية فى الفلسفة ، وفجأة سبحان الله اكتشف أنه لا شيء مع إنه قمة ، لماذا ، لأن الرجل كانت له شجاعة الإعلان عن المأزق الذى آل به إلى الإسلام .

وكان جارودى منسقاً كبيراً للماركسية ومن كبار الشراح للمادية ، إنه قبل إسلامه وإعلان إسلامه حدثت أزمة العمالقة الثلاث :

١ - جاكوب مورنوه انتحر أبشع انتحار ، عالم عظيم ، رائد المدرسة النفسية الاجتماعية فى الولايات المتحدة .

٢ - التوسير من أقدر فلاسفة المادية والماركسية وصاحب الدفاع المشهور للنظرية بعنوان (من أجل كارل ماركس) .

منظر عظيم فى الغرب وهو صديق لجارودى قتل زوجته بجانبه فى السرير وجاء إلى قصر الأمن ليسلم نفسه ، وأحيل إلى مستشفى الأمراض العقلية .

جارودى وصل إلى الإسلام فى تصورى أن القضية : جارودى لم يتنكر وإنما قادته المسيرة وإسمها موسوعة اليأس ، لأن العقل فى قمة عطائه الفكرى ، العقل الغربى ، ويتمتع بسخونه هائلة وتمرد ، العقل الغربى تقريباً التقى بتطوريته ووجوديته وضروريته ، التقى كما قلت بالمأزق .

الجميع يعلن المأزق ، ربما أكثرهم نزاهة هو عميد فلاسفة العصر (هايدى جاردن) الفيلسوف الوجودى حينما أصر على أن الطريق لا يؤدى إلى أى مكان وعلى الإنسان وهو فى القلق ، وهو فى هذا أسماه (ليل أوربا) تحدى هذا المفكر ومات وهو فى قمة الإعلان عن الإفلاس ، كما قال سارتر قبل وفاته :

« إن فلسفتى قادتنى إلى هزيمة نكراء » .

حينما سئل وهو يحتضر ، وسارتر معروف إنه حديث الشباب والطلاب والجامعات .

إن سارتر وهو يحتضر - كما نشرت تفصيلا كلماته الأخيرة فى أغلب المجلات فى فرنسا طلب أن يؤتى له بقسيس من قرية ، قال لأنى لا أميل أن يأتينى كاردينال لأنى أعتقد أنه نى منشرش ، أريد قسيساً ، وجاءوا له بهذا الرجل البسيط ليعطى له الغفران أو الاعتراف . وأعلن حينما سئل إلى أين قادتك فلسفتك ؟

قال : فلسفتى قادتنى فى النهاية إلى هزيمة نكراء .

« لا رجاء إلا فى الإسلام » إن جارودى لم يتنكر لجارودى ، بمعنى أنه حينما وصل إلى المأزق وهو يعرف بأنه إنسان مرن ومفكر شجاع لأنه دافع عن الماركسية بكل شجاعة وعن الاشتراكية العلمية بكل نزاهة فكرية ، وبنفس النزاهة والشجاعة حينما اكتشف أن القضية مأزق وطريق مسدود ، أعلن أن لا رجاء إلا فى الإسلام ولذا سمى نفسه رجاء جارودى .

* * *

ويتحدث دكتور رشدى قطار عن مأزق الحضارة الغربية فيقول :

لقد التقت النظريات على أن نهاية ديناميات العالم أو حدود التنمية فى بداية

القرن الثانى والعشرين ، حيث تنتهى حدود التنمية ويصل العالم إلى الاختناق » وقالوا إن هناك منطقة تهوية مدتها ١٢٠ عاماً قبل كارثة الاختناق ، أى أنهم وصلوا إلى الطريق المسدود الذى تحدث عنه الفلاسفة ، ولكن بالبحث العلمى الرياضى التطبيقى .

وقالوا فى تدبر ذلك إن السبب يرجع إلى أسلوب إنسان العصر الذى يعمل على الاستيلاء بالاستهلاك ، ومحاولة امتصاص خيرات الكون بطريقة واعية أو غير واعية بنوع من الترف والتلهى بالاستهلاك مع وجود التناقضات الحادة ، هناك بشر لا يجد ما يأكله ، وبشر تلقى كل شىء ويأخذ أقصى ما يستطيع ثم يتحوله ما تبقى إلى سواقط ونفايات ، وهناك دعوة إلى إلغاء الصناعة نهائياً ، وأن يعدله الإنسان عن الصناعة بعد أن وصل إلى قمة مجده فيها أو الوصول إلى التدنى السكانى والانهيار بتعميم التلوث وانخفاض المستوى الصحى .

وبالجملة فقد لعب الغرب بالأمانة ولم يحفظها وظن أنها مسألة سهلة يسيرة وجهل ما سيتحقق على أثر ذلك التهاون والاحتقار بعطيات الله تبارك وتعالى . ولكن هذا الطريق المسدود الذى سارت عبر دورته العتيقة فلسفات الغرب والشرق ألهب العقول بحثاً عن "بديل السالك إلى رحاب الحقيقة الكلية ، فكانت الصحوة الإسلامية التى تبعث الآن فى قلوب وعقول مليار من البشر المسلمين مستندة إلى ركائز فكرية وحضارية وروحية رسبت عبر أربعة عشر قرناً ، فقلبت مائدة الاستشراق الغربى الأسود ومخططات الغزو الفكرى والتبشير رأساً على عقب ولفتت الأنظار بشدة إلى الفكر الاسلامى وخلوده وعدم قابليته للإندثار .

وهنا نرى أن اتجاه قمم الفكر الغربى للأخذ بمنهج المسلمين العلمى فى الطبيعة والكيمياء والطب والفلسفة فى مطالع النهضة الأوروبية له ما يقابله فى عصرنا الراهن من اتجاه سريع الايقاع لمجرد التأثر بالفكر الاسلامى ، ولكنه يندفع بقوة نحو اعتناق العقيدة الاسلامية ذاتها .

فهؤلاء علماء الغرب يعودون إلى الاسلام . ويتقرر حقيقتين أساسيتين :

الأولى : عدم قابلية الفكر الإسلامى للاندثار .

الثانية : الإسلام كبديل منطقى لإفلاس الفلسفات الوضعية ، ويتدلل فى ذلك بإسلام جارودى وبوكاى وغيرهما مما طرأ على الساحة الفكرية للإسلام كبديل منطقى لإفلاس الفلسفات الوضعية .

ولكن السؤال : هو كيف تتحقق عالمية الإسلام فى ظل تأزم المسلمين الواضح الآن من استمرار تخلفهم الاقتصادى والاجتماعى وشقاقهم وتناحرهم الذى وصل إلى حد الاقتتال والتدمير والتمزق .

بداية : إن العودة إلى الحق لا تكون إلا برسالة الحق ولن يقود الإنسان المعاصر أبداً عن طريق هذه الحبوب المخدرة التى يقدمها له فكر كسيح أو الحلول المؤقتة والقائمة على الغش والتحايل .

وأرى أن الإسلام رغم تأزم حال المسلمين سيظل الرصيد لإنقاذ الكون بأسره لا لإنقاذ قبيلة أو شعب أو قارة فحسب ، فسيكون هو المنقذ من هذا المأزق لا عن طريق اختراع أحدث صواريخ ، وإنما عن طريق إعادة الإنسان المستلب إلى صوابه .

إن عالمية الاسلام تتحقق انطلاقاً من نظرية أن السلوك قادر على تغيير التطور لا العكس ، بمعنى أن الأولية للسلوك وأن كليهما يؤثر ويتأثر بالآخر ، وإذا نظرنا إلى السلوك السائد فى الحضارة المادية رسمالية كانت أو ماركسية نجده متطبعاً بطابع استهلاكى ، وبقدر ما نوغل السير فى هذا الطريق بقدر ما نقترب من الكارثة ، فنحن فى حاجة إلى صدمة جذرية عن طريق سلوك آخر روحانى لا مادى ، ولن يكون البديل لا الاسلام .

ولا أعتقد أن الاسلام سيقول لأبناء القرن الحادى والعشرين سأعطيهم تأثيراً أسرع وسيادة أفضل ولكن سيقول لهم :

سأعطيكم إنساناً أكثر توازناً واعتدالا وبراً وإحساناً وعدالة ، الانسان الذى يرتبط بعبادته ويخشى ربه وخالقه ، الانسان الذى يخدم الانسان ويعمل لإسعاد الانسانية فى المعنويات لا فى الماديات .

إن الأزمة فى اعتقادى ستقود العالم إلى الاسلام ، وأن حال المسلمين المتأزم ان يعوق دون الوصول إلى الاسلام ، لأن الاسلام ان يتجه إلى العالم الغربى والشرق الغارق فى المشكلات ، ولكنهم هم بمحض اختيازهم سيتجهون إلى الإسلام كطوق نجاة لا منقذ سواه .

إن رواد الفكر وعمداء الفلسفة فى القرن العشرين يقررون بأن هناك فارقاً حضارياً جاء نتيجة أن إنسان هذا العصر : هو إنسان الحيرة والقلق والاكتئاب ، إنسان لا يشبع فى استهلاكه ويبحث عن الرفاهية والرخاء ، هناك إجماع على هذا من (هايدجر ، وكيارس وسارتر وماركس) وقد ترتب على ذلك تلوث يتم على جميع المستويات خاصة العلاقات الانسانية والأسرية .
إنه عصر يبدو كعصر شاخ فى منظر كئيب سادته يعانون من الأرق والملل والقلق .

* * *

ويقرر الدكتور رشدى فكار أن مشكلة المسلمين تكمن فى بعد المسلمين عن اتخاذ الاسلام منهجاً وسلوكاً وأنه على الأجيال المعاصرة أن تعى أن أزمتها ليست أزمة مصير أمة وإنما هى أزمة جيل وأنه ليس فى الحقيقة أن يقال إن هذا الجيل هو جيل التراجع والانتكاس والهزيمة ، فهو جيل صامد رغم تعدد الاشكالات والعوائق المعروضة عليه ، كما أن الأمة الاسلامية بخير رغم ما يعتريها من أزمات وأن الاسلام ينتشر ويزيد رسوخاً بمبادئه رغم المؤامرة التى يدبرها له أعداؤه ، وأن الاسلام ينتشر رغم كل الجروح والطعنات البشرية والمآزق والحواجز والمؤامرات ومحاولات البعض أن يجعل منه خادماً لأغراضه ومحققة لنفعه هو ، ومع ذلك استطاع الاسلام أن يصمد بمبادئه الراسخة الخالدة وأن يصل إلينا فى القرن العشرين عملاقاً رغم كل هذه المحاولات والعقبات ، وما زالت مبادىء الاسلام تشكل دائماً موقع الانقاذ فى أى فترة تتأزم فيها الظروف بالمسلمين خاصة والانسانية عامة .

هناك الآن انفصام بين عقيدة المسلم وسلوكه ، وهناك من يحاول أن يلصق

التهمة بالإسلام بينما الإسلام ليست له مشكلة ، وإنما على المسلم أن يتفاهم مع ذاته ومع إسلامه ومع ما حوله من المسلمين ، وكذلك مع الآخرين ، ومن ثم فإن المشكلة الإسلامية كسلوك و تعامل هى ما يجب أن تسلط عليه الأضواء .

• • •

ويقول الدكتور رشدى فكار : إن الإسلام جاهز لحماية البشرية من الثأر التاريخى بين الدين والعقل .

احذر المسلمين إن العقل الغربى الذى افتعل تمرداً على الدين و نجح فى إلغائه يريد أن ينقل إلينا هذا الاحتجاج عن طريق التقليديين .

أقول : إن إلغاء الدين للعقل أدى إلى ظلمات القرون الوسطى ، وأن إلغاء العقل للدين أدى إلى ظلمات الإنسان .

إن الإسلام هو القوة الجاهرة والمستقدة والوحيدة لقيادة الإنسان إلى عالم من الانسانية الفسيح وإخراجه من ظلمات الانسانية بعد عصر الكآبة المادى ، إن الإسلام ليس فى حاجة إلى حماية العلم أو العقل ، لأن الاسلام هو الذى يحمى العقل من الشطط ويحمى العلم من الانحدار والانحلال .

إن معظم الأخطاء فى الغرب وقعت كرد فعل لتجارب تاريخية مرت بها الدول الأوربية فالتحكم الكنسى جعل الكثيرين يتحولون نحو البعد عن تعالم الكنيسة بالمرة . إن الحضارة الغربية حضارة مغشوشة تقود الانسان إلى الهاوية والانهيار وأن الغرب فى طريقه إلى الانهيار بعد أن أطلق العنان للغرائز والعقل دون ضابط أو موجه ، وإذا كان الصدام الأول بين العلم والدين قد أحدث العلمانية فإن الصدام الثانى الواقع سوف يقود العقل إلى ظلمات الانسان .

إن الحضارة الغربية تتراجع بعد أن تحولت إلى حضارة الاشباع والأشياء والغرائز .

الفصل السادس

الدكتور فؤاد سزكين

شهادة للتراث الإسلامي

بعد أكثر من أربعين عاماً من العمل الجاد فى سبيل تحقيق التراث الإسلامى يقدم الدكتور فؤاد سزكين شهادة خالصة لوجه الله تبارك وتعالى :

إن أسلافنا ما طلبوا العلم للحصول على الشهادات ، وللأسف الشديد فإن الحضارة الاوربية قد أخذت من حضارتنا هذا المنهج بينما انحططنا نحن إلى مستوى جعل العلم مجرد وسيلة لتحقيق أغراض ومنافع شخصية ، فالجامعات الاسلامية لم تلحق بالتقدم العالمى ولا الحضارى ، وليس لها مكانة علمية وليست قادرة على تكوين علماء باحثين حقيقيين .

إن معظم المستشرقين ليسوا على استعداد لقبول أكثر أفكارى وآرائى الواردة فى كتابى (تاريخ التراث العربى) وخاصة لأنها لا تتفق مع الآراء السائدة من قبل فى نفس المواد ، إنهم لا يروننى مقلداً لهم بل يصفوننى بأنى محافظ ، وقد ادعى أحد المشاهير إنى أرفض نتائج الدراسات الاستشراقية على الاطلاق .

ولكنى أؤمن بأن تبيان مكانة العلماء المسلمين فى تاريخ العلوم والحضارة أمر ضرورى لإعطاء الأجيال القادمة الثقة اللازمة .

إن مؤلف تاريخ التراث العربى يحاول أن يبين ويبرهن على أن العلماء المسلمين والعرب قد أصبحوا منذ أواسط القرن الثالث الهجرى مبدعين بنائين أى إنهم تمكنوا بعد رحلة الاخذ والتمثيل فى وقت قصير نسبياً أن يصلوا إلى مالم

يصل إليه الأسلاف فى الحضارات الأخرى ، وأن هذه المرحلة من الإبداع والابتكار استمرت فى توسع وعمق إلى أواخر القرن الثامن الهجرى ، وأن قصة أخذ وتمثل العالم اللاتينى لهذه العلوم إنما ابتدأ فى القرن الرابع الهجرى إلى أن وصل إلى مرحلة الابتكار ببطء وتدرج فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى .

إن معرفة مكانة العلماء المسلمين فى تاريخ العلوم والحضارة أمر ضرورى لأنه يعطى للمنتسبين لهذه الحضارة من المعاصرين ومن الأجيال القادمة الثقة بالنفس للتخلص من العقدة النفسية الموجودة عند كثير من المثقفين غير الحقيقيين الذين لا يرون نهضة الأمة الإسلامية إلا فى الترك المطلق للموروث والانصراف الكلى إلى ما هو أجنبى .

إن كل ما يروى عن العرب قبل الإسلام لا يعطى إخواننا العرب والمسلمين أهمية بالقدر الذى يعطيه لهم دورهم فى تاريخ العلوم والحضارة تحت راية الإسلام .

لقد جاءت مرحلة جديدة للجزيرة العربية بعد ظهور الإسلام حيث اجتمعت عناصر مختلفة فى ظروف مهيئة ودوافع هامة لتجعل هذه المرحلة بعد وقت قصير انقلاباً هاماً فى تاريخ البشرية .

وقد أوضحت فى المجلد الرابع من تاريخ التراث الإسلامى أن المسلمين أسسوا علم الكيمياء النظرى والتجريبى ، وهذا العلم هو الذى وصل إلى أوربا وبقى هناك إلى أن جاء شىء جديد فى نفس الميدان فى القرن الثامن عشر الميلادى .

* * *

إن المكانة الحقة للعلوم العربية الإسلامية فى تاريخ العلوم العام أكبر بكثير مما أثبتته الدراسات التى تمت حتى الآن ، ولا يقلل من هذه المكانة أن نعترف لمن سبقنا ولغيرنا بما له من جهد ، فمكانة العلوم العربية والإسلامية فى تاريخ العلوم (العالمى) لا تقل عن مكانها لدى أمم أخرى ، وأثر العلوم العربية فى عصر النهضة الأوربية أوسع وأعمق من أن يتصور، وليس هذا مجرد رأى أو انطباع، وإنما ثمرة دراسة وبحث فى هذه العلوم مدى أربعين عاماً حاولت فيها تتبع قصة أثر العلوم

العربية والإسلامية فى الغرب فى عدة مجالات ، ولكن أكثر هذه الحقائق لم تتضح لمؤرخى العلوم وسيستغرق إظهارها فى كتبهم وقتاً طويلا ومن واجب العلماء المنتمين لهذا التراث لغوياً ودينياً تبيان هذه القصة اليوم .

إن على العلماء المسلمين اليوم أن يقارنوا النتائج التى وصل إليها العلماء المسلمين بكتب العالم الغربى من القرن العاشر إلى القرن السادس عشر الميلاد ، فقد قطع المسلمون مرحلة الأخذ والتمثل فى وقت قصير نسبياً حتى إذا وصلنا إلى أواسط القرن الثالث الهجرى ، كان المسلمين قد دخلوا مرحلة الإنتاج الأصيل المبتكر ، وقد نفذ هذا الطابع الإبداعى إلى جميع العلوم فى سرعة وعمق وظل مستمراً دون انقطاع حتى القرن الثامن الهجرى عندما بدا الركود فى العلوم والحضارة الإسلامية .

• • •

ومعنى هذا أن المسلمين فى أواسط القرن الثالث الهجرى استطاعوا أن يطوروا ما ورثوا عن الاغريق والبابليين والهند والفرس وأن يصححوا هذا الموروث وأن يأتوا بقوانين ومذاهب جديدة وأن يستخدموا آلات جديدة فى تجاربهم ومقاييسهم وأن يضعوا علوماً جديدة غير معروفة لدى الأسلاف .

أما بدء انتقال هذا التراث إلى الأجانب فقد ترجمت بعض كتب الكيمياء والطب وأحكام النجوم من اللغة العربية إلى اللغة اليونانية فى أواخر القرن الثالث الهجرى .

ثم بدا الطريق الثانى عبر الأندلس .

إن أخذ الغرب المسيحى للمعرفة عن المسلمين لم يقتصر على الترجمة بل كان اتصالا بشرياً قوياً مباشراً . إن أقدم الترجمات المعروفة من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية تمت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى . وأقدم ما ترجم كان كتاباً فى علم الفلك ، كانت أقدم ترجماتهم تتعلق بالاسطرلاب وبالهندسة العملية ، ولم يجدوا فى كثير من الأحوال اصطلاحات لاتينية مقابلة للاصطلاحات العربية مما اضطرهم إلى استخدام المصطلحات العربية كما هى .

وقد انطلق اللاتينيين من مبدأ (الانتحال) أما الموقف الإسلامى فقد كان واضحاً فى إسناد الأقوال إلى أصحابها ، وقد كان لأخذ اللاتنيين العلم من أعدائهم فى الدين والسياسة إلى الانتحال لإخفاء المؤلفين الحقيقيين ، وذلك خلافاً للتبع عند المسلمين ، فقد كانوا يأخذون من أبناء دينهم وغيرهم دون أى مانع معنوى .

وامتدت عملية الأخذ فى القرن السادس إلى باريس وتورى وتولوز حيث ترجمت كتب عربية ضخمة تتطلب ترجمتها إحاطة المترجم بعلومات علمية متخصصة حيث بدأت مرحلة التمثل ، أما الانطلاق والانطلاق الكبير فى فن الترجمة فقد حدث فى أواخر القرن السادس حيث ترجمت مؤلفات فى الفلك مقتبسة من الفرغانى والبتانى .

واستمرت مراكز الأخذ والتمثل للعلوم العربية فى نهاية القرن السادس تجاه انجلترا وشمال إيطاليا وجنوب إيطاليا وفى صقلية منذ أوائل القرن الثالث إلى الخامس تحت حكم المسلمين .

وفتحت ترجمات قسطنطين الأفريقى فى أوربا الأبواب لطلاب العلم والطب بعد أن كان الطب الشعبى الآخذ بالخرافات هو المتداول فى أوربا ، وانتقلت العلوم العربية الإسلامية إلى الغرب عن طريق بيزنطه وعن طريق الأندلس وعن طريق إيطاليا .

ويميل بعض مؤرخى العلوم إلى الاعتراف للعلوم الإسلامية بالأثر المتواضع فى قيام النهضة الأوربية دون أن يلاحظوا طرق الانتقال ، وهم يعلقون على الحروب الصليبية أهمية كبيرة ويظنون أن احتكاك المحاربين هو الذى جعل العالم اللاتينى يعرف بعض الانتاج العلمى الإسلامى ، وهذه تسمى نظرية التوارث .

وفى القرن السابع الهجرى (١٣ الميلادى) كان قيام الجامعات فى المدن الأوربية ، هذه الجامعات على غير مثال أوربى لم يعرفها الاغريق ولم تعرفها العصور الوسطى الأوربية وهى ليست إلا تقليداً للجامعات الإسلامية : أصولها وفروعها وبرامجها .

وعندما بدأت الحركة الفكرية فى الغرب فى القرن الثالث عشر الميلادى وجدنا المؤلفين يفخرون أحياناً بكونهم مقلدين للعرب وتلاميذ لهم، وليس فى هذه الكتب جديد بالنسبة إلى الكتب العربية وهى أقل فى المستوى من مصادرها العربية وقد عرفوا عمل بطليموس عن طريق الكتب العربية، ومنها وصل علم الفلك إلى مستوى أفضل مما فى كتاب بطليموس.

ومدرسة أرسطو التى أنشأها البرتوس العظيم لم تكن تفهم اليونانية، ولم تعرف كتب أرسطوطاليس إلا بواسطة شروح ابن سينا وابن رشد، وهو مؤسس علم الحيوان والنبات والأحجار والآثار والكيمياء، أخذها مما وجدها فى كتب ابن سينا وابن رشد وجابر بن حيان.

أما روجر بيكون الذى استند إلى كتب الكندى وابن سينا وابن رشد ومؤلفين عرب آخرين فهو تلميذ العرب اشتهر باكتشافات مهمة أخذها من العلماء العرب وشهرته إنه أول عالم أفاد من التجربة لخدمة العلم، وكان البيرونى وابن الهيثم سابقين زمنياً وكان بيكون تلميذهم الذى ظل دون مستوى أساتذته.

* * *

وركز الدكتور فؤاد سزكين على ظاهرة انتحال الكتب العربية ونسبتها إلى علماء الإغريق.

أولا : نسبة كتاب حنين بن إسحاق فى العين إلى جالينوس.

ثانياً : نسبة كتاب نور الدين البطروجى فى الفلك إلى أرسطو.

ثالثاً : نسبة كتاب إسحق بن عمران إلى روفوس اليونانى.

ويقول الدكتور فؤاد سزكين أنه فى القرن الرابع عشر الميلادى قاموا بتلخيص الكتب المترجمة من العربية، واعتادوا حذف أسماء العلماء العرب وذكروا بدلا منها أسماء علماء الإغريق المشار إليها فى المصادر العربية، ذكروا بطليموس وكتابه فى الفلك مع أن مصدرهم كان كتاب البتانى. ولا ريب أن نسيان العلماء العرب منذ القرن الرابع عشر يرجع إلى عاملين آخرين مهمين :

أولها : ظهور التيار المناهضين للعربية وقد شاهد هذا التيار فى نهاية القرن ١٣ وأوائل ١٤ بضراوة وشدة .

إنها العقدة النفسية تجاه أسماء العلماء العرب ، ورائد هذا التيار المناهض للعربية هو (رايموند لولوس) وقد وصل إلينا أكثر من سبعين كتاباً اتضح من بحثها جميعاً مؤلفات عربيـــة ، وقد استمر هذا التيار إلى أواسط القرن السادس عشر .

ثانيها : الطموح والولع بالتفوق الحضارى فكانت الاكتشافات المهمة للعلماء المسلمين تنسب إلى يومنا هذا إلى علماء أوربيين (خلال القرون ١٣ ، ١٤ ، ١٥) ومن هذا القبيل اكتشاف الحجرة المظلمة فى النظريات وكشف المثلثات الكروية والأدلة الفلكية المسماه باسم عصا اليعقوبى وتأسيس التجربة وهى مكتشفات نسبت بغير حق إلى (ليفى بن جرين) وذاعت شهرته بها ، ولم يسجل أحد من الباحثين نفسه كيف يمكن لرجل واحد أن يكتشف هذه الاكتشافات الخطيرة واليوم نعرف المكتشفين الحقيقيين لها من العلماء العرب .

ويستطرد الدكتور فؤاد شركين فيقول :

« إلى جانب الكتب المترجمة فثمة وسائل أخرى لإخفاء الإنتاج العلمى للعالم الإسلامى . إن الكثير من الأوربيين بعد أن أدركوا أهمية العلم الإسلامى شرعوا فى الرحلة إلى الشرق والإقامة سنوات طويلة وتعلموا اللغة العربية ودرسوا العلوم وعادوا ومعهم العلم والكتب أن كوبرنكوس أخذ نظرياته عن دوران السيارات من الفلكيين المسلمين ، وأن العالم الإيطالى (ليوناردوافيجورانيوس أحد علماء الرياضيات اللاتين تعلم العربية ودرس الرياضيات فى تونس وتنسب إليه اكتشافات خطيرة فى الرياضيات : هذه الاكتشافات هى اقتباسات من الكتب العربية ، وثمة وسيلة أخرى لأخذ العلوم العربية وهى طريقة النقل الشفوى ، ومنذ القرن الثانى عشر عرف العلماء اللاتين الذين لا يفهمون العربية الإنتاج العلمى للعلماء المسلمين عن طريق الترجمة الشفوية ، كانوا يستفيدون من تلك الكتب دون أن

تكون قد ترجمت فى أوربا أو من كتب ترجمت وخفيت ترجمتها على الناس ، ويبدو أن الأمر كان معروفاً للمسلمين ، لذا كان عليهم فى كتب الحسبة أن يحذروا بشكل رسمى من بيع كتب العلم لليهود والنصارى إلا ما كان من شريعتهم فإنهم يترجمون كتب العلم وينسبونها إلى أهليهم وأساقفتهم ، وهى من تأليف المسلمين ، ونعرف الآن بالدليل القاطع أن مدرسة لترجمة الكتب العربية والفارسية إلى الإغريقية قد تأسست فى (طرابيزون) على ساحل البحر الأسود وأخرى قامت فى القسطنطينية فى القرن الرابع عشر .

* * *

هذه هى شهادة الدكتور فؤاد شركين العالم المسلم التركى الذى يعمل أستاذاً بجامعة فرانكفورت ويعكف منذ وقت طويل على إخراج موسوعة إسلامية جامعة عن التراث العربى يصحح بها كثيراً من المواقف المدخولة التى حاول الاستشراق تعميتها وتزييفها ، وقد عمد إلى تصنيف العلوم العربية كلها وطبقات مؤلفيها من مراجع التراجم الخاصة بهم العربية والأجنبية ، وقد رجع إلى فهارس المخطوطات فى حوالى ٧٢٤ مكتبة زارها فى ٤٠ دولة من أنحاء العالم منها مائة مكتبة فى استانبول وحدها وقرأ ما كتب عن مخطوطاتها ، وكذلك راجع ٣٢٧ مرجعاً عربياً قديماً و ٢١٥ مرجعاً أجنبياً بمختلف اللغات ، وقد اجتمع له من المعلومات عن كتب ومؤلفى القرون الأربعة الإسلامية الأولى ما يملأ خمسة مجلدات .

(١) علوم القرآن (٢) الحديث والتاريخ والفقه والعقيدة والنصوص ،
(٣) الشعر والنثر واللغة والأدب (٤) العلوم الطبية (٥) العلوم الطبيعية
(٦) الترجمة والفلسفة .

وما يزال الدكتور فؤاد شركين مستمراً فى عمله التاريخى الكبير .

الفصل السابع

أحمد ديدات

خطاب التبليغ الإسلامى العالمى

لمع فجأة إسم هذا الداعية المتمكن القدير ، واستطاع بقدرته البيانية واطلاعه الواسع أن يهز المنابر ويبهر المجامع . وعرف بعدد من المناظرات الشهيرة والحوارات المثيرة ، وهو مواطن من جنوب إفريقية ومن أصل هندى لمع فى سماء العالم الإسلامى والغربى من خلال منهجه المتفرد فى الدعوة إلى الله مجدداً منهج المناظرة والجدل والحوار الذى عرف به عدد ليس بقليل من الدعاة المسلمين على مدى العصور .

يقول : هذه الصحوة الإسلامية التى بدأت تنتظم العالم الإسلامى قد أرعبت الغرب ولكى يقلل من شأنها بدأ يطلق عليها أسماء تخيف الناس منها كالتطرف والتعصب وغير ذلك من الأسماء ، وهذه دعاية غربية تساندها مؤسسات التبشير لتقلل من شأن الحركات الإسلامية ، وهذه هى استراتيجيتهم الجديدة التى يتبعونها لمحاربة الإسلام شأنهم ذاته كما كان فى الماضى ، إذ كانوا يقولون إن الإسلام دين خاطىء ومحمد ﷺ رجل شهوانى (حاشاه وحاشاه) ذو عدة نساء ، وعندما لم تجد تلك الادعاءات تقبلا واسعاً استبدلوها بهذه الاستراتيجية الجديدة لتشويه الإسلام ، وعلى ضوء هذه الحرب النفسية فإن العالم الغربى النصرانى مصمم على تنصير العالم الإسلامى ، ويعد لذلك خططاً مركزة لتنصير المسلمين فى العالم ، والدلائل على ذلك أكثر من أن يحصيها العد ، فالآن يتفرغ لنا المنصرون بالملايين حيث يتوزعون حول العالم لتنصير المسلمين ، وهم يقرعون أبوابنا فى بلادنا فلم تسلم من التنصير دون المملكة العربية السعودية وباكستان وبنجلاديش

وأندونيسيا ، فقد تنصر ١٥ مليون أندونيسى ، وهم يفتخرون بأنهم استطاعوا تنصير المسلمين الباكستانيين والبنغاليين الآن أكثر من أيام الاستعمار البريطانى ، وهناك الآن مئات الآلاف متفرغون للتنصير فى افريقيا .

هذه هى الصورة كما يراها الداعية أحمد ديدات ، فإذا سأل عن خطة العمل فى ظل هذا الواقع المصيب قال :

إنه أحد موقفين : إما أن نجتهد وأن ندعو الناس إلى الإسلام وأن نتمسك بإسلامنا أو أن نقف مكتوفى الأيدى كما هو الآن ليحولونا إلى النصرانية ونحن أصحاب الحق والدين الذى يجب أن يظهر وينتشر ، والذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فإذا قصرنا فى ذلك فإن الله قد توعدنا بأنه سيبدلنا بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين .

فقد تركنا المجال للدعوات النصرانية وغيرها تنتشر بكل أساليب الدعاية والإعلام واستغلال إمكانات الصحافة والإذاعة والتلفزيون وغيرها ، ولهذا يجب أن نغير هذا الواقع وأن ندافع عن ديننا وأن ننشره بذكاء وحكمة .

إننا نؤمن بأنه لا إكراه فى الدين ولكن يجب الإظهار والدعوة باللسان والعقل ، بالذكاء والحكمة ، وهذا ما توقفنا عن عمله منذ قرون وأصبحنا نقول : بأن لكل أمة دينها .

* * *

ويدعونا الشيخ أحمد ديدات إلى أن ننفق فى سبيل تقديم الإسلام إلى الناس ، وقد أعطانا تلك الأموال الطائلة ، وقد توعد الله تبارك وتعالى الذين لا ينفقون فى سبيل الله ، والله تبارك وتعالى أخبرنا عن سر النجاح ، وفى القرآن قدم لنا المعادلة ولكننا نأخذ بأجزاء من الدين ونجعلها ديناً وحدها ، والله يحدد سر النجاح فى هذه الأمة بقوله تعالى :

(والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) فالإيمان والصلاة والشورى والإنفاق ، والمطلوب أن يكون لنا صحف

توضح للأمة طريق الخلاص وتجنبها مهالك الطريق وتنفق مما رزقنا من أموالنا وأوقاتنا وطاقاتنا فى سبيل الله استجابة لأمر الله ثم بعد ذلك نكون من الناجحين ونسأل ماذا فعلت مؤسساتنا المتخصصة للدعوة .

أين الدعوة المهمة الأصيلة للمسلم من مائة ألف صحابى حضروا حجة الوداع لم يدفن فى المدينة إلا عشرة آلاف : أين ذهب الباقون، لقد فهموا معانى الشهادة والتبليغ للرسالة ، وانطلقوا فى الآفاق يمتطون خيولهم وجمالهم ينشرون كلمة الله ويبلغونها للعالمين ، أدركوا رسالتهم للعالم ولم يكتفوا بالجلوس فى بيوتهم ومساجدهم يقيمون نصف الدين ويتركون النصف الآخر .

إن المسلم يملك هذا الدين . ويملك البرهان وعليه أن يصحو ويعلم أنه يملك (جرافة) منحها إياه الله تحطم كل الصخور ، صخور الأصنام والجاهلية ، هى هذا الدين فعليه استخدامها لنيل العزة ، ولكن تصرفاتنا تدل على ألا عزة لنا فى هذا العالم مع أن أصل العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

* * *

ويحذرنا الشيخ ديداوات من مسألة الابتعاث إلى الخارج ، حيث نقوم بقذف أبنائنا أمام أنياب الأسد دون أن نحذرهم من مكامن الخطر، فالمنصرون الصليبيون يحبون أن يرونا هناك لكى يسمموا ويعملوا لنا غسيل مخ ويوجهونا كما يريدون فأبناؤها الذين تقذف بهم فى بلاد الغرب يجب أن نعدهم ليكونوا سفراء لبلادهم ودعاة لدينهم .

فالمنصرون الذين يبعثون بأطبائهم ومهندسيهم ومعلميهم ليعملوا هناك وينشرون النصرانية وهم يكسبون وفى نفس الوقت يؤدون مهمتهم . وكذلك أنت أيها المسلم عندما تذهب للتجارة أو السياحة أو التعلم فى الغرب يجب ألا تنسى دورك وواجبك الأهم وهو تبليغ هذا الدين فإن أجدادك العرب قد فعلوا ذلك عندما ذهبوا إلى التجارة ونشروا الدين ، لذلك نجد أن أكثر من ٩٠ فى المائة من المسلمين من غير العرب ، فأجدادك قد أدوا دورهم بينما أنت لا تستطيع أن تحافظ على

نفسك وعلى أبنائك ، فإما أن تجاهد فى هذه المعركة وتقف فى وجه هذه القوى أو أن تقبع مكانك وتنهزم وتتهدم ويستبدل قوماً غيرهم .

* * *

ويقول الشيخ ديدات : علينا أن نحافظ على أولادنا الذين يسرقهم المبشرون والمنصرون ، إنهم يسرقون أطفالنا ، أمام كل شخص يتحول إلى الإسلام ، فهم يكسبون سبعة أشخاص فى أفريقيا ، وكذلك فى أندونيسيا ، وبينما نرى المبشرين يندفعون د نطاق واحد لنشر دينهم والتضحية بحياة الترف والبذخ والعيش فى أدغال أفريقيا والصحارى الحارقة لا يفعل المسلمون ذلك .

قلما نسمع من يدعوننا إلى الانطلاق للدعوة إلى الله فى بقاع العالم ، إنهم يحدثوننا عن الصلاة والزكاة فحسب .

إن الجهاد فى سبيل الله تعالى قال تعالى (وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج)

فهو الذى اختاركم واصطفاكم لهـــذه المهمة ، آيات الجهاد لا تزال موجودة فى القرآن ولكننا لا نسمعها على المنابر ، أمر الجهاد أمر يقوم عليه الدين كله .

إن مهمة التبشير واحتواء أبنائكم مهمة سهلة ، فأنتم ترسلون أبناءكم إلى الغرب وهم يستغلونهم هناك ويقيمون لهم حفلات استقبال وتعارف وهم ينتظرونهم بفارغ الصبر فإذا وقعوا فى أيديهم فلن يفلتوا

عجيب لأولئك المسلمين كيف يسمحون للمنصرين بالدخول إلى بيوتهم فيتمتع المنصرون بكرمهم على الرغم من أنهم يهاجمون الإسلام .

* * *

اشتهر أحمد ديدات العالم بقوة حججه المنطقية فى دحض الافتراءات على الإسلام من جانب أعدائه بدأ من الملحدين حتى المنصرين وابتكر المناظرات كسلاح أفريقى فى مواجهة التنصر الذى ترصد له اليوم أموال طائلة وأجهزة جديدة

العمل فى إفريقيا حيث الفقر بعد موجات الجفاف التى تعرضت لها البلاد الإفريقية فانتهز المنصرون هذه الفرصة ليقدموا الطعام مغلفاً بالتنصير .

• • •

يقول ولدت فى الهند وانتقلت إلى جنوب إفريقيا ، ولما وجدت محاولات إثناء بعض المسلمين عن عقيدتهم اتجهت إلى دراسة القرآن الكريم والكتاب المقدس وبدأت فى مناقشة بعض المهتمين ، وتحولت المناقشات إلى مناظرات من أجل تعليم المسلمين فى جنوب إفريقيا حقائق دينهم حتى لا يغرر بهم أحد .

وهكذا نشأت المناظرة كسلاح إفريقى فى مواجهة التنصير ، فمنذ وقت طويل وأنا أعد نفسى لهذه المهمة ولما تمكنت من أدواتى أردت كشف زيف هذه المغالطات التى روجها المنصرون على نطاق واسع فى إفريقيا ، ومن ناحية أخرى فأنا أعتبر المناظرة استمراراً لأداء رسالتى فى الدعوة إلى دين الله تبارك وتعالى .

إن القاعدة الأساسية للحوار مقدماً هى البرهان والدليل مصداقاً لقوله تعالى (قل هاتوا برهانكم) ومن ثم يجب أن نطالب الدليل والحجة على المخالفين الدين فإذا تحقق هذان الشرطان نستطيع أن نقدم الدعوة فى إطارها الصحيح .

وفى مجال الدعوة فى عالمنا الإسلامى يجب أن تبدأ من القرآن الكريم والسنة النبوية فهما الأساس والأصل الثابت لدينا .

والحقيقة أن المسلمين قد اتبعوا الطريق الصحيح لأن الله تبارك وتعالى قد خلق المسلمين للدعوة الإنسانية وعندما نسوا دورهم ضاع منهم هدف وجودهم ، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فتقدمنا ورقينا مرهون بدعوتنا كما أوضح القرآن الكريم : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) .

ماذا علينا لو تركنا هذا التغيير الكبير (الوحدة) واتجهنا إلى القرآن الكريم نقرؤه ونتدبر معانيه ونطبقه على أنفسنا وفى علاقاتنا ، عندئذ ستحدث الوحدة بشكل تلقائى وسوف تتوحد أفكارنا ومفاهيمنا وغاياتنا .

الدكتور حامد ربيع

المواجهة الكاشفة

لم تستطع إقامتى الطويلة فى دير (سان فرانشسكو) بمدينة الفاتيكان ولا التعامل اليومى مع رهبان الجزويت أن تحولنى عن تمسكى وقناعتى بتلك الحضارة : الحضارة الإسلامية .

إن الولاء للحضارة لا يعرف العلم ولا ينبع إلا من الذات ، هل حقاً حبى لحضارة آبائى وأجدادى لم ينبع إلا من الذات .

ولكن هذه الملحوظة العابرة جعلتنى أفرض على نفسى دزلة جديدة منذ عدت إلى مدينة آبائى وأجدادى ، قضيت خمسة عشر عاماً أنبش فى تلك الحضارة التى تعلقت بها أريد أن أثبت لنفسى أن العاطفة لا موضع لها ، ولكن هناك التقويم الوضعى الرصين .

وهكذا خلال فترة طويلة من حياتى عايشت أئمة الفقه وقادة الفكر وعلماء تلك الحضارة ، وتنقلت من مالك وأحمد بن حنبل وزملائه إلى البيرونى والخوارزمى ، وتفاعلت مع ابن خلدون أتابعه فى مراحل حياته ، ولم أترك نصاً سوى وقد أحلته إلى حقيقة ديناميكية أعاشرها وتعايشنى ، وشاءت الاقدار أن تقع فى يدى وثيقة :

﴿ سلوك المالك فى تدبير الممالك ﴾

لابن أبى الربيع التى نقلتنى إلى ميدان آخر لم أكن أعرفه ، إن هذه الوثيقة ليست فلسفة وليست علماً ولكنها تحليل للإدراك السياسى الذى ساد الحضارة الإسلامية خلال النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ، وددت أنقل معاناتى

إلى الخطب والرسائل وإلى الكتابات الأدبية وبصفة خاصة إلى الوثائق المتوفرة في مكتبات الظاهرية بدمشق وأبو حنيفة ببغداد .

واليوم وأنا بصدد أن أخرج من تلك العزلة التي فرضتها على نفسي لا تعامل فقط مع العلم والعلماء وقد ترسبت في ذهني القناعة بأنه قد آن الأوان لأن أتجه إلى الرجل العادي أقنعه بصدق الأحاسيس وعمق التماسك وصلابة الإيمان .

ما زلت أذكر أستاذي الإيطالي الأعظم (أرانجو روبز) الذي علمني كيف أعيش مع التاريخ والحضارة وقادني إلى تراث الخبرة الرومانية وإلى مسالك ودهاليز الحضارة الكاثوليكية ولو لم أتعلم مقارنة الحضارات ما كنت قد استطعت بقدراتي الذاتية أن أصل إلى اكتشاف الشفافية التي تمثلها حضارتنا الإسلامية والنبوغ الذي تعكسه القيادة العربية وأيضاً الفشل الذي سجلته خبرة تعاملنا مع ذلك التراث .

* * *

حقيقتان لا يستطيع أي مهتم بالمشاكل العامة أن يشكك في صحة أي منهما : التدهور الفكري الذي تعيشه الأمة العربية من جانب ومسئولية القيادات المثقفة المصرية عن هذا التدهور من جانب آخر فلنترك الأسباب ولندع التعبيرات الحقيقية التي أدت إلى هذا الوضع الذي تعيشه الأمة العربية والذي لم تعرفه تلك الأمة في تاريخها الطويل ، إن أي مؤرخ محايد لا يستطيع أن ينكر أنه حتى في عصور الظلام القاتم برزت العقليات الخلاقة ولو في حدود قدراتها واستطاعت أن تنير الطريق ولو بإشعاع محدود ، أيضاً عقب التدهور الإسلامي في العصور العباسية المتأخرة خرجت نماذج تدعو وتفكر وتترك خيطاً متصلاً لمن يعقبها . الحضارة العثمانية بكل ما تمثله من نقائص قدمت لنا نماذج عديدة من القدرة على التأمل ومعاناة مشاكل العصر . ولكن منذ بداية هذا القرن وبصفة خاصة منذ الحرب العالمية الثانية أصاب العقل العربي نوع من الترهل المخيف ، لا هو قادر على أن يتابع سيرة آبائه ولو بجمود وتحجر ، ولا هو صالح لأن يستقبل الذي أضفيناه على الفكر الأوربي شرقياً وشيوعياً كان أم غربياً وأمبرياليًا ، بل هو غير مستطيع أن يفكر في مشاكله الحقيقية بلغة الفطرة البدائية . فلماذا ؟

سؤال آن الأوان لأن نطرحه : المقدرة العربية تاريخ لا يستطيع أحد أن يشكك فى فاعليتها ، والطبيعة وهبتنا الإمكانيات وعالم الربع الأخير من القرن العشرين يفتح الباب واسعاً لكل موهبة ، والمرحلة التى تجتازها المنطقة تفرض الجدية والشعور بفداحة المشاكل التى يجب أن نواجهها ، ليس فقط علينا أن نلحق الركب الحضارى الذى تخطانا منذ فترة غير قصيرة بل وعلينا أن نواجه احتمالات الاستئصال الحضارى من عدو يقف منا موقف المتربص .

إن الخروج من الجمود والتخلف لا يتم طفرة واحدة ولكن ما يعنينا هو مجرد التفكير فى مشاكلنا : طرح العقبات التى تصادفنا ومحاولة علاجها بأبسط المفاهيم وأقصر الطرق .

يجب أن نعترف مقدماً أن الطبقة المثقفة التى ننتمى لها قد خانت أمانتها ونسيت واجبها وما علمه لها آباؤها ، وأصبح كل ما يعنيها هو وجبة طعام وكأس به شراب أصفر .

ولكن لندع الماضى بالآمه ولنترك ذلك للأجيال القادمة تقول كلمتها ولنبدأ من جديد ولنترك الحديث عن الأخطاء ولنتحدث عن كيف يجب تجنب الأخطاء .

منذ عدة أعوام ونحن نسعى إلى تحقيق هذا الهدف وعلى وجه التحديد منذ هزيمة يونية ١٩٦٧ ونحن نسعى للخروج من هذا المأزق دون أن نجد وسيلة لذلك . فلنترك الماضى ونتحدث عن المستقبل .

• • •

إن الإطار الدولى المعاصر يملك مجموعة من العناصر جميعها تدفع لإيجاد مناخ معين يسمح للإسلام بالانتشار الحقيقى ، بحيث يمكن القول بأن هذا الإطار هو تربة صالحة لاستقبال الإسلام ولتحقيق عملية إخصاب لم يقدر للإنسانية فى تاريخها الحديث من قبل أن تعاصر مثيلا لها ،

أما هذه العناصر فهى باختصار :

أولا : إن الفاعلية فى التعامل الدولى (بمعنى التأثير فيه) لم تعد مقصورة على

الدول والحكومات فقط ، بل إن هناك قوى ضاغطة جديدة تستقل عنها مثل الشركات متعددة الجنسية والمنظمات الدولية غير الحكومية ثم (الدين) الذى الآن مصدراً آخر من مصادر التوجيه الحقيقى فى القوى السياسية .

لقد خرج الدين من قوقعته التى فرضها عليه الفكر السياسى للثورة الفرنسية فقد خرجت الكنيسة الكاثوليكية منذ أواخر القرن الماضى لتؤكد بوضوح إنها لن تستطيع أن تقف من حركات الإلحاد ومن اتجاهات الضغط على المدافعين عن الكنيسة موقف الصمت والاستسلام ، ومنذ ذلك التاريخ قدمت نظرية كاثوليكية الحركة السياسية محورها : استمرارية التقاليد السابقة من حيث الفصل بين المنظمات السياسية والمنظمات الدينية ، ولكن من جانب أخر إيجاد الأدوات المدنية التى تعمل بانصياع كامل لإرادة الكنيسة .

ومن ناحية أخرى استطاعت اليهودية أن توجد الصهيونية السياسية ومن خلالها استطاعت بناء الدولة الإسرائيلية

وفى مواجهة هذا التطور ظل الإسلام هو الدين الوحيد المتقوقع حول نفسه .

ثانياً : إن العالم الإسلامى بفضل ما يملكه من عناصر القوة كالثروات المعدنية والبترولية قد أضحى موضع جذب واهتمام ليس فقط بين الدولتين الكبيرتين بل من كافة الدول الأخرى .

ثالثاً : فى نطاق الإطار الايدلوجى المعاصر نجد أن الإسلام وحده هو القادر على أن يطرح تصوراً ثالثا : يقف بين الماركسية والليبرالية الغربية اللتين فشلتا فى تحقيق سعادة البشرية .

رابعاً : إن علاقة التوازن بين العملاقين (السوفييتى والأمريكى) تجعل القوة الإسلامية موضع إغراء من جانب ومن جانب آخر موضع رهبة وخوف إذا ما انضمت حقيقة عملاق دون آخر .

* * *

علينا أن نعيد فهم حقيقة ومتغيرات هذه المرحلة التى دخلت فى حكم التاريخ ،

أليست هذه القصة التى نحاول أن نكشف عناصرها ومتغيراتها هى نفس الخبرة التى تعاملت معها الأمة الألمانية عقب الاحتلال الفرنسى وسيطرة نابليون والتى تصدى لها بقوة وإرادة (فيشت) فيلسوف الوحدة الألمانية .

لقد عرفنا الطفيليات التى شوهت تاريخنا القومى وتراثنا الحضارى باسم التجديد وخدعتنا الأسماء الرنانة التى طبلت لها الدعايات الأجنبية والتى فرضت على المنطقة وبصفة خاصة على مصر جميع مسارات التطور .

• • •

إن وظيفة الأستاذ الجامعى هى وسوف تظل دائماً أن يحافظ على قيم أمته التاريخية حتى ولو احتضنها بجسده وحماها بحياته ولو اضطر أن يخفيها بكل قواه منتظراً تلك اللحظة المناسبة ليقدمها لتلك الأجيال الجديدة بها نقية صافية تقود وتهدى إلى طريق المجد والفضيلة .

* * *

هذه كلماتى إلى كل من لم يعمر قلبه سوى الإيمان بقدسية تعاليم أجداده إلى كل من ظل صامداً إزاء موجات التحلل التى تحيط بنا .

إلى كل من أحاط ثقته فى تاريخنا الإسلامى بحائط صلب لا تنفذ منه معاول الهدم والتخريب .

إلى كل من وقف ثابتاً لا تعنيه السهام المصوبة إليه .

إلى كل من لم ير فى الدم الذى ينساب من جسده سوى ضريبة يدفعها للأجيال القادمة .

(منقول بتصرف من كتابات الدكتور حامد ربيع)

فهـــرس الأعـــــلام